جعفر الخليلي

هكذا عرفتهم

خواطر عن أناس أفذاذ عاشوا بعض
الأحيان لغيرهم أكثر مما عاشوا لأنفسهم

الجزء الخامس

هكذا عرفتهم

خواطر عن أناس أفذاذ عاشوا بعض
الأحيان لغيرهم أكثر مما عاشوا لأنفسهم

مكتبة الجوادين العامة
مؤسسة السيد هبة الدين الحسيني
الشهرستاني
تأسست سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م
مشهد الكاظمية - العراق

هكذا عرفتهم

خواطر عن أناس أفذاذ عاشوا بعض
الأحيان لغيرهم أكثر مما عاشوا لأنفسهم

الجزء الخامس

تأليف
جعفر الخليلي

هديـــة
مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث
إلى مكتبة الجوادين العامة

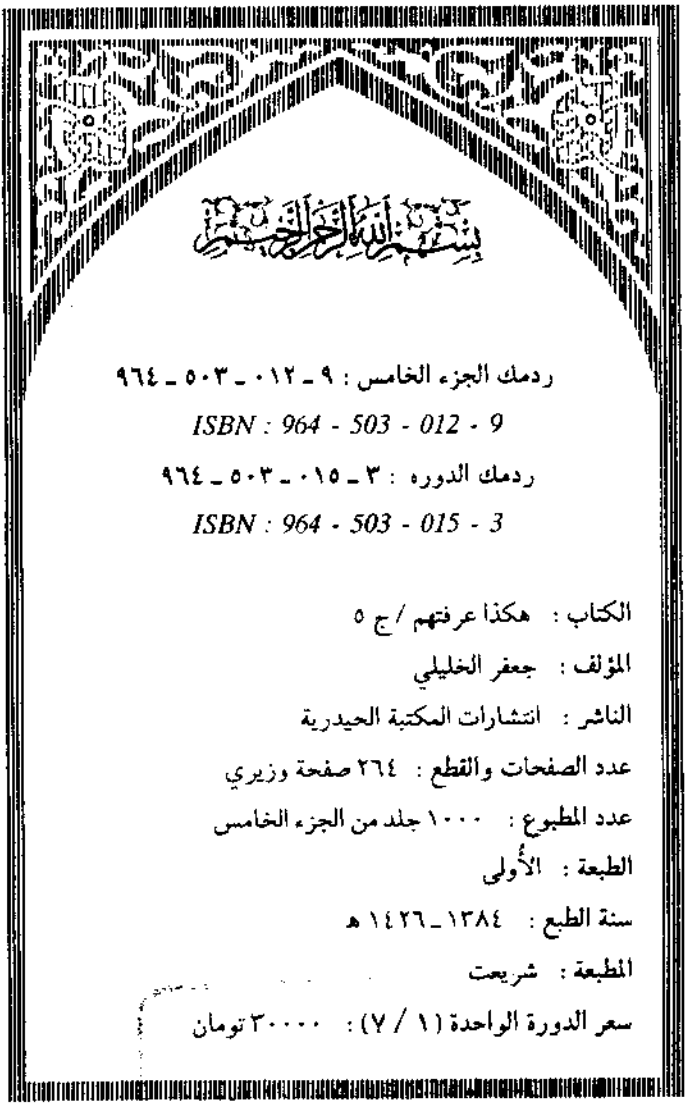

بسم الله الرحمن الرحيم

ردمك الجزء الخامس : ٩ ـ ٠١٢ ـ ٥٠٣ ـ ٩٦٤

ISBN : 964 - 503 - 012 - 9

ردمك الدوره : ٣ ـ ٠١٥ ـ ٥٠٣ ـ ٩٦٤

ISBN : 964 - 503 - 015 - 3

الكتاب : هكذا عرفتهم / ج ٥

المؤلف : جعفر الخليلي

الناشر : انتشارات المكتبة الحيدرية

عدد الصفحات والقطع : ٢٦٤ صفحة وزيري

عدد المطبوع : ١٠٠٠ جلد من الجزء الخامس

الطبعة : الأُولى

سنة الطبع : ١٣٨٤ ـ ١٤٢٦ هـ

المطبعة : شريعت

سعر الدورة الواحدة (١ / ٧) : ٣٠٠٠٠ تومان

الحاج أبو رشدي عبد الهادي الحلبي

كلمة حق في
الحاج عبد الهادي الجلبي

بقلم عبود الشالجي

ترجع معرفتي بالحاج عبد الهادي الجلبي ، أبي رشدي ، إلى العشرينات ، أيام كان والده الحاج عبد الحسين الجلبي ، طيب الله ثراه ، مثابة ، وكان مجلسه في حديقته المطلة على دجلة ، عامراً كل يوم بالعشرات من الناس ، على اختلاف طبقاتهم ، من أصدقاء متفقدين ، ومن طالبي معونة ، وكان الحاج عبد الهادي ، وهو اذ ذاك في ميعة الشباب ، لولب ذلك المجلس ، يفيض على الزوار ، من بشاشة وجهه ، وعذب لسانه ، وجميل ملاطفته .

وتقدمت الايام ، وازددت بالحاج أبي رشدي معرفة . وتبين لي ، انه يجمع إلى بشاشة وجهه ، وعذوبة لسانه ، قلباً ينبض بحب الخير ، وخلقاً كريماً ، ومروءة تدفعه إلى بذل الجهد في معونة من يستعين به ، سواء بجاهه أو بماله ، فزاد ذلك في اعجابي به ، هذا الاعجاب الذي شاركني فيه كل من عرف الحاج عبد الهادي ، واطلع على حقيقته ، وقد كان لهذه الصفات الكريمة ، أثر بين في تعلق الناس به ، تعلقاً عرضهم في كثير من الاحيان لبطش السلطة الحاكمة بهم ، دون أن يزحزحهم ذلك البطش عن التمسك به ، والالتفاف حوله .

وليس كل ما يمارسه الحاج الجلبي من اعمال الخير معروف بين ، فان الناس يعرفون انه صاحب القسط الاوفر من الجهد والبذل من اجل انشاء مستشفى جمعية حماية الاطفال في الكاظمية ، وانه صاحب القسط الاوفر من الجهد والبذل في كثير من المؤسسات التي تفيض الخير والنفع على المجموع ، ولكن الذي لا يعرفون ، ان غير واحد من الذين أتموا

دراساتهم العالية ، في معاهد ثقافية خارج العراق ، كانوا قد درسوا على حسابه ، وانّ طائفة من المرضى ، سافروا إلى أوروبا للاستشفاء والمعالجة . كانت معالجتهم على حسابه ، وانّ كثيراً من العائلات المعوزة ، كانت — وما تزال — تتقاضى من الجلبي أبي رشدي ، رواتب شهرية ، تكفل لافرادها معيشة تصونهم من التكفّف .

والحاج عبد الهادي الجلبي ، قارىء جيّد ، يبحث عن الكتب الجديدة ، ويطالعها ، ويناقش في مضامينها ، تشاركه في ذلك عقيلته الفاضلة ، السيدة العلوية النبيلة ، الحاجة أم رشدي ، التي جمعت إلى خلقها الكريم ، عقلاً نيراً ، وفضلاً راجحاً ، واتقاناً للغات اجنبية ، إضافة إلى العربية . اتقاناً كان يلجئني اليها في أحيان كثيرة ، استوضح منها ما كان يتعسّر عليّ فهمه من بعض التعابير في تلك اللغات .

وكان الحاج عبد الهادي الجلبي قد قرأ ، في جملة ما قرأ ، كتاباً للاستاذ جعفر الخليلي ، عنوانه : هكذا عرفتهم ، وصفه مؤلّفه بانّه « خواطر عن أناس أفذاذ عاشوا بعض الاحيان لغيرهم أكثر مما عاشوا لأنفسهم » ، وصدرت من هذا الكتاب أجزاء أربعة ، تناولها عدد من العلماء ورجالات الادب والمعرفة بالثناء العاطر ، باعتبارها أسلوباً جديداً يدخل في أدب العروض والتراجم ، وتساءل الجلبي عن سبب انقطاع هذه السلسلة من هذا الكتاب ، فعلم أنّ للخليلي ما يقارب خمسة أجزاء أخرى من هذا الكتاب ، لا تزال مخطوطة ، فدفعه حبه للثقافة ، إلى أن يطلب من الخليلي أن يكون اخراج هذه الاجزاء المخطوطة ، إلى حيز الطبع ، على نفقته الكاملة .

والخليلي إلى جانب ما يتصف به من الجرأة التي طالما لقي بسببها ألواناً من المضايقة والأذى حتى سقط أمام بيته مضرجاً بدمائه يوم كان يصدر جريدته ويقسو في مكافحة التقاليد البالية ، والعادات الذميمة .

أقول والخليلي الذي أعرفه بمثل هذه الجرأة خجول لحد لا يوصف بحيث يجزع من ذكر الثناء عليه والاشادة باسمه ، لذلك أبى أن يقول شيئاً

أمام طلب الحاج أبي رشدي ، وغمره الخجل فأضاع عليه طريق الكلام حتى كلمة الشكر التي يفرضها الواجب لم تندّ على شفتيه بداعي هـــذا الخجل المعروف عنه .

وها هوذا الكتاب يخرج بكل أجزائه المخطوطة إلى حيّز الطبع على نفقة الحاج عبد الهادي الجلبي ، وبذلك يكون (الجلبي) قد أسدى إلى القارىء العربي من المعروف ما يشكره عليه كل أديب أريب ، وكل قارىء مدرك ، ولولاه لطمرت هذه الأجزاء في زوايا الاهمال بسبب صعوبة الطبع وكثرة نفقاته ، ولعفا عليها الزمن ، فألف شكر لهذه الحمية ،وألف تحية وامتنان للحاج عبد الهادي الجلبي ، إصالة عني ، ونيابة عن المؤلف الذي سيطلع على هذه المقدمة بعد طبعها ويؤيد كل ما جاء فيها وأكثر .

بحمدون ــ لبنان

عبود الشالجي

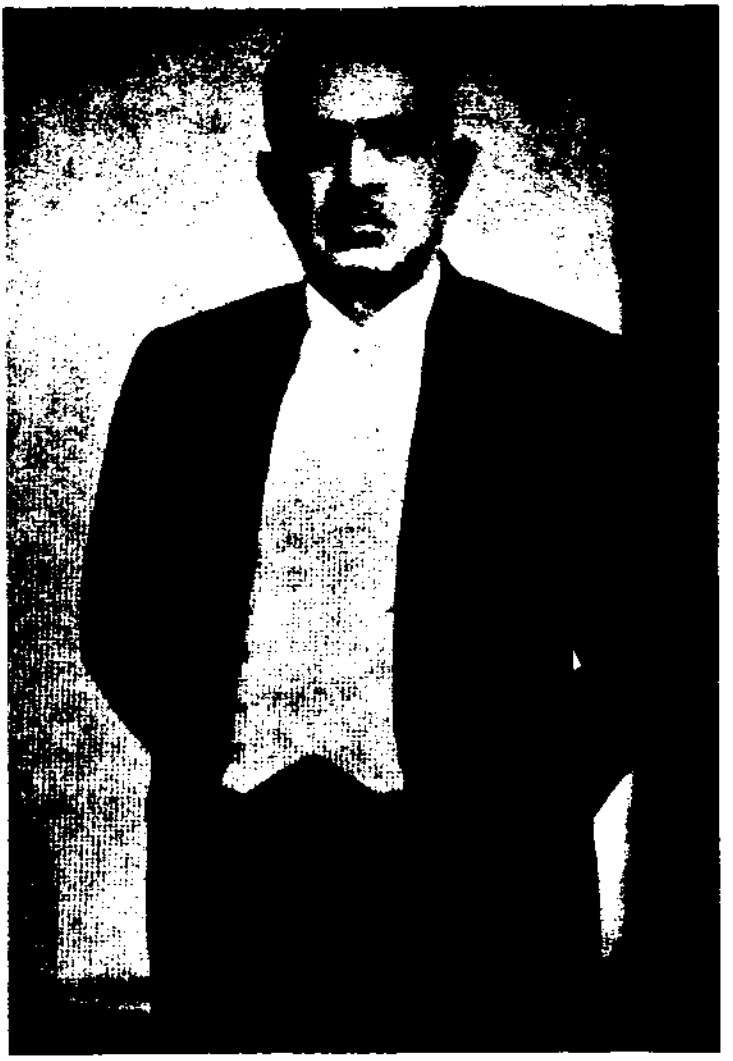

جعفر حمندي

كيف عرفت السيد جعفر حمندي ؟

١٨٩٤ – ١٩٥٢

من ألمع السادة الحسنيين في العراق يأتي السيد جعفر حمندي في الطليعة من حيث اضطلاعه بالقانون والادارة ، ومن حيث أدبه ، ودماثة خلقه ، وعفة لسانه، وأشهر السادة الحسنيين في العراق هم الذين تناسلوا من عطيفة بن رضاء الدين بن علاء الدين بن مرتضى بن محمد بن عز الدين بن الشريف حميضه بن نجم الدين محمد بن أبي نمي بن الحسن بن علي بن الشريف الأمير قتادة ملك الحجاز بن ادريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن الحسين بن سليمان بن علي بن عبد الله الأكبر بن محمد الأكبر الثائر بن موسى الثاني بن عبد الله الشيخ الصالح بن موسى الجون بن عبد الله المحض ابن الحسن المثنّى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) .

وقد أورد الدكتور حسين علي محفوظ عمود هذا النسب للذين تناسلوا من عطيفة في الكاظمين وبغداد في الجزء الثالث من قسم الكاظمين من (موسوعة العتبات المقدسة) .

وقد تفرعت من هذه الشجرة ببغداد فروع كثيرة ، كان منها آل الحسني ، وآل الحيدري ، وآل العطار ، وآل الهادي ، وآل الجواد ،

وآل عطيفة في الكاظمين ، وآل السيد عيسى وغيرهم . والذي يرجع إلى تاريخ الحسنيين في العراق ، ومقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني يجد أن معظم الثائرين في وجه الأمويين والعباسيين في العراق كانوا من الحسنيين ، واذا استثنينا سيد الشهداء أبا الأئمة الطاهرين من الحسينيّين الذي انفرد في التاريخ بنوع الشهادة والاباء وعدم تسليمه نفسه تسليم الذليل ، واستثنينا زيد بن علي بن الحسين (ع) الذي كان أول من لقّب بالشهيد بعد جده الحسين ، نجد أن ألواناً من التضحية العجيبة والثورة في وجه الظلم التي قام بها الحسنيون في جميع الأقطار الاسلامية وفي العراق نفسه لجديرة بأن تكون شاهداً على ان الكثير من الحسنيين قد نهجوا في جهادهم وثورتهم نهج الاقتداء بنهج عمهم الإمام الأكبر سيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) وحفيده زيد الشهيد .

وأقامت هذه السلالة من الحسنيين في العراق منذ القرن الأول الهجري ، ولأجداد السيد جعفر حمندي المنحدر من هذه السلالة في بغداد شواهد من الآثار يعود تاريخها إلى زمن بعيد ، فقد عثر على وثيقة يرجع تاريخها إلى ما قبل ثمانمائة سنة تعين فيها املاكاً لهم ببغداد ، وحتى الآن ومن أوقاف هذه الأسرة فندق (سميراميس) أو فندق (السندباد) ومحلات (شريف وحداد) عند راس جسر الأحرار وما لا أدريه من أوقاف أخرى ببغداد والمدن العراقية الأخرى من قديم الزمان .

لذلك حين نعى الخطيب الشهير الشيخ محمد علي اليعقوبي السيد جعفر حمندى لم تفته الاشارة إلى منزلة هذه الأسرة في قوله :

بكـــوا فسقوا ضريحك بالدموع صبيحة ، ودعوك (أبا وديع)
لأنك فرع أصل فيـــــــه زاك فبورك بالأصول وبالفـــروع

ومثل هذا قول الشاعر الكبير الحاج عبد الحسين الأزري عن سلالة جعفر حمندى والاشارة إلى الاباء والتضحية والثورة ضد الظلم الذي

توارثوه من سيد الشهداء سيد أباة الضيم فقال من بعض ما قال في رثائه :

يا ابن الاباة الألى طالت حياتهـــم فخراً وان قصرت أيامها عـــددا
أولئك الشم من أبناء فاطمـــة الوارثين الإبا من سيد الشهـــدا

* * *

ولد السيد جعفر حمندي ببغداد سنة ١٨٩٤ ونشأ نشأة أبناء الأسر المحافظة، ذات النهج المعين في التنشئة، وتعلم القراءة والكتابة. ونزل إلى السوق يعمل في التجارة التي كانت طابعاً للغالب من أسرته في ذلك العصر عدا البعض من آل الحيدري الذين سلكوا سلوك أرباب الفقه والمجتهدين، وقد برز منهم غير واحد من كبار المجتهدين الذين عرفنا منهم من المتأخرين السيد مهدي الحيدري المجتهد الأكبر في الكاظمين، الذي جمع بين الرياستين الروحية والدنيوية، وحتى الآن وفيهم غير واحد من هذا السنخ، ولربما تأثر السيد جعفر بهذا النهج فراح يطلب العلم في المدارس التركية لتعلّم العلوم العصرية التي كانت تعنى بها المدرسة الجعفرية ببغداد عناية مفرطة ولا سيما باللغة العربية والفرنسية والتركية.

وكان يومذاك الشيخ شكر علماً من أعلام اللغة العربية والفقه الذي بوأه مقام المجتهد، فكان يخص المدرسة الجعفرية برعاية خاصة منه تأثر بها السيد جعفر يوم قـــام الشيخ شكر بالتدريس في هـــذه المدرسة، ومع كل ذلك لم يترك السيد جعفر العمـــل في تجارة الأقمشة على قدر مـــا كان يتيسر له من فراغ ولا سيما في أيام الجمع التي لم تكن الأسواق تغلق فيهـــا كما هـــي اليوم. وكانت سيرة أسرته تستدعي المحافظة حـــتى على لباسه، فدخل مدرسة الحقوق وهو معتمر العمة الخضراء الغامقـــة اللون الدالة على النسب العلوي، وتخرج من الحقوق، فتولى القضاء الشرعي ببغداد، ثم تعين حاكماً مدنياً لمحكمة مدينة الكاظمين، وعمل مشاوراً حقوقياً بوزارة الداخلية، ثم نقل حاكماً لمحكمة النجف سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠ على ما أظن، وتولى الحاكمية وأنا لم أره ولم أتعرف به. وقد يكون هذا

غريباً لصحافي يجب أن يكون كثير الاتصال بالناس على قدر الامكان ، ولاسيما بالحكام الاداريين والقضاة ، وحكام المحاكم القضائية ، ومتابعة الأحوال الشخصية ، والجرائم ، والمساجين ، والحوادث غير الاعتيادية على الأخص ، وهذا ما كانت توليه جريدتي عناية خاصة .

وفي هذه الأثناء ، في أثناء وجود السيد جعفر حمندي على رأس محكمة النجف حدثت حادثة مريعة اهتزت لها النجف اهتزازاً عنيفاً وذلك أن أحد طلاب الفقه من المشايخ الدينيين انخرط في صفوف صلاة المغرب والعشاء خلف المرجع الأكبر السيد أبي الحسن الموسوي الأصفهاني منتهزاً فرصة السجود في تلك الصفوف الكبيرة الحجم والطويلة الامتداد وهجم على السيد حسن نجل السيد أبي الحسن والمرجع العام ووالد الدكتور موسى الموسوي أستاذ الفلسفة بجامعة بغداد اليوم ، وذبحه كما تذبح الشاة بسكين لها صفة خاصة الأمر الذي دعا من يجاور المجنى عليه في الصلاة أن يقطع صلاته ويهب في وجه المجرم ، فيهرب المجرم ويلاحقه الناس ، فيذودهم عن نفسه بالسكين حتى حوصر في السوق الكبير وتسلمته الشرطة هناك ، وحاطته بالعناية به خوفاً من مهاجمة الناس ، أما القتيل فقد حمل إلى المستشفى . وحين انتهت صلاة الامام والده والصفوف الكثيرة التي كانت تصلي خلفه ، بلغه خبر مقتل ابنه ، فلم يقل شيئاً أكثر من أن رجّع بقوله : (إنا لله وإنا اليه راجعون) وقال — على ما أذكر — ان حزني أن يكون القاتل طالب دين لأكبر من حزني على فقدان ولدي .

وكان عليّ أن أقوم بمهمّة ما اختطته لجريدتي ، وان هذه المهمة لتلزمني أن أبحث عن شخصية القاتل ، وهويته ، ومسكنه ، والغرض الذي دعاه إلى ارتكاب هذه الجريمة البشعة في رجل له سيرة من أشرف السير في حياته، لاسيما وقد كنت أنا والقتيل طالبين في مدرسة واحدة، بل وفي صف واحد، وعلى مكتب واحد، وكان ثالثنا فيه السيد ضياء الدين بحر العلوم رئيس

مجلس التمييز الشرعي السابق .

لقد كان علي أن أقوم بهذه المهمة الصحافية في تلك الليلة ، وأن أطبع بها ملحقاً خاصاً (للفجر الصادق) بحيث ينتشر صباحاً وقبل تشييع الجنازة ودفنها ، وهكذا رحت أبحث بهمة وبسرعة فائقة ، واهتديت إلى اسم الجاني وهو (الشيخ علي القمي) ، وتاريخ قدومه من مدينة (قم) بقصد الدراسة ، الى النجف ، واقامته الأولى في مدرسة (الباكودبي) ، ثم انتقاله إلى مدرسة (الآخوند) في الحويش ، واهتديت إلى غرفته ، وتعرفت بأكثر المتصلين به من الزملاء ، ووجدت له حوادث غير قليلة من التعدي على زملائه سباً أحياناً وضرباً أحياناً أخرى ، وغير ذلك مما كان يجعل الساكنين معه في المدرسة التي يبيتون فيها يعيشون في حذر منه ، كما انني من جهة أخرى علمت أنه كان متزناً في فترات وحبيباً للنفس ، ولست أدري لِمَ لَمْ يخالجني الشك في سلامة عقله وأنا أستعرض كل هذا بنفسي ، ولماذا لم أتهمه بالجنون (الادواري) ؟

وأنهيت البحث والتتبع في نحو الساعة الثالثة أو الرابعة بعد منتصف الليل ، وكنت قد هيأت المطبعة التي كنت أطبع الجريدة فيها لانتظاري متى عدت ، فما كادت الشمس تبزغ إلا وكان هذا الملحق بيد القراء . وكان ثمن العدد من الجريدة حينذاك (آنة) واحدة أي ما يساوي أربعة فلوس في هذا اليوم ، ونفد العدد ، وقال لي يوسف رجيب انه اشترى هذا الملحق (بقران) واحد أي ما يساوي أربع أنات ، وهو الرجل الذي كانت تصل اليه الجريدة على سبيل الهدية .

وسيق المجرم إلى المحكمة ، وأحاله السيد جعفر إلى المحكمة الكبرى ولم يفهم الرأي العام بأن مثل هذه الجريمة مما يخرج النظر فيها عن دائرة اختصاص هذه المحكمة ، فكان بالامكان أن يواجه حمندي بالتظاهر ضده

والنقمة عليه ، خصوصاً وان المواكب والوفود بدأت تتقاطر على النجف في كل يوم مرة أو مرتين وهي تنشد الأناشيد بوجوب اعدام القاتل ، ولكن السيد جعفر كانت له (محبوبية) ومكانة خاصة في الأوساط كان قد اكتسبها من أحكامه التي كان يتحدث بها الناس في المجالس ، ومع هذا رأى أن يواجه الزعيم الروحاني والد القتيل ليعلمه بأن البت في مثل هذه الجريمة خارج عن اختصاص هذه المحكمة ، وانه قد سمع باذنه شيئاً غير قليل بأنه غير راغب في اعدام القاتل . وكانت دهشة الحاكم كبيرة حين رأى المرجع العام يطلب منه أن يسعى جهده الى العفو عن المجرم إذا ما تألفت المحكمة الكبرى ، وقال انه أي والد القتيل سيكتب إلى المحكمة بخطه مثل هذا الطلب ، وقد فعل .

واجتمعت المحكمة الكبرى في النجف ، وكان السيد جعفر عضواً فيها ، وأجريت محاكمة المجرم ، وكان من رأي السيد جعفر استمرار تأجيل هذه المحاكمة والتسويف في صدور الحكم إلى أن تهدأ هذه الموجة من الصخب الذي كلما أوشك أن يهدأ جاءته موجة جديدة من مواكب عزاء من احدى المدن ، والغريب في الأمر أن هؤلاء الوفود لم تقتصر على المسلمين وحدهم وانما كانت هناك وفود من الطوائف المسيحية على اختلاف مذاهبهم ، ووفد من اليهود تحت رئاسة الحاخام ، وقد رأيت أنا عدداً من الصائبة الذين جاؤوا من قصبة (سوق الشيوخ) مع وفد المدينة ، وكان مندوب جريدة (الفجر الصادق) يتابع نشر وقائع جلسات المحكمة ، وأخبار الوفود والمواكب .

وأخيراً صدر الحكم — بمقتضى الحق العام — بالسجن المؤبد ، وشاع يومذاك أن السيد جعفر كان مخالفاً ، فبعض الناس كان يبني مخالفته على أنه كان يريد اعدام القاتل ، والبعض الآخر كان يقول بأنه كان يريد الافراج أو التبرئة ! !

وكثر لغط الناس ، لأن المحكمة كانت قد منعت حضور المشاهدين في جلساتها الأخيرة لأن الناس كانوا يتجمهرون حول المحكمة ، ويهتفون بهتافات منكرة كلما اجتمع الأعضاء لاجراء المحاكمة .

وسيق المجرم إلى سجن الحلة وبعد ذلك نقل إلى سجن بغداد وانكشفت القضية وظهر أن السيد جعفر كان يشك في سلامة عقل القاتل الذي جئنا لهذا الشك بدلائل في ملحق للفجر الصادق ولكننا لم نلتفت اليه نحن ، هذا بالاضافة إلى اصرار السيد أبي الحسن باطلاق سراح المجرم وشموله بالعفـــو .

ولست أدري هل استعانت المحكمة الكبرى بالأطباء ، وهل نفى الأطباء الجنون عنه ،وكيفما كان الأمر فقد سبب صدور هذا الحكم – الذي تأيد فيما بعد – النقمة والغضب عند العوام .

وبعد ثلاث أو أربع سنوات دعاني الدكتور كاظم شبرّ ومعي بعض الاصدقاء – وكان الدكتور شبرّ يومها لا يزال تلميذاً في الصفوف الأخيرة من كلية الطب – إلى مشاهدة دار المجانين بعد أن زرنا كلية الطب وكتبنا في سجل الزائرين كلمة عن هذه الكلية ، وهناك ، في دار المجانين ، رأيت (الشيخ علي القمي) يرسف في أغلال من الحديد ، وسألت عنه الطبيب المختص فقال انه مجنون خطر ولا يجوز التغافل عنه.. !! وجاء هذا يؤيّد شك السيد جعفر حمندي – إذا كان قد شك في جنون هذا القاتل – ولا يستبعد أن يكونوا قد فحصوه في وقته لأن الشيخ علي القمي كان جنونه (دورياً) كما يبدو لي . وهذه الحادثة تشهد كم كان السيد جعفر متزناً في إصدار أحكامه . وقد عرف الرأي العام النجفي بما انتهت اليه حالة القاتل أخيراً.

• • •

وصار في علم جريدتي أن الحاج عبد الرسول تويج وهو من وجوه

الكوفة ، وممن كان له شأن غير منكور في الثورة العراقية الكبرى ، قد أقام الدعوى أمام حاكم محكمة النجف السيد جعفر حمندى في قضية صلحية متخذاً المحامي علي محمود الشيخ علي وكيلاً عنه ، وقد خسر الدعوى أو أن المحامي علي محمود الشيخ قد أحسّ من سير الدعوى بالخسارة لأني لا أذكر ذلك بالتفصيل ، فقد خرج المحامي غاضباً ، واتهم السيد جعفر حمندى باهانته مدعياً بأنه قد ألقى اضبارة الدعوى في وجهـــه وطلب المحامي من الحاج عبد الرسول تويج أن يهيىء له شهوداً يشهدون بأنهم رأوا بأعينهم هذه الاهانة . وان الحاج عبد الرسول قد هيّأ ستة أشخاص يشهدون مثل هذه الشهادة ، ولما كان هؤلاء الشهود من السوقة وكان بعضهم من الحفاة وذوي الثياب الرثة تولى الحاج عبد الرسول العناية بهندامهم وقد ألبسهم عمائم وجبباً وعباءات على ما قيل وأرسلهم إلى بغداد للشهادة لدى المسؤولين ووزارة العدل كوجهاء وأشراف وأرباب ذمة .

كل هذا قد تناقلته مجالس الكوفة والنجف وسمّت الشهود بأسمائهم ، وذكرت أعمالهم – وكان منهم أحد الفلاحين وآخر بائع طرشي ، وهذه حكاية أشبه بحكاية الحاج حسين الصراف مع الكيلاني كما جاء وسيجيء الحديث عنها في جزء آخر – واستغربت الاوساط من وجودهم في محكمة النجف وادعائهم برؤية السيد جعفر حمندي وهو يهين المحامي علي محمود الشيخ علي .

وكان لا بد لجريدة الفجر الصادق أن تتناول هذه الحكاية الغريبة وأن تسمي الشهود وتناقش خبر وجودهم في النجف حينذاك وفي المحكمة ، لذلك كتبت أنا هذه القصة ووضعت لها عنواناً باللغة العامية على هذا المنوال : (شوية عقل يا أهل الكوفة) أي قليلاً من العقل يا أهل الكوفة ، وجعلت التوقيع باسم محمد الهاشمي ، وكان السيد محمد الهاشمي وهو (الدكتور محمد الهاشمي) أحد أساتذة التاريخ بكلية الآداب ببغداد اليوم ممن كان يعمل

معي في الجريدة هو والأستاذ صالح الجعفري وكنت كثيراً ما أستعمل اسميهما في بعض الأحوال لتنويع التواقيع .

وقد هاج المحامي علي محمود الشيخ علي أكثر من هياج الحاج عبد الرسول تويج ، وكان من أثر هذا الهياج أن أقيمت الدعوى عليّ وعلى الدكتور الهاشمي أمام رشيد الصوفي حاكم محكمة الهندية لتعذر اقامتها أمام السيد جعفر حمندي في النجف قانوناً ما دام السيد جعفر طرفاً فيها .

وكان السيد سعد صالح حينذاك محامياً في النجف وكانت مجاملته للسيد جعفر حمندي تقتضيه أن يتوكل عني أكثر من رعايته لجانبي ، لذلك عرض

يتناولون الغذاء في وسط الصحراء
من اليمين باقر المدني ، وعبد الباقي حميد ، وعبد الصاحب البصام ، والسيد جعفر حمندي ، والمؤلف ، ومهدي الحلبي

عليّ القيام بالوكالة عني وعن محمد الهاشمي محامياً للدفاع ، فاعتذرت ، اذ كنت حينذاك شاباً وجريئاً لحد ما ومغروراً أيضاً فأردت أن أدافع أنا

بنفسي في هذه القضية التافهة ، وحضرت أنا ومحمد الهاشمي الذي لم يخنّ عنّي قلقه إلى محكمة الهندية(طويريج)وإذا بست دعاوى نفاجأ بها،وكل دعوى أقيمت من قبل كل شاهد من هؤلاء الشهود ، ولم يحضر علي محمود الشيخ علي بل أناب عنه ابراهيم السعدي الذي تقدم إليّ معتذراً عن تولي الادعاء ضدي وذلك لسابق معرفته بي، كما لم يحضر الحاج عبد الرسول تويج وانما أناب عنه أخاه الحاج حمد تويج الذي بدا هو الآخر خجلاً مني ، واعترفت أنا بعدم مسؤولية محمد الهاشمي وكوني أنا الذي استعملت توقيعه ، وكان رشيد الصوفي غضوباً وخشناً وفي أسئلته كان صارخاً بصوت عال دلّ على أن الذي بلغني عنه قبل اجراء المحاكمة بأنه كان يصرح بوجوب ادانتي لما كان قد بلغه عن جرأتي وربما كان ذلك صحيحاً،وسواء صح الذي بلغني أو لم يصح فقد حكمنا بعد مرافعات بستة أحكام بالحبس أو الغرامة النقدية ومثلها حكمنا بصفة الحق العام بستة أحكام أخرى ووجوب نشر الحكم في الجريدة ، وانبرى هناك أحد أهالي الهندية الذين كانت قد اكتظت بهم المحكمة ودفع الغرامة عني وعن محمد الهاشمي وأطلق سراحنا ، وتناولنا غداءنا على مائدة الصديق المرحوم عبد الكريم دبس مع جمع من أهل الهندية وعدنا إلى النجف .

وكان خبر تجريمنا بتهمة القذف الشنيع قد انتشر في اليوم التالي في النجف والكوفة ، وللناس قادحون ومادحون ، فاذا ساء هذا الحكم البعض فقد تشفّى به البعض الآخر . وجاءني رئيس كتاب محكمة النجف يعرض عليّ من قبل السيد جعفر حمندي المبلغ الذي دفعناه جزاءً ، معتقداً بأنه كان السبب في كل ما حدث لنا مما حدث،وقد أبيت كل الإباء أن أتناول شيئاً سواء من قبل الصديق الذي دفع عني المبلغ في الهندية وهو عبد الكريم دبس أو من غيره ، وقد حولت له المبلغ ولم يقبل الحوالة فأعدتها اليه ثانية فرفضها لذلك فان أخذ أي شيء من السيد جعفر حمندي سيخدش عزة نفسي لأن الذي فعلته لم يكن من أجل السيد جعفر وانما هو بعض ما تلتزم به

الجريدة نحو قرائها .

وفي هذه المرة قبلت من المحامي سعد صالح أن يتولى تقديم الاعتراض على الحكم باسمي واسم محمد الهاشمي لدى محكمة التمييز في الحلة ، فكتبت اللائحة ودفعت بها أنا إلى محكمة تمييز الحلة وكان أن نقض الحكم وأعيدت الغرامة ، ولا بد من الاعتراف بجميل الصديق الكريم عبد الكريم دبس لرفضه الحوالة التي بعثت بها اليه من النجف تسديداً لما دفع .

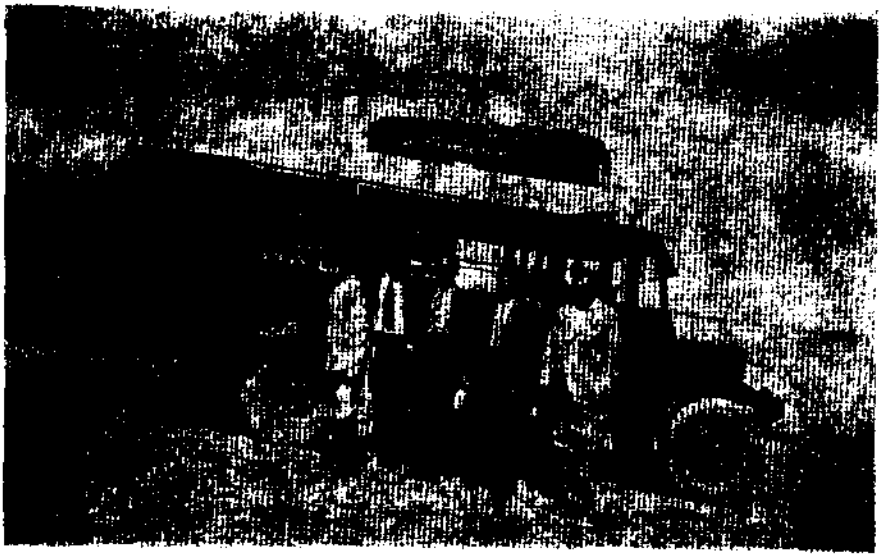

السيد جعفر حمندي وعبد الباقي حميد وعبد الصاحب البصام وباقر المدني والمؤلف في وسط الصحراء

كل هذا وأنا والله لم أر السيد جعفر حمندي في حين كانت المحكمة على بعد خطوات من مكتب الجريدة . فقد ظننت ان في زيارتي له بعد هذا شيئاً من منّة . وانتقل من النجف وأنا لم أره ، ولم أكلمه ، الا بعد زمن وبعد انتقاله من محكمة النجف .

* * *

والتقينا في الشام وعرفت هناك السيد جعفر جيداً ، فقد قيل ان لا محك للانسان مثل السفر ، وان الانسان في السفر غيره في الحضر ، وقد صدقوا والله ، فلأول مرة اكتشف في هذا الرجل ما يشبه الكنز الثمين من حيث الأخلاق ، والمزاج ، والجبلة . وهناك في الشام كنا جماعة ألف بعضها البعض ، وطالما جمعنا مقهى أو مطعم ، أو سفر قريب من الشام ، كان منهم السيد جعفر ، والحاج عبد الهادي الجلبي ، والصديق القديم عبد الباقي حميد مفتش البريد حينذاك في بغداد ، وقد انضم الينا بعض العراقيين الآخرين أذكر منهم عبد الصاحب البصام وهو شقيق السيدة الحاجة أم رشدي الجلبي ، وكان يشكو من علة لازمته ، وكان منهم مهدي الجلبي . وحين أردنا العودة إلى العراق كان الانسجام والتقارب الروحي بيننا ظاهراً وواضحاً بحيث آل إلى صداقة خالصة ، أما عبد الباقي حميد فكانت صداقتي له قديمة نسبياً ، وكان حين يقوم بتفتيش البريد في النجف ، وحين أقوم أنا بزيارة بغداد يكثر اجتماعنا ويطول بيننا اللقاء ، وقد قررنا أن نعود معاً من الشام في سيارة واحدة ، فاستأجرنا سيارة فرنسية ذات اثني عشر مقعداً خصصناها بأنفسنا دون أن ندع أحداً يدخل في زمرتنا . وكان السيد جعفر حمندي قد أكثر من شراء الأقمشة والحرائر من دمشق لأهله وأصدقائه حتى صار لديه ولدى كل واحد منا عدة حقائب . وفي طريقنا إلى بغداد جرت المذاكرة فيما يخص الكمرك إذا ما وصلنا إلى بغداد ، ولا أزال أذكر أن السيد جعفر قد قال انه لا يفكر في رسوم الكمرك ، وانما المهم عنده هو فتح الحقائب من قبل مأموري الكمرك وبعثرة محتوياتها بين الناس فهي تكاد تكون تشهيراً أو شبه تشهير ، وقال انه يفضل أن يدفع كل ما يفرضه مأمور الكمرك ولو كان ذلك ضعف المطلوب ، ولا يبعثر له محتويات الحقائب وينثرها فوق المنصة ، كما يفعلون في سوق الهرج . وقال عبد الباقي حميد ، ان له صديقاً كان رئيس دائرة الكمرك أو مفتشاً بدائرة كمرك البصرة ، وقد تعرف اليه في أثناء قيامه بالتفتيش ، ثم نقل إلى بغداد . وقد قيل انه يرأس اليوم

دائرة كمرك المسافرين ، فاذا صح هذا – يقول عبد الباقي – ووجدناه هناك فأكبر الظن اننا جميعاً سنكون بمنجى من التفتيش .

ووصلنا إلى كمرك بغداد مع وصول بعض السيارات التي كانت تقل عدداً كبيراً من العائدين من سوريا والمسافرين في سيارات شركة كانت تسمى بـ (دبش وعكاش) وشركة أخرى نسيت اسمها ، فكان الكمرك مزدحماً بالناس ، والتفتيش من قبل مأموري الكمرك قائم على قدم وساق ، ودخل عبد الباقي إلى مكاتب الموظفين يسأل عن صديقه ، ومن حسن الحظ انه وجده وقد كان– كما قيل–رئيساً لهذه (الدائرة) وقص عليه الحكاية ، فقال له رئيس الدائرة ، سأوعز إلى المفتشين بتركهم أصحابك المشار اليهم ، ولكي يميز المفتشون بين الركاب وبين الجماعة فلتكن العلامة والاشارة من قبل جماعتك كلمة(هوا سنده) وعلى جماعتك أن يتفرقوا بين المسافرين بحقائبهم ولا يقفوا في محل واحد يقرب بين بعضهم والبعض الآخر ، وحين يمر عليه مأمور الكمرك يكفي أن يقول له : (هوا سنده) ، وقد علمنا بعد ذلك أن جمعاً من الأصدقاء كانوا قد ألّفوا زمرة لمجرد الهزل باسم (هواسنده) أي أهل الهوى ، أو شيء آخر لم أهتد اليه .

وعملنا برأي عبد الباقي وتفرقنا ، وصرنا كلما دنا منا المأمور بقصد التفتيش قلنا له (هواسنده) فيقول بالعامية (شيل) أي احمل حقيبتك واذهب ، وهكذا خرجنا من الكمرك ولم تفتح لنا حقيبة ، ولم يقل لنا أحد (على عينك حاجب) كما يقول الناس ، ومنذ ذلك الوقت ونحن نذكر (الهوا سنده) إذا جاءت المناسبة . ومنذ ذلك الوقت اشتدت الالفة بيني وبين السيد جعفر وتحكمت ، ولم أزل حتى الآن أذكر تلك الجلسة في وسط الصحراء ونحن نتناول غداءنا أو نستريح من مواصلة السير .

* * *

وجاء الوقت الذي رأت فيه الحكومة العراقية وجوب التفكير في

اختيار رجال أكفاء تطعم بهم الادارة كقائمقاميين ومتصرفين (محافظين) تختارهم من الحقوقيين اللامعين ، ومن حكام المحاكم ، فوقع الاختيار أول ما وقع على السيد جعفر حمندي ، ولما كان النجف أهم قضاء في العراق قاطبة لا من حيث كثافة السكان وحدها وانما من حيث مكانته العلميـــة والأدبية وكونه مقصداً لجميع الذين يريدون التخصص في الفقه الجعفري من جميع الأقطار الإسلامية ، عيّن السيد جعفر حمندي قائمقاماً للنجف ، وكانت النجف في أمس الحاجة إلى اصلاحات ، ومشاريع تضمن لها حياة اقتصادية رفيهة لاسيما وقد انقطعت عنها السلسلة التي تؤمها من قوافل البدو فتمتار منها حبوبها وتمرها وتشتري ألبستها وأقمشتها وحاجاتها الضرورية ، كما انقطع طريق الحج الذي كان ينطلق منه الحجيج براً إلى المدينة المنورة ثم إلى مكة المكرمة ، وإلى جانب هذا لم يكن بوسع (البلدية) أن تقوم حتى بنظافة البلد على الوجه الصحيح لقلة وارداتها ، لذلك يلقى الحاكم الاداري مشقة كبرى إذا ما أراد انجاز عمل مفيد بدون انفاق .

وكان لمدينة النجف سور له تاريخ واسع يرجع اليه الفضل في حفظ هذه المدينة من الغزو الذي كانت تتعرض له المدن القريبة من الصحراء والتي لقيت كربلاء من هذا الغزو الأمرّين لعدم وجود سور كهذا لها ، وفي هذا اليوم لم تعد لهذا السور من أهمية لانتفاء الغزو وتغيّر الأحوال وقد ضاقت المدينة بكثرة النفوس ، وأنا أعرف بيتاً من بيوت النجف كانت تسكنه احدى عشرة عائلة ، لا نفراً ، وكانت كل عائلة تشغل غرفة واحدة هي وأطفالها وأثاثها .. !! . وقد مرّ هذا الوصف في ضيق البيوت في النجف في محاضرة لي قامت بطبعها (جمعية الرابطة الأدبية) في النجف .

وجاء السيد جعفر حمندي إلى النجف قائمقاماً ، وأطال التفكير فيما يستطيع أن يقوم به ، ففكر أولاً في هدم هذا السور والتصرف بحجارته التي يمكن أن تبنى بها مدينة متوسطة المساحة دون أية مبالغة ، وذلك لسمك هذا

السور وارتفاعه ، وأهمية طابوقه ، ثم تخطيط ما وراء السور من الأرض وبيعها قطعاً رخيصة تفيد الناس في توسيع مساكنهم والخروج بهم من تلك الأزقة الضيقة التي لم ير الكثير من بيوتها نور الشمس، فتفيد من أثمانها البلدية، وفعلاً شرع بهدم السور من بعض جوانبه وباع قطعاً من الأرض بسعر المتر المربع الواحد بأقل من مائة فلس، وقد بيعت قطع منه بعشرين فلساً للمتر المربع الواحد! ! فكان أن تحرك الناس وكثر العمل وصار بامكان البلدية أن تفيد من هذا البيع فائدة ملحوظة في نظافة الأزقة، وتنويرها ، ثم حمل السيد جعفر وزارة المعارف (التربية اليوم) على بناء مدرستين ، كما حمل الصحة العامة على بناء المستشفى خارج المدينة ، وحث المثرين والتجار على شراء مساحات واسعة من هذه الأرض الواقعة وراء السور من جهة محلة البراق ، ومحلة الحويش ، لتقوم عليها الدور وتخرج منها الدكاكين ، وكانت خلف السور من داخل المدينة مساكن أشبه بالأقباء صمم على تهديمها ونقل هؤلاء السكان الفقراء إلى خارج السور ، وقد اقطعهم أرضاً بالمجان وحمل البلدية على اعانة بعضهم بالطابوق والجص مجاناً ، كذلك أوجد لبعضهم من بعض المثرين والتجار معونة ، وقد أتم القائمقامون الذين جاءوا بعده من أمثال عبد الرحمن جودت وزير الداخلية فيما بعد ، وناجي الجوهر ، ولطفي علي ، هذا المشروع فكانوا يوسعون الطرق حول السور في الداخل فيقتطعون من بعض البيوت بعض المساحة ويبيعون فضلات الطريق على بعض البيوت لتستقيم الشوارع ، وفي مثل هذا يقول السيد مير علي أبو طبيخ وكان قد اشترى فضلة من الطريق ضمها إلى بيته وعمل منها ديواناً مستقلاً لجلوس رواده وزائريه ، وقد مرّ حديثه في الجزء الأول من (هكذا عرفتهم) قـــائلاً :

شوارع وسّعوهـــا كي يكونا ... على رفه بها المستطرقونـــا
فكم صلموا بها أذناً وإنـــا ... بحمد الله زادونا قرونـــا

فأوجد السيد جعفر حركة اقتصادية دائبة في السوق للخشب والحديد والجص والطابوق ، وعملاً غير منقطع للبنائين والنجارين والحدادين وغيرهم ، والذي يطيّب من الخاطر هو حمله التجار والملاكين والمثرين على التبرع والأنفاق على هذه المشاريع حتى أصبحت اليوم هذه الرقعة التي أسسها السيد جعفر حمندي مدينة عامرة تبلغ مساحتها أربعة أو خمسة أضعاف مساحة المدينة القديمة ، وبذلك صار لصندوق البلدية من الامكان ما يدفع به للذين تقطع من أملاكهم ما تستعيض به أضعافاً مضاعفة من الذين تبيعهم الفضلات والمساحات من الأرض ، ولأول مرة تصبح بلدية النجف قادرة على الانفاق على المرافق العامة والتوجه لشؤون البلد ، واحسب أن التاريخ لن ينسى له تأسيس المدينة الجديدة كما لم ينس مسعى المحامي عبد الرسول الخالصي يوم كان متصرفاً لكربلاء والذي خطط لتهديم جميع المحلات والأبنية حول الصحن الشريف من كربلاء والنجف وقد توسعت الأسواق وشقت طرق واسعة داخل المدينة بفضل هذا التخطيط .

ومن أبرز مشاريع السيد جعفر حمندي كان فتح مدرسة البنات التي استعصى فتحها على وزارة المعارف بسبب معارضة بعض الفئات الرجعية . والحق أن الذي زاد من حدة هذه المعارضة هو أن الفئات التي كانت وراء الالحاح على وزارة المعارف بفتح هذه المدرسة لم تكن ذات رصيد جيد من حيث الأخلاق فتأخر تعليم المرأة في النجف تعليماً عصرياً زمناً أطول من تعليم البنات في المدن العراقية الأخرى وحتى المدن المتأخرة منها .

وحين جاء السيد جعفر حمندي قائمقاماً إلى النجف لجأ إلى حيلة انتهت بنجاحه في فتح أول مدرسة للبنات ، وذلك أنه قال بأن وزارة المعارف ستفتح مدرسة لتعليم بنات الموظفين في قضاء النجف وان مقرها سيكون في ناحية الكوفة ، وهكذا كان ، وفتحت المدرسة في الكوفة ثم فتحت بعد ذلك في النجف والغريب في الأمر أن بعض المعارضين لفكرة فتح مدرسة البنات كانوا من أوائل من سجلوا أسماء بناتهم في هذه المدرسة وأذكر منهم سادن الروضة

الحيدرية السيد عباس (الكليدار) .

• • •

وحين فتح حمندي سور النجف وقام بتهديمه كان من أول ما فعله هو فتح مدرستين في الصحراء المحيطة بالسور ثم أقام أول نادٍ في هذه البقعة ، وبذل من الجهد ما جعل هذا النادي عبارة عن روضة اكتظت بالأشجار والورود وصارت في زمن قصير متنزهاً لا عهد للنجف بمثله ، ولا يزال هذا النادي قائماً وسط مدينة كبيرة مكتظة بالسكان بعد أن كان أشبه ما يكون بواحة صغيرة في الصحراء .

وظل على السيد جعفر أن يفكر في ماء النجف ، ومسألة ماء النجف مسألة عويصة طالما فكر بها أهل الخير من الحكومات الإسلامية والأثرياء من ايران ، والهند ، ولماء النجف تاريخ أطول من تاريخ السور وأهم بكثير من التواريخ الأخرى ، وقد حفرت لجر الماء إلى النجف قنوات وجداول وآبار اتصلت بالفرات فلم تدم طويلاً ، وكثيراً ما مـر الزمن والناس يشربون من ماء أجاج ملح باستثناء الأثرياء الذين كانوا يجلبون الماء العذب من نهر الكوفة على بغال خاصة بهم ، وكل ذلك لأن النجف واقعة في الصحراء وعلى مرتفع عال يبلغ نحو ٣٥ متراً إلى ٥٠ متراً من سطح مدينة الكوفة . وقد أحسن الشاعر أحمد الصافي النجفي في قوله ، وقد أشرنا اليه عند عرضنا له حين قال في وصف النجف :

صدق الذي سماك في وادي طـوى
يـا دار بل وادي طـوى وعـراء
جلست على الأنهـار بلـدان الورى
فعلام أنت جلست في الصحراء ؟

لقد كانت مسألة الماء في النجف مسألة عويصة ظل يفكر فيها السيد

جعفر طويلاً ، فان هناك جدولاً يشق أرضاً رملية يمتد من الفرات بالغرب من أبي صخير إلى النجف في مكان يسمى بالبرجة أي (البركة) وهو معرض للاندثار يندثر إذا أمطرت السماء وانهالت الرمال على الجدول من حافتيه ، ويندثر إذا عصفت عاصفة تنهال بسببها الرمال ، ويقف الماء نهائياً عن المجرى حين يجيء الصيف وتهبط مناسيب الماء في نهر الفرات ، وكانت بلدية النجف تقوم بين آونة وأخرى فتسخر عدداً من العمال يحملون (المساحي) والفؤوس ويتتبعون مجرى هذا الجدول ، فيزيحون هذه الرمال من المجرى وتنتشر البشارة في المدينة بأن الماء سيصل غداً أو بعد غد ! !

وقد رأى السيد جعفر أن أحسن حل هو في توسيع هذا الجدول بنصب مضختين كبيرتين أحديها في منبع هذا الجدول تدفع الماء بقوة وأخرى في منتصف المجرى ، وراح يلح على الحكومة في تنفيذ هذه الفكرة ومدّ بلدية النجف ولو على سبيل الاستدانة بما يكفي لتوسيع الجدول ونصب المضختين ، وكان له الفضل الأكبر في وصول الماء ، وقد أطلق على هذا الجدول اسم الملك غازي فسمي بنهر الغازي وأقيمت في صدر هذا المجرى صخرة حفر عليها تاريخ قيام هذا المشروع ، وقد أرخه الشيخ محمد علي اليعقوبي بعبارة (حيّ الأمير الغازيا) من بيت نسيته ، كما أرخه الشيخ علي البازي ببيت يقول فيه :

فالأرض شاء الله بعد مواتهـــا أرخت (يحييها بنهر الغازي)

وهو يشير إلى سنة ١٣٥٠ هجرية ، وقد أخذوا بتاريخ اليعقوبي لمكانة اليعقوبي وشهرته ولم يأخذوا بتاريخ البازي على رغم رجحان تاريخه .

ولم تعد المياه تنقطع عن النجف وظلت النجف تستقي منه وتزرع البساتين والخضر عليه إلى أن قام مشروع الضخ الكبير ومد الأنابيب الذي سنمر عليه .

وإلى جانب هذا كان يرعى المدارس والمستشفى ويسند ما تتطلب الحاجة اليه بمراجعاته رأساً مع مركز اللواء كربلاء (المحافظة) أو وزارة الداخلية وسائر الوزارات حين يتاح له أن يزور بغداد ، بل كان ينفق من راتبه على قدر الاستطاعة فيخص المؤسسات براتب شهري وكان من تلك المؤسسات التي يساعدها جمعية الرابطة العلمية في النجف .

* * *

وكانت العلاقة بيني وبين السيد جعفر حمندي على أوثق وأمتن ما تكون عليه العلاقات ، فقد كنت من أوائل من استقبله في منتصف طريق كربلاء ، كما كنت من أكثر المتحمسين لدعوة الناس في توديعه حين انتقل من النجف إلى قلعة سكر تحدياً للحكومة التي ظلمته بدون استحقاق ، وكنت أرى من الواجب الادلاء له برأيي في بعض الأمور فيأخذ في كثير من الأوقات بهذا الرأي ، بل طالما هو الذي كان يدعوني لابداء رأيي بصفتي نجفياً قد تكون لي خبرة بما يريد هو أن يعرف ، وكانت تشدني إلى رئيس تحرير القضاء عبد المنعم داود صداقة ساعدت على توثيق هذه المحبة ، فقد كان عبد المنعم فضلاً عن كونه أديباً وكاتباً متمكناً . فقد كان ذا رأي حصيف كثيراً ما كان يشركه السيد جعفر في الكثير من القضايا ، وكان محل اعتماده ، كما كان محل اعتماد سعد صالح أيام كان متصرفاً .

وفي هذا الوقت كان قد صدر لعبد الرزاق الحصّان كتاب نال من عقائد الشيعة ومذهبهم ، وعلى الرغم من مصادرة الحكومة ببغداد هذا الكتاب فقد هاجت النجف وماجت بالمظاهرات والاحتجاجات الصاخبة ، ونشر المناشير ، ومن جملة هذه المناشير كان منشور صدر باسم الرابطة العلمية الأدبية لم يخل من تنديد وتهديد ، وتبعت الكوفة النجف في هذا الهياج وسرت حركة الاحتجاجات إلى مدن الفرات الأوسط ، وكان متصرف لواء كربلاء في ذلك الوقت السيد محمود أديب ، وكان هذا رجلاً دمث الأخلاق

نزيهاً عفيفاً لكنه كان ساذجاً ولم يكن يعرف النجف وطبيعتها فظن أنه كان بامكان السيد جعفر أن يخمد هذه الحركة ولم يخمدها ، وكانت شرطة النجف تعلم أن حركة كهذه لا يستطيع أحد أن يخمد أوارها وان السيد جعفر قد بذل غاية المجهود في تهدئة الأحوال ولم يفلح ، ولو كان قائمقام آخر غيره هنا في مثل هذه الظروف لكانت الحركة أعنف وأشد وأدهى ، وظهر أن هناك حديثاً قد جرى تلفونياً بين محمود أديب المتصرف والسيد جعفر حمندي قلّت فيه المجاملة ، وتوترت بينهما الصلات ..

وفي وقت متأخر نسبياً من الليل جئت إلى البيت ذات ليلة ، فقد كانت تربطني بالشيخ عبادي آل حسين رئيس قبيلة آل فتلة رابطة صداقة فاذا جاء النجف اعتدت أن أقضي عنده مع زواره الكثيرين السهرة إلى وقت متأخر في العادة ، وحين عدت إلى البيت قيل لي ان القائمقام قد بعث مرتين يطلبني لداره وهو يؤكد وجوب الذهاب اليه متى عدت إلى البيت ، ولم أكن قد تناولت العشاء بعد فتركت ذلك إلى حين العودة وقصدت دار القائمقام وهي احدى الدور الملتصقة بخان البهرة في وسط الميدان ، وحين طرقت الباب ألفيته في وسط الدار كما ألفيت عبد المنعم في الغرفة المطلة على باحة البيت ، فقال لي حمندي ان عبد المنعم ينتظرك منذ ساعات وقد أزعجناك نحن في طلبك في مثل هذا الوقت ، ثم راح هو يذرع الساحة ذهاباً واياباً ويديه مشتبكتين من وراء ظهره ، وقد ساد وجهه شيء ظاهر من الحيرة أو عدم الاستقرار وما يشبه ذلك ، واستقبلني عبد المنعم داود وبشيء من العجلة قال لي : لقد تأخرت ثم قال لي ان المتصرف رجل سطحي لم يعرف بعد السيد جعفر حمندي كموظف قانوني مستقيم يعرف أكثر منه ما له وما عليه وهو الآن في شك من أمر جعفر حمندي في هذه الوثبة ، ومن الجائز أن يوعز غداً بإغلاق دار الرابطة الأدبية وفحص سجلاتها فقد بلغنا أنه اتصل بوزارة الداخلية يطلب الموافقة على هذا الرأي .

قلت : وهب ان ذلك قد وقع فما هو شأني أنا ؟

قال : انهم حين يقومون بفحص أوراق الرابطة سيجدون أن السيد جعفر ممن كان يتبرع للرابطة في كل شهر بمبلغ على سبيل التشجيع والمشاركة .

قلت : وليكن ذلك فان مئات من الناس ومن مختلف المدن العراقية تتبرع لهم بأكثر مما يتبرع السيد جعفر فهل في ذلك ضير .

وكان من مفهوم كلام عبد المنعم أن (محمود أديب) ومن لف لفه يختلف منطقهم عن منطق الناس ، فلا يبعد حين يرون هذه المشاركة في التبرع أن يحسبوها مشاركة في النشرة التي أصدرتها جمعية الرابطة ومشاركة في غضبة الرابطة على الحكومة ، خصوصاً أنه الآن في شك من أمر السيد جعفر وقد رأيت أنت — يعنيني أنا — مجهود السيد جعفر بعينيك في اخماد هذه الوثبة الذي باء السيد جعفر في اخمادها بالفشل .

وصدق عبد المنعم داود ،فقد كان من الصعب اخضاع العوام هنا للطاعة الا أن يكون خضوعهم متّفقاً ورغبتهم ، أو يجيء هذا الخضوع عن طريق القوة ، فكل نجفي كان يرى في نفسه رأساً من الرؤوس كما قال الشيـــخ علي الشرقي :

بلدي رؤوس كلـــــــــه أرأيت مزرعة البصل ؟

ويقول عبد المنعم ان السيد جعفر يخجل أن يفاتحك بنفسه وهو يعدّك عماده في هذا البلد ، والمخلص لصداقته ،ويريد منك وفي هذه الليلة وقبل أن يصبح الصباح أن تواجه السيد عبد الوهاب الصافي وكان الصافي عميد (جمعية الرابطة) وهو اليوم من المحامين المرموقين في المحاكم الشرعية ، وتطلب منه أن يعدم أية اشارة في دفاتر الرابطة ، تشير إلى أية معونة سلفت من السيد جعفر لهذه الجمعية في هذه الليلة .

فقلت : ليس لدي من مانع ولكن لِمَ لم يكلم السيد جعفر السيد عبد الوهاب رأساً .

قال انه يحاذر من ثبوت التهمة ان هو طلب السيد عبد الوهاب وكلمه بهذا الخصوص .

قلت ان دار الرابطة هي دار تخص أحد أعمامي وقد استأجرتها الرابطة منه ، وهي ملاصقة لمدرستنا — مدرسة آل الخليلي — فماذا يمنع لو سار معي مفوض الشرطة إلى سطح المدرسة ومن هناك يسهل النزول على الدار واخراج الدفاتر وتقوم أنت بتفليتها واستخراج اسم السيد جعفر من دفتر التبرعات دون أن يعرف أحد بذلك حتى الرابطة نفسها .

قال : صحيح ليس أحد هنا يعرف مجهود هذا القائمقام في اخماد هذه الوثبة مثل شرطة النجف ولكن من يدريك أن لا تكون الشرطة حينذاك هي التي تشهد بأنها قامت بسرقة الدفاتر واعادتها إلى دار الرابطة تنفيذاً لأمر القائمقام فيكون ذلك شاهد اثبات في تهمة ليس لها أي أصل إلا في ذهن محمود أديب ومن لف لفه .

وجئت السيد عبد الوهاب في بيت الحاج صادق البغدادي وكان يقضي سهرته عنده بعد أن علمت ذلك من أهل بيته ، وكان على وشك الخروج فأخذته جانباً وشرحت له الأمر وطلبت منه تنفيذه ، ليس لشيء إلا لإحقاق الحق ، وخلافاً للمنتظر أبى الصافي كل الإباء أن يفعل شيئاً دون نصاب كامل من الأعضاء يعرض عليهم مثل هذا الأمر ، وقد علمت أنا داخل نفسي رفضه هذا بأن (الرابطة) إذا ما اتهمت فليتهم معها القائمقام وغير القائم مقام فذلك أدعى لتخلصها من المسؤولية ، وقد أكون أنا مخطئاً في ظني ولكني وحتى اليوم وأنا على هذا الرأي عزو سبب رفض الصافي اليه.

وفكرت وأطلت التفكير فمرّ في خاطري أن ألجأ إلى الشيخ صالح الجعفري وكنت يومذاك في غاية الصفاء معه ، وهو إلى جانب فهمه الأمور

وتقديره المنطق وأدبه العالي الرفيع فهو يقربني من الأمهات ، وأنا أعلم أن له غرفة في مدرسة جده مقابل جامع الطوسي يبيت فيها ، وعهدي به أنه يطيل السهر بالمطالعة ، وقد قصدت المدرسة وكلّ متني من كثرة الدق على الباب فلم يفتح الباب أحد بالرغم من أن جميع غرف المدرسة مشحونة بطلاب العلم ، وأخيراً فتح الباب وقصدت (الجعفري) في غرفته ؛ ولم يكلفني الأمر جهداً لاسيما وان لدى الجعفري مفتاحاً لدار الرابطة ، وقام معي إلى دار الرابطة وعملنا أنا واياه ما قدرنا عليه ،وعدت إلى بيت القائمقام وإذا به كما تركته يذرع ساحة الدار ذهاباً واياباً ، وكان أن تلقاني بشيء من السرور والشكر حين رأى أنه قد تم كل شيء ، وفي اليوم التالي علمنا أن وزارة الداخلية لم توافق على مقترحات (محمود أديب) لئلا يتسع الخرق .

وبعد مدة ليست بالبعيدة رأت وزارة الداخلية أن تحسم النزاع وعدم الالتئام بين (المتصرفية) و (القائمقامية) بأن يجري تحويل السيد جعفر حمندي إلى (قضاء) غير ذي أهمية بالنسبة للنجف وهو قضاء قلعة سكر (الرفاعي) اليوم ، وهذا كان أول تجاهل لقيمة السيد جعفر حمندي ، وقد ودع السيد جعفر من قبل الوجهاء من أهل النجف والكوفة ومشت خلفه عشرات السيارات تقل المئات من الناس كانت أشبه بالتظاهرة منها بالتوديع . وكنت أنا ضمن هذه الجماهير طبعاً .

• • •

ونقل بعد ذلك من قائمقامية قلعة سكر (الرفاعي) إلى قائمقامية (مندلي) وكانت تعد يومذاك من (الأقضية) التي إذا أرادت الحكومة أن تعلن غضبها على موظفيها أرسلت بهم إلى هذا القضاء الذي كان يشكو من قلة المياه ، ويشكو من العقارب الجرارة التي لم يخل منها شارع ولا بيت ولا جدار ولا بستان ، وانما سميت بالجرارة لأنها تجر ذيلها على الأرض جراً وهي عقرب صغيرة بالنسبة للعقارب الأخرى ولكن لسعتها مميتة في الحال ، وقد أوجد لها الدكتور عبد الحميد الطوخي يوم كان طبيباً بمندلي مصلاً مركباً من (اليود)

ومادة أخرى كان هذا المصل ذا فعالية كبرى في تخفيف حدة السموم ، وكان تعيين السيد جعفر قائمقاماً لهذا القضاء جحوداً آخر لمواهبه وحسن سيرته ، ولكنه تغلب على كل هذا بالصبر وعدم الاكتراث ، ولم ينس أن ينهض بالبلد الذي يعيّن فيه مهما كان شأن هذا البلد فعمل في (الرفاعي) وفي (مندلى) مثل ما عمل في النجف ، ولا أستبعد أن يكون السيد جعفر أول قائمقام شرع النهوض بالبلدان عن طريق تشجيع البلدية على التعمير ، ومفاوضة الوزارات بوجوب بذل المساعدة لرعاية المشروعات التي تختص بشؤونها في البلد الذي يعمل به، وكان الحاحه ومتابعته للرجاء والالتماس في لفت نظر المسؤولين كثيراً ما ينتهي بالنجاح . حتى أدركت الحكومة أنها قد أخطأت في حقه ، فأخذت بيده وعينته متصرفاً (محافظاً) للكوت ثم كان متصرفاً لكربلاء والناصرية والديوانية ، ومن الوظائف التي شغلها كانت مديرية العشائر العامة بوزارة الداخلية .

وهكذا تجلت مواهبه فاختير وزيراً للمعارف (التربية) في وزارة حكمت سليمان وذلك سنة ١٩٣٦ ، كما اختير وزيراً للشؤون الاجتماعية ووزيراً للدولة بالوكالة في وزارة جميل المدفعي سنة ١٩٤١ ، واشتغل بالمحاماة ، وانتخب نقيباً للمحامين في العراق .

وكانت الحكومة قد رأت أن تخص (بلديات) المدن بمعونات مالية من ميزانيتها العامة ، وبقروض بعيدة الأجل لمعالجة مشكلاتها واصلاح ما يمكن اصلاحه ، وكانت مدينة النجف قد حصلت على حصة أكبر نسبياً من حصص المدن الأخرى لانفاق المال على ايصال الماء بكمية كبيرة وبصفة تصلح للشرب ، وحين صممت مديرية البلديات على أن تفكر في ايجاد وسيلة تضمن ايصال الماء إلى النجف لم تجد تخطيطاً أفضل من تخطيط السيد جعفر حمندي يوم كان قائمقاماً للنجف ، وأيّد المهندسون استعمال المضخات في صدر النهر بالقرب من (أبي صخير) انما رأى المهندسون أن أن يقيموا هذه المضخات بالقرب من الكوفة على أن يجري الماء بواسطة

الأنابيب بعد أن يصفّى ويضخّ إلى خزانات تمد المدينة بالماء ، وهكذا عملت بهذه الطريقة وتركت جدول الأمير غازي مقتصراً على سقي البساتين .

وجاء السيد جعفر إلى كربلاء متصرفاً (محافظاً) وكان قد فارقها قائممقاماً لقضاء النجف ، وقد اتسعت سلطاته بالطبع ، وكبرت مهمته ، وكان عليه أن يضاعف مجهوده وسعيه في رعاية ثلاث مدن هي من أكبر مدن العراق وأهمها وهي مدينة كربلا، والنجف ، والكوفة . وشرع فعلاً يعمل في كربلاء ، وكان عليه أن يتم المشروع الجديد في ايصال الماء إلى النجف ، وكنت أنا في أقصى ما يتصور المتصورون ولاء له ، ونشراً لأخباره في جريدتي وكانت يومذاك (الهاتف) ، وكانت فكرة تمكين (البلدية) قد اختمرت في ذهنه بعد أن رأى نجاحها في اصلاح المدن التي عمل فيها ، لذلك كان من رأيه أن تشتري مصلحة اسالة الماء التابعة للبلدية عدداً كبيراً من المقاييس وتبيعها على البيوت بسعر أغلى لتفيد منها ميزانية البلدية فيتسع لها العمل في خدمة البلد أكثر ، وكانت بيوت مدينة الموصل حينذاك تأخذ الماء حسب حجم الأنابيب الذي كانت تستغني به عن المقاييس المألوفة ، لذلك حبّذت أنا الأخذ بهذا الرأي ، ولم أوافق على فكرة شراء المقاييس تجنّباً لما يكلف ذلك البيوت – وعلى الأخص بيوت الفقراء الذين يتألف معظم سكان النجف منهم – من النفقات .

وفي احدى زيارات السيد جعفر حمندي النجف جمع البعض في مركز بلدية النجف فكنت أنا معارضاً لفكرة المقاييس ، ولكن الذين حضروا هذا الاجتماع سكتوا ولم يؤيدوني كما لم يعارضوني .

ورحت أدافع عن فكرة استعاضة المقاييس بالأنابيب في جريدتي معارضة هادئة مراعياً فيها ولائي للسيد جعفر ، ومع ذلك فان مثل هذه المعارضة ما كانت لترضيه ، وكان المشرف حينذاك على مديرية اسالة الماء التابعة ميزانيتها للبلدية صديقاً قديماً لي انتهت صداقتنا – مع كل أسف – إلى ما يسمى

بسوء التفاهم أو أكثر من سوء التفاهم ، وكان هذا المدير قد تقرب إلى السيد جعفر حمندي كثيراً لاسيما وقد كان ذكياً وفطناً ويحسن وضع الأمور في مواضعها ، ولما كانت مخالفتي هذه لفرض المقاييس على البيوت تمس مصلحة مشروعه وتحرمه من الافادة من بيع المقاييس على الناس ، فقد أوغر صدر السيد جعفر حمندي حتى صار السيد جعفر حين يزور النجف للاشراف على بعض شؤونها لا يطلبني كما كان يفعل في كل مرة ولم أسع أنا اليه .

وظهرت ذات يوم مقالة في احدى مجلات النجف تتناولني بالقذف والشتيمة ، وكانت بدون توقيع ، حملني ذلك على أن أنسب كتابتها إلى مدير اسالة الماء (الصديق القديم) فكتبت عنه في جريدتي بصراحة كلمة عنونتها بـ (كلمة وردّ غطاها) لم تخل هي الأخرى من قذف هذا المدير وقد دعاه ذلك أن يقيم الدعوى عليّ في محكمة جزاء النجف الذي كان حاكمها حينذاك شفيق العاني .

ورأى شفيق العاني أن يختار من الخبراء ثلاثة أشخاص راعى في اختيارهم أن يكون أحدهم من أصدقائي وهو السيد عبود زلزلة وكان في ذلك الوقت مديراً للمدرسة الثانوية،وقد كان من أعز أصدقائي حتى اني لا أدع مناسبة تمر إلا وذكرته باعزاز وتجلة في جريدتي ، والثاني من أصدقاء مدير اسالة الماء وهو الشاعر صالح الجعفري الذي كانت العلاقة بيني وبينه قد فترت بحيث لم يكلم أحدنا الآخر في تلك الأيام ، والثالث الشيخ محمد علي اليعقوبي بصفته رجلاً محايداً ، وكان شفيق العاني قد عمل في النجف مدة كانت كافية للوقوف على أحوال النجف وسكانها وما كان بين أهل الأدب من محبة أو مكارهة .

وحضرت المحاكمة ، ودخلت القفص مرة أخرى . وأعلن في هذه المحكمة اعتذار الشاعر صالح الجعفري ورفضه قبول ابداء الرأي !! أما اليعقوبي فقد كان كلامه أشبه ما يكون بالكلام الذي قيل في عمرو

(ليت عينيه سواء) الذي ذهب مثلاً ، فكان يورّى في القول ، كمثل من يريد أن لا يتسع الخرق .

وجاء الصديق العزيز الكريم السيد عبود زلزلة ليفيض في شرح القذف والتهمة ويشير إلى كلمات أقسم أني نفسي لم ألتفت إلى أهميتها وكان يكفي بعضها ليدل على أني قاذف ، ومتجاوز عن الحد .. !!

وصدر الحكم من شفيق العاني بتجريمي ، ولا لوم عليه إلا في شيء واحد وهو منعي من نشر فحوى دفاعي المرتجل في جريدتي حتى لقد عرضت عليه أن أطلعه على مسودة هذا الدفاع قبل نشره فأبى ، وأغلب ظني أنه خشي ان حدث نشر هذا الدفاع الذي استغرق نصف ساعة انشقاقات وتوترات في البلد .

وميزت هذا القرار وكان أحمد مختار بابان هو الرئيس في محكمة الحلة الكبرى ، وكان بوسع السيد جعفر أن يحمل مدير اسالة الماء على سحب شكواه من المحكمة لو كان يريد ذلك كما أنه كان بوسعه أن يوصي رئيس محكمة الحلة بشكل من الأشكال التي ليس لها مساس بالتدخل في شؤون المحكمة وكان رئيس المحكمة يومذاك أحمد مختار بابان وكان صديقاً حميماً للسيد جعفر حمندي ولكن السيد جعفر لم يفعل ، وهذا ما أبعدني عنه أكثر .

• • •

كان السيد جعفر حمندي من القلائل الذين تعتز بهم الانسانية وتعتز بهم الحكومة كركن من الأركان التي قام عليها التفكير في الاصلاح والبناء ، ومكافحة الفساد ، وقد عمر بفضل جهوده ، وشيد وبنى المدارس والمستشفيات ، وأصلح أوضاع البلديات في المدن التي عمل فيها وهي تعاني الفقر وعدم المقدرة ، فكان ادارياً حازماً ، وكان مثلاً قل نظيره في مراعاة القانون والعدل سواء عن طريق المحكمة يوم كان حاكماً في المحاكم ، أو

عن طريق الادارة يوم كان قائمقاماً ومتصرفاً . والميزة الكبرى في هذا الرجل الذي أصبح أنموذجاً للقضاء والادارة ، والوزارة ، وأخيراً لنقابة المحامين ، أنه لم يتغير ولم يتبدل وهي صفة المعادن الثمينة كالذهب والبلاتين وما شابه ، وصفة الأحجار الكريمة كالماس والزبرجد وما كان على نسقهما.

وإذا تركنا هذا فاننا أمام شخص مفعم بالأحاسيس المرهفة ، والعواطف الكريمة ، لا يعرف البغض ولا الكراهية . وقد والله حين جاء قائمقاماً للنجف أحسن إلى الحاج عبد الرسول تويج وأخيه الحاج حمد تويج وقد أخجلهما احسانه بشهادة منهما .

ولم أر إلا القليل من يستطيع التغلب على البلاء وكبت الآلام المبرحة في نفسه ، فقد كنت أنا حاضراً ببغداد يوم غرق ابنه الشاب علاء في النهر وحملت جثته إلى المستشفى وقد حضرتها أنا ورهط من الأصدقاء ليلاً ، والغريب أنه لم يكن وحده الذي يغالب نفسه على الصبر فقد كانت زوجته التي حضرت جثة ابنها في الغرفة التي اجتمع أصدقاء حمندي وراء جدارها ، فوالله ما سمعنا لها صرخة جزع ، وصوت بكاء ، ونأمة حزن . ولا شك أنها كانت تبكي ، ولا شك أنها كانت تعاني ما تعاني كأم تفقد ولداً وهو في ريعان الشباب ، ولكنها كانت تعلم أن وراء هذا الجدار أناساً لا ينبغي أن يسمعوا صوتها وحتى أنينها .

لقد مات السيد جعفر وفي نفسي حسرة ، وآهة ، لأني كنت جافياً ، لشيء ربما وسّعه الخيال في ذهني فحرمني من اللقاء به ، والعودة إلى ذلك الصفاء ، وإلى المحبة التي دفعتني إلى الدفاع عنه قبل أن أرى صورته ، وقبل أن يكون لي الاتصال به ، ويحرمني غيابي عن بغداد يوم أربعينه فلا يكون لي سهم بين رائيه ، ويعلم الله أنني بكيته ، وليس بالغريب أن أظل أبكيه إذا ما خلوت بنفسي وأستعرض معه تلك الأيام الحبيبة التي مرت عليّ وأنا وراء مكتب جريدة الهاتف .

مكتبة الجواد زين العابدين
مؤسسة السيد هبة الدين الحسيني
الشهرستاني
الكاظمية - العراق

وكان ممّن رثاه شاعران كبيران ، لهما في غرس رياض الشعر ، ألوان من الأزهار والأوراد ، اختصّا بها وحدهما ، بهجة ، وجاذبية ، وعطراً ، أحدهما الخطيب المصقع ، والشاعر الكبير الشيخ محمد علي اليعقوبي ، وهذه رائعته أثبتها هنا ، لا لأحياء ذكرى السيد جعفر حمندي فحسب ، وانما لمكانتها الأدبية بين مراثي الشعراء المتقدمين والمتأخّرين :

بكوا فسقوا ضريحك بالدموع ... صبيحة ودّعوك أبا وديع
يسرّون الجوى ويذاع قسراً ... وليس سوى المدامع من مذيع
رماك بها الزمان سهام حتفٍ ... نوافذ في المغافر والدروع
وفلّل منك عضباً هاشمياً ... يفلّ شبا اليماني الصنيع
وحجّبَ من سما الزوراء بدراً ... يعيد الشهب كاسفة الطلوع

• • •

لك النجف استشاط جوىً وشجواً ... وأسبلها دموعاً من نجيع
نُعيتَ فبات من جزع كئيباً ... ولم يك قبل يومك بالجزوع
لأنّك فرع أصلٍ فيه زاكٍ ... فبورك بالأصول وبالفروع
وكم لك من أيادٍ فيه بيضٍ ... كشهب الأفق أو فلق الصديع
ستشكرها لك الأجيال فيه ... كما شكر الحيا زهرُ الربيع
حُملتَ على رقاب طوّقتها ... يمينك بالتطوّل والصنيع
أهالوها عليك ثرىً أهيلت ... على الأخلاق والحسب الرفيع

• • •

دعوتك فاستمع بثّي فإنّي ... عهدتك خير مدعوٍّ سميع
فكم نفثات وجد قد طوتها ... حشاشات ملئن من الصدوع

تضيق بها الصدور ولو أذيعت ... لضاق بها فضا الرحب الوسيع
ألستَ إذا رجال الشعب عُدَّت ... وحيد القوم مـــن بين الجميـــع
أعفّ نقيبة منهم وأندى ... يداً من صيّب القطر الهموع
تصول على الخطوب بسيف عزم ... كما صال الصباح على هزيـــع
أبيَّ النفس لم تخضع لضيمٍ ... وما أنأى الابيّ عن الخضوع
تذود عن الفضيلة ذود حرٍّ ... عن الأعراض والحرم المنيـــع
تولّعت النزاهة فيك حبّـــاً ... ومالك في سواها من ولـــوع

• • •

فداك الخائنون وكم تشكّت ... بلادك من خؤونٍ أو خـــدوع
تُخَال إذا أنبرت للحكم يوماً ... ذئابٌ كنّ تحكم في قطيـــــع
تبيت لها الأمـــاني باسمات ... ويبكي الشعب من ظمأ وجوع
ومحتلبين درّ المال منـــــه ... وما تركوا بقايـــا في الضروع
أبادوا كلّ ما وقعوا عليه ... كما وقع الجراد على الزروع
وصرعى من كؤوس الراح منهم ... يئنُّ الشعب كالثلو الصريـــع
تُحَلُّ بهم قضاياه ولكن ... بمال أو وسيط أو شفيـــــــع
كأنّ شرائع المعروف جفّت ... فليس لوارديه من شروع
وقد ظنّوا بأنّك كنتَ ممّن ... صبوا للوفر والعيش الخليع
فرحتَ ولم تدنّسك الدنايا ... وتلك سجيّة الحرّ القنـــوع

• • •

أبا زيد ومن عمروٌ وزيدٌ ... لدى الحدثان والهول المريـــع
إذا الأحلام طاشت كنتَ أرسى ... لدى الجُلّى من الجبل المنيـــع
أرقّ من النسيم الغضّ خلقاً ... وأذكى من شذا الروض المريع

فهل لغياب شخصك من إياب ... وهل لعهود وصلك من رجوع
وقالوا الأربعون أتت فشبّت ... لظى ذكراكَ ما بين الضلوع
تؤبّنك المعالي ناثحات ... عليك نياحة الوُرْق السجوع
عداها بعدك التقريع لوماً ... فليس لها كجعفر من قريع

* * *

فليتك عدت للأوطان حيّاً ... لتنظر حال هاتيك الربوع
وما تلقاه من نكد وضرٍّ ... تشيب لذكره فود الرضيع
تعلّل بالمواعد كاذبات ... كومض الآل والبرق اللموع
وبيض مُنىً عواقبهنّ سود ... كشهد ديف بالسم النقيع
إذن لاخترت أن تبقى دفيناً ... وليس سوى الشجى لك من ضجيع
وحاربت الهجوع أسىً ووجداً ... على وطن يبيت بلا هجوع
يرى الجارات قد نهضت خفافاً ... وما هو للنهوض بمستطيع
ينوء من اتّفاق معاهداتٍ ... مشى من عبئها مشي الظليع
كطيرٍ حصّت العقبان منه ... جناحيه فمال إلى الوقوع
لعلّ الله بعد اليأس عطفاً ... عليه يمنّ بالفرج السريع

* * *

وهذه الرائعة التي أختم بها رثاء الفقيد « حمندي » وأجعلها مسك الختام ، من حيث قيمتها الأدبية ، هي رائعة الشاعر الفحل الكبير الحاج عبد الحسين الأزري الذي كان قمة من قمم الشعر الموصوف بالبلاغة ، والانسجام، والرقة ، وعلماً له لونه ، وصبغته الوطنية الصادقة ، يرثي بها السيد جعفر حمندي ، ويخلفها قلادة في جيد الأدب الرفيع :

أهَزّةٌ أيْقَظَتْ مِن رَوْعِها البَلَدا
أمْ أتَه الأجَلُ المحتُومُ فيكَ حَدا
يا راحلاً شَيّعَتهُ النّفسُ خاشِعَةً
والعَينُ دامعَةً والقَلبُ مُرتَعِدا
في مَوكبٍ وجَلالُ المَوتِ يَقدمُهُ
مَشَى بنَعْشِكَ كالمحمُومِ مُتّئِدا
أضْنَتْكَ دُنياكَ حتّى عِفتها تَعباً
لكي تنام بأحْضانِ البِلى رَغَدا
دُنيا أقَمْتَ كأزْهارِ الرّبيع بها
أوْ كالشّبابِ عَليها مرّ مُحْتَفِدا
نَعاكَ للوَطنِ النّاعي فقلتُ لَهُ
نَعيتَ وَيْلَكَ إليهِ المُخلِصَ النّجِدا
وَاستَقبَلتْ نَعيَك الأمْصارُ في هَلَعٍ
مِن حيثُ عَدّتكَ في الجُلّى لها عَضُدا
يومٌ رَأيتُكَ أزْمَعْتَ الرّحيلَ بِهِ
نَفَضْتُ فيهِ مِن الخِلِّ الوَفيِّ يَدا

ناشَدْتُكَ اللهَ لَو للميتِ سامعةٌ
كيفَ اتخَذْتَ اليكَ اللحْدَ مُلْتَحَدا
وقَد عَهِدتُكَ حُرّاً لم يَسَعْكَ إذا
ما ضِيمَ واديكَ رِيفاً كانَ أَوْ بَلَدا
المَرءُ يُولَدُ والأحداثُ تَرقُبُهُ
كأنَّ منها عَلى أنْفاسِهِ رَصَدا
ولا تُفارِقُهُ إلاّ إذا انْطَفَأتْ
حَياتُهُ كَسِراجٍ زَيْتُهُ نَفَدا
إنَّ المنيّةَ كانَتْ عنكَ في سَعَةٍ
لَولا كعادَتِها تمشِي بغيرِ هُدَى
لم يَعْجزِ المَوتُ عمّنْ يَفتَديكَ بِهِ
لَو شاءَ ساقَ مِن الأنْذالِ ألفَ فِدا
لكنّها حِكَمٌ للهِ بالِغَةٌ
لا يُدرِكُ العَقلُ مِن أسْرارِهنَّ مَدَى

• • •

يا ابْنَ الأباةِ الألى طالَتْ حَياتُهمُ
فَخراً وإنْ قَصُرَتْ أيّامُها عَدَدا
أولئكَ الشُمُّ مِن أبْناءِ فاطِمةٍ
الوارِثينَ الإبا مِن سيّدِ الشُهَدا
لا تأسفَنَّ عَلى الدُّنيا فليسَ بها
لِلحَقِّ صَوتٌ ولا للصّالحاتِ صَدى
وكيفَ يَأسَفُ ذُو عَقلٍ عَلى زَمنٍ
فَلكٌ الجَموحَ وعنَها عاقبَ الوَتَدا

تَطيشُ أسهُمُها عَن كلّ ناعِقَـةٍ
مِن بُومِها وتُصيبُ الطّائر الغَرِدا
ما استَفحلَ الشرُّ في دُنياكَ لو نَجُبَتْ
فَلَيتَها لم تَلِـدْ وَغدَاً ولَنْ تَلِدا
وللنّجابةِ فَضلٌ في أمُومَتِهـا
عَلى الحَياةِ اذا ما أنْجبَتْ وَلَدا
أضفَى الحَياءُ عَليهِ مِن نَجابَتِـهِ
حتّى حَكى الخَفِـراتِ الكُنّس الخُرُدا
صُلْبُ العَقيدَةِ عنها لا يُغَيِّرهُ
مَن ذَمّ يَوماً ولا يغريه مَن حَمَدا
يقابِلُ الخَصمَ في طُولِ الأناةِ فَلا
يُبْدي لَه قَطُّ لا لِينَـاً ولا لَدَدا

• • •

أبَا الأماجِدِ هَلْ في الكَوْنِ مُعجِزَةٌ
تُعيدُ أيّامَكَ اللاّتي مَضَتْ جُدُدا
مرّتْ لَعَمري كثَغرِ الصُّبْح مُبْتَسِماً
وكالخَمائـلِ رَيّـا والصَّبا ثَأدا
في طِيبِ نَفسٍ كَماءِ المُزنِ صافيـةٍ
ما أضمَرَتْ لامْرىءٍ حِقداً ولا حَسَدا
تَسعَى إلى الخَيرِ سِرّاً كالسّحاب هَمَى
وما استَطارَ له بَرقٌ ولا رَعَـدا
تَبُشُّ في وَجهِ مَن يَلقاكَ مُتّخِـذاً
مِن البَشَاشَةِ – كي تُخفي الأسى – ضَمَدا

وتَستَعينُ على ما فيكَ من كَمَـــدِ
بالصَّمتِ كَيما تُعاني وَحدَكَ الكَمَدا
لم تَعتَذِرْ قَطُّ من راجٍ كأنَّ لَـــه
عَليكَ في كلِّ ما يَرجُوهُ مِنكَ يَدا
أبَتْ سَجاياكَ إلاَّ أن تُساعِـــدَهُ
لِذاكَ لم تَرَ من إنجـادِهِ حَـدَدا
ولا رَأى مِنكَ يَوماً مـــا يُكدِّرُه
في حينِ لا تَعدَمُ الحَسنـاءُ مُنتَقِـــدا

• • •

أجْهَدتَ نَفسكَ في وَقـــتٍ ظَنَنْتَ بـــه
أنْ سَوفَ تَقْوَى عَلى إصْلاحِ ما فَسَدا
حتّى رَجعتَ مِنِ الفَوْضَى ومِحنَتِهـــا
مُسْتَيقِناً أنَّ ذاكَ الجَهْد ضاع سُدى
فقلتُ من أسَفٍ دَعْها سَيُصْلِحُهـــا
كدَأبِهِ بَدلاً منكَ الزّمـــانُ غَدا
وارْفِقْ بنَفسِكَ قَدْرَ المُستَطاعِ فَقَد
تَسوءُ عُقْبَى الضّنَى لَو زِدْتَها أوَدا
خفِّفْ حَنانَيك عَنها ما تَنوءُ بـــه
حَذارِ من أنْ يُوارى قَبرُكَ الجَسَدا

• • •

قَد حدَّثَتْني اللّيالي وهي صامِتَةٌ
ما لَم يُحدِّث بهِ ذو مَنْطِقٍ أحَـــدا

أنَّ الزَّمانَ كبَحرٍ والَّذينَ بـــــه
بانوا لِعَينيكَ لَوْ جرَّبْتَهم زَبَـــدا
لم يُجْدِني بَعدَ خُبري عَنهمُ خَبَرٌ
إذْ لَم يَزِدْني بِهم عِلماً ولا رَشَدا
كم مَوقِفٍ لكَ قَد شاهَدْتَهُ وبـــه
رأيتَ نَفسَكَ بَــينَ القَومِ مُنْفَــرِدا
وكلُّ مَن جرَّبَ الدُّنيــا استَبانَ لــه
أن الحَياةَ بها مَمْلوءَةٌ عُقَـــــدا
وما احتِيالُكَ فيمَـــنْ لا يُحِسُّ بِهــا
لو كـــانَ لَم يَتنَفّسْ خِلتَه نَضَدا
يَأبَى زَمانُكَ إلاّ أنْ يُقاسِمَنَــــا
مِنه الشَقاءَ ومنّا الصَّبرَ والجَلَــــدا
ما أكثرَ الناسَ في الدُّنيــا الذين شَقُوا
ومَا أقلَّ الّذي مِن بَينِهم سَعِدا
قَد يَخفِضُ الهامَ قَومٌ رَغمَ كَثْرتِهم
ويَرفعُ الرأسَ رَهْطٌ دُونَهم عَدَدا
وهكذا الدَّهرُ يمضي في عقُوبَةِ مَـــن
عاشُوا طَرائقَ في أوْطــانِهمْ قِــدَدا
وهكَذا يَتوَلّى الأقويــاءُ بِهـــم
تَنْفيذَها دونَ أنْ يَرجو لَهمْ مَدَدا
وهكَذا فَرَضَتْ دُنياكَ قاعِدَةً
كُنْ في الحَيــاةِ قَوِيّاً تأمَنِ القَوَدا

وما الفَضيلَةُ في عُرْفِ الطُغاةِ سِوى
نَسْجِ العُراة لَهم مِن غَزْلِها بُرَدا
هذا جَزاءُ مَناكيدٍ بها اختَلَفُوا
ومَن يَرِدُ الأذى لا يَعرِفُ النكَدا

* * *

قُلْ لي بِربِكَ هَلْ في المَوتِ راحَتُنا
اذا الحَياةُ استَحالَتْ كلُّها صَفَدا
أم أنّه شَرٌّ صاب سَوفَ نَجرَعُهُ
فتَنزَهَقَ الروحُ من آلامِها صَعَدا
إنّي وإنْ طالَ عُمري راحِلٌ وكَمَا
وَرَدْتَ حَوضَ الرَّدىَ لا بدَّ أنْ أرِدا
وتلكَ ساعَةُ فَصْلٍ لا شَفيعَ بها
للِحيِّ ما دامَ حُكمُ المَوتِ مُطّرِدا
لم يَبقَ مِنكَ سِوى ذكراكَ في خلدي
والذكرَياتُ لِنَفْسي لا تَبلُ صَدَى
تُهْدِي إليكَ من الدُّنيا تَحيتَها
كالفَجرِ يَهْدي إلى الأزْهارِ قَطْرَ نَدى
إنّي أراكَ عَلى قَيدِ الحَياةِ بِها
والحَيُّ مَن لم يُفارِقْ ذِكرهُ الخَلَدا
لَسوفَ تَبقَى مِثالاً للحَياة كَما
تَبقَى الحَقيقَةُ مُثْلى سَرْمَداً أبَدا
لم يَخلُ بَعدَكَ نادٍ كُنتَ زينَتَه
وأيُّ فَضْلٍ لجيدٍ فارَقَ الجيَدا

لَئنْ تَوسّدتَ أحْجارَ الثّرى وسنَـــاً
فقَدْ تَركتَ لعَيْنَي بَعدَكَ السّهَــــدا
وإنْ تَعذّرَ في الدُّنيا الخُلُودُ فَهلْ
رَأيتَ حَيّاً بها مِن قَبْلِنا خَلَدا ؟

رحم الله السيد جعفر حمندي الذي عطّر أجواءنا بذكرى محامده ، وطهارة نفسه ، وطيب ذاته ، وما نعمنا به عن طريقه بهذا الشعر الرائع الرائق الذي فاض من يراعة شاعرين كبيرين ، فكان من عيون الشعر في كل ديوان من ديوانيهما المطبوعين : ديوان اليعقوبي ، وديوان الأزري ، رحمهما الله وطيّب ثراهما .

• • •

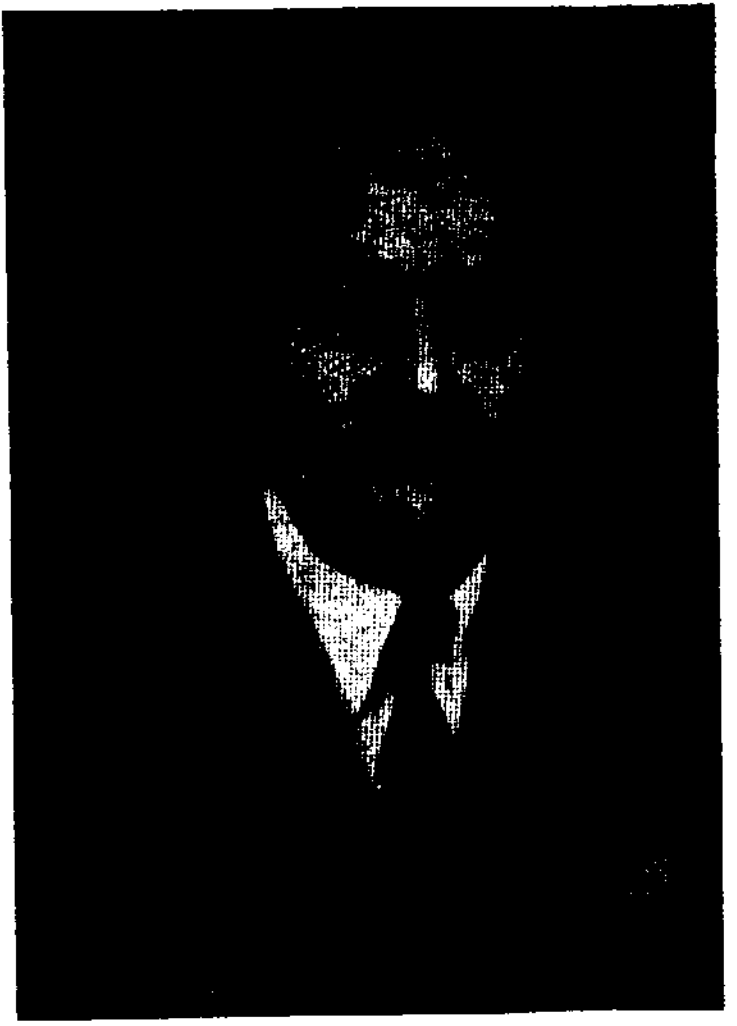

حليم دموس

كيف عرفت حليم دموس
١٨٨٨ - ١٩٥٧

• ١ •

وحليم دموس هذا شاعر من كبار شعراء العربية ولد بزحلة من لبنان وأخباره مثبتة في الجزء الثالث من مصادر الدراسة الأدبية للعالم الموسوعي يوسف أسعد داغر وقد عرفت (دموس) في العشرينات بالاسم وبما قرأت له من أشعار في عدد من المجلات ، وما وقفت عليه في ديوانـــه (المثاني والمثالث) الذي تطرق فيه إلى عدد من الموضوعات ولاسيما الغرام والعشق والحب على لسان مختلف الطبقات وأصحاب المهن ، وهو ينظم على لسان النجار إذا عشق ، والحداد أذا أحب والبحار إذا أغرم وهكذا مما بعد عهدي به فلا أذكر إلا انه عدّد البوح بالحب في صيغة تناسب صاحب كل حرفة من الحرف ، وأذكر أنه دخل حلبة السباق بين الشعراء التي أعدتها مجلة المقتطف لارتياد القطب الشمالي وكان فيها الفائز الأول على ما أظن أو أحد الفائزين بالجوائز على الأقل ، وكان شعره من السلاسة والرقة ، والوضوح ، بحيث لا يحجزه حاجز عن أن يدخل النفس ويبهجها ، ويخلب لبها .

أقول كنت أعرف حليم دموس منذ العشرينات ، ويبدو أنه هو الآخر كان يعرفني على البعد ، اذ لم يمر على اصداري جريدة الهاتف ، في النجف بعض وقت ، حتى صار يراسلني ، ويبعث لي بشعره ، وحتى لقد خص

(الهاتف) بنشر (الملحمة العربية) التي كان يتناول فيها جوانب خاصة من التاريخ كميلاد النبي محمد ﷺ ، وقضية فلسطين التي خصها بقصيدة (فلسطين الشهيدة) وغير ذلك مما كنت أنشره له تباعاً وفي محل بارز ومؤطر بالجداول ، كما نشرت له – على ما أذكر – قصيدة في (فوزي المعلوف) بمناسبة ازاحة الستار عن تمثاله بزحلة ، وقصيدة بمناسبة يوبيل جريدة (زحلة الفتاة) الفضي ، وغير ذلك من القصائد التي يصعب عليّ الاشارة اليها لعدم وجود (الهاتف) تحت يدي .

وكل هذا وأنا لم أر حليم دموس ولم أعرف عنه غير شاعريته وكونه زحلي المولد ومن شعراء زحلة وأنه يقيم ببيروت ، ويكتب لي منها ، حتى جاءت (الصدفة) ، والصدفة هذه كانت في وجودي بضهور الشوير الذي كنت قد اخترته مصيفاً لي منذ أن تعرفت بالمرحوم اسكندر حريق ، فكنت أقضي الصيف في هذا البلد حتى إذا توفي اسكندر حريق انتقلت إلى سوق الغرب ، ولم يزل (السوق) هذا مصيفي المفضل حتى اليوم .

وفي ضهور الشوير التقيت حليم دموس ، وأكثر ما سرني منه أنني وجدت فيه رجلاً وديعاً ، دمث الأخلاق ، هادىء الطبع ، قليل الحركة ، تدل سحنته على أن هناك أشياء تجول في ذهنه ، وهو يحتفظ بها لنفسه ، وصرنا نجتمع كل يوم في (المتني) أو في بيتي الذي كنت قد استأجرته من آل شاهين ، الواقع بين الضهور والشوير ، وقد نعمت بصحبته طوال الصيف ، ثم تكرر لقانا في الصيف الثاني والثالث ، ولم أكن أعلم أن الوداعة والطيبة يمكن أن تكون نقمة مثلما تكون نعمة الا يوم أن قص عليّ الصديق العلامة عجاج نويهض سبب طرد راعي كنيسة (عاليه) من السلك الكنسي ، اذ اضطر ذات يوم من أيام الآحاد أن يتغيب هذا الخوري في أمر مهم يخصه ، وقد حار في أمر من يتولى الصلاة بالناس وقراءة الموعظة ، وكان الوقت من الضيق بحيث يصعب أن ينتدب أحد الخوارنة من بلد آخر لهذه

المهمة ، فرأى في وداعة حليم دموس ، وطيبة قلبه ، وحبه للخير أن يقيمه وكيلاً عنه في وعظ الحاضرين ، وقبل دموس هذه الدعوة ، وكانت صلاته بالناس تلاوة قصيدة له تفيض بالدعوة إلى ذكر الله وتسبيحه، وعمل الخير في الدنيا كذخيرة للمرء في آخرته ، وما شابه هذا على ما ذكر لي عجاج نويهض .

وبلغ هذا الخبر البطرقة فعدّت ذلك انتهاكاً لحرمة الكنيسة ، وقد تم بمقتضاه طرد هذا الخوري راعي كنيسة (عاليه) من السلك الكنسي بسبب وداعة حليم دموس الذي لا شك أنه كان أنقى ضميراً وأطهر نفساً من بعض الخوارنة .

وإلى هذه الوداعة وسلامة الذات ، وصفاء النية التي كانت من أبرز صفات هذا الشاعر تقبله السريع للداهشية ، والداهشية هذه مذهب ، أو طريقة ، أو دين جديد لا أستطيع تحديده تماماً كان يبشر به في الأربعينات الدكتور داهش الذي كان موصوفاً باتيان الأعمال الغريبة من قبيل حملك على أن تعين احدى أوراق اللعب (الكوتشينة) مثلاً فيتولى هو تقليب الورق ويخرجها لك على ما يقال ، أو انه يعطيك رقم تلفونه ويطلب منك أن تحتفظ بالورقة التي سجل عليها الرقم على أن تطلبه في ساعة يعينها لك من النهار وحين تحين الساعة المعينة وتفتح الورقة ، فلا تجد شيئاً فيها ، وغير هذا مما يدخل في مفاهيم الشعوذة أو الكيمياء أو بما يسمى بخفة اليد التي يندهش لها البسطاء ويعزوها إلى الغيب الذي لا يمتلك خزائنه إلا الأنبياء الذين يبسط الله أيديهم ويمكنهم من معرفة المغيبات ويجعل كل شيء في الوجود رهن اشارتهم ، على ما يقولون ، وقد أقبل على الداهشية ، والايمان بمعجزاته عدد من البسطاء والسذج وآمنوا به نبياً مؤيداً من الله تعالى ، وإلا فكيف يتيسر له أن يأخذ عملة من النقود النحاسية مثلاً فيحولها إلى ليرة عثمانية ذهبية على ما يزعمون .

وروى لي السيد ميشيل نصّار وأنا ببيته في سوق الغرب أنه انفرد مرة بداهش – وقد نسيت أن أقول ان اسم داهش الأصلي هو سليم العشي – فأعطاه داهش مغلفاً وقال له: لا تفتح هذا المغلف إلا بعد حين، ثم أخرج لي – يقول ميشيل – مجموعة من أوراق اللعب، وقال لي اختر من بينها أية ورقة تشاء دون علمي بها. فاخترت (البنت) أي التي عليها صورة البنت، ثم قال لي افتح المغلف الآن واقرأ ما فيه ففتحته فاذا به يتضمن هذا المضمون :

« سيزورك ميشيل نصار وسيختار من بين أوراق اللعب ورقة البنت »

وقبل وقت قصير كتب الأستاذ العلامة الكبير عجاج نويهض مقالاً مسهباً في مجلة (الأديب البيروتية) مرّ فيه على ذكر الشاعر حليم دموس، والداهشية، والأستاذ عجاج من كبار مؤرخي العرب في العصر الأخير، وقد رافق الحركة العربية، ونهضتها السياسية في الحرب العظمى الأولى وعرف أشياء كثيراً ما أفدنا منها في التعرف بالعاملين في ميادين السياسة، والشعر، والأدب، وان لديه اليوم غير الذي يكتنزنه صدره، من أضابير الرسائل والوثائق، ذات القيمة التاريخية التي لم يفضها بعد، الشيء الكثير، وقد حداني مقال نويهض عن الداهشية إلى أن أتناول اعتناق حليم دموس للداهشية وأنا أستعرض كيفية تعرفي به وذلك من خلال اضبارة رسائله التي أحتفظ بها.

– ٢ –

لم يكن حليم دموس من المؤمنين بالداهشية فحسب وانما صار المبشر الأوحد في بث هذه الديانة، وحسب أنه قد وجد في جريدة (الهاتف) مرتعاً خصباً، ومجالاً واسعاً، إذا ما استطاع أن يستفيد من تقدير (الهاتف) وصاحبه له، وأشهد أني كنت من مقدريه ومن محبيه، ومن المعجبين بصفاء نفسه إلى جانب سلاسة شعره، وكنت أواصل ارسال الهاتف

اليه على سبيل الهدية ، ولست أدري كيف انقطع عنه (الهاتف) بحيث جعله يشكو من عدم تسلمه اياّها ، وقد تلقيت رسالة منه بتاريخ ٢٤ كانون الأول من سنة ١٩٤٧ – والهاتف لم يزل يصدر في النجف وقبل انتقاله إلى بغداد – علمت منها أن الهاتف قد انقطعت عنه منذ فترة ولم تعد تصل اليه كما يستبان من رسالته التي يقول فيها :

« ... أين أنت يا أخي الحبيب ؟ وأين (الهاتف) العزيز الذي حرمتني منه ؟ أنسيت أخاك ؟ أنسيت لبنان واجتماعنا في ضهور الشوير ؟ ألم تسمع بحوادث الرسالة الداهشية ؟ وقضية مؤسس (الداهشية) ومؤلفاته ؟ انني أسبق الآن وأوافيك بنسخة من كتاب (مذكرات دينار) للدكتور داهش ، وأرجو كتابة كلمة وافية عنه ، وبعد نقده وتحليله سأوافيك بسلسلة ذهبية عن (المكتبة الداهشية) وأطلب منك أن توافيني (بالهاتف) تباعاً لأنني مشتاق إلى مباحثه العديدة المفيدة ، وطالما واصلته بنفثاتي الشعرية والنثرية ، ولي فيه قصيدة في (فلسطين الشهيدة) في أواخر عام ١٩٣٧ أي منذ عشر سنوات ، حبذا لو أعدت نشرها ، – ويقول دموس – وعلى ذكر (الداهشية) فهل سمعتم عنها ؟ وهل ترغبون في موافاتكم بسلسلة من المقالات عن مؤسسها ، ورسالته ، وأهدافها ، وتعاليمها » ...؟

ولأول مرة أسمع باسم ديانة جديدة يبشر بها داهش . وكل ما كنت أعلم به أنه رجل يقوم بالتنويم المغناطيسي وبهذه الأعمال التي يستخدم فيها مواد كيميائية تارة ، وخفة يد منه تنطلي على المشاهدين تارة أخرى . مما يسمى بالشعوذة كما ذكرت ، إما أن يكون الرجل نبياً وله دين وأتباع فهذا ما لم أسبق به قبل رسالة حليم دموس ، لذلك رحت أرحب بما يبعث به اليّ حليم لسببين : الأول لتعلق ما يبعث به (للهاتف) بالشعر ، والثاني للسبق الصحافي عن داهش النبي الذي لم تكن صحف العراق قد نقلت أخباره بعد كما فعلت صحف بيروت ، وأحدثت أخباره وأخبار ديانته ضجة كبرى .

ولقد علمت فيما بعد ، ومما قصّه عليّ الصديق الياس حداد ، وغيره ممن كان يتصل بداهش عن كثب ، أن اجتماع مؤيديه ، والمؤمنين برسالته كصاحب دعوة ، أو المعجبين به والمندهشين بأعماله لا يتم في مجلس واحد ، وفي بيت معين لا تغيير فيه ، وانما كانت تعقد مجالسه وحفلاته ، وتبشيره بدعوته في بيوت مختلفة يقيم له فيها هؤلاء المؤمنون أو المعجبون الحفلات كان من بينهم الخواجة فريد البستاني ،وأدوارد البستاني ،وميلاد صليبي ، والدكتور شاهين صليبي ، وقد ماتت للدكتور شاهين ابنة كان شديد المحبة لها ، وقد نفد صبره لفراقها فلاذ بداهش فوعده بأن يسمعه صوتها من قبرها ، وحاول ذلك مرتين ثم اعتذر داهش بأن الوقت غير ملائم لتحضير الروح ، أما الذي شاع في الأوساط فهو أن الدكتور شاهين قد سمع في المرة الثانية هذا الصوت ! !

وممن كان يحضر مجالسه الدكتور خبصة ، والدكتور فريد (أبو سليمان) والأستاذ حبلة ، والسيدة حداد ، وميشيل نصّار ، وغير هؤلاء من الطبقة الخاصة ، والعجيب في الأمر أن بين المؤمنين به كصاحب رسالة ، كان عدد من خيرة الدكاترة والمثقفين ! !

أما الذي كان يلازمه ملازمة الظل ، ويؤمن به رسولاً ، ويبشر بدعوته فهو المرحوم حليم دموس .

وبعث لي حليم دموس بطائفة من أخبار داهش وتنبؤاته ودعوته كما بعث لي ببعض القصائد من شعره الذي يتضمن شيئاً من هذه التعليمات ، وأذكر أني قمت بغربلة هذه المجاميع ناشراً منها ما يصلح للنشر ، وتاركاً ما كان يتعلق بالتبشير والدعوة إلى هذه الديانة اللهم الا ذكر الأخبار التي تتضمن قيام دين جديد باسم (الداهشية) ومغزاه والافصاح عنه على سبيل تنوير الأذهان والسبق الصحافي ، والاثارة .

وحين بدأت أثبت بعض ما كان يبعث به ، وأحذف البعض الآخر

حتى لتبدو الكلمة مبتورة كان يكتب لي معاتباً ، ويسألني لماذا أنا أفعل كل هذا في نشر ما يبعث به اليّ ؟ انه كان يعتب عليّ عتاب الصديق الذي يرجو من صديقه معونة لا تكلف شيئاً من جهد وقوة ، أو مال ، وكنت ألفّق له معاذير منها أن مدينة محافظة كالنجف لا يمكن أن تهضم هذه الأفكار التي يؤمن بها الصديق الكريم ، أما الواقع فهو اني كنت أثبى أن أكون وسيلة تبشير لدعوة لا أؤمن بها أنا ، ولا يؤمن بها المفكرون ، لأني أعتقد أن (داهشاً) لا يزيد بشيء على (سلمون) فكل ما يفعله داهش مما يدهش العيون فان (سلمون) يفعله ويفعل أكثر من ذلك وقد رأيت سلمون أنا بنفسي ، ومع ذلك فلم يدع (سلمون) النبوة ، ولم يبشر بدين جديد .

ويبدو أن حليم دموس قد آمن بمعاذيري ، وصدق أن ما يراه الحاضر لا يراه الغائب ، اذ تلقيت منه رسالة بتاريخ شباط من سنة ١٩٤٨ يقول فيهـــا :

« .... ويمكنك من الآن أن تختار ما تحب مما يصلك ، وتختصر ، وتعدل بالصورة التي تتناسب ووضع (الهاتف) المحافظ الذي يعيش في محيط ديني (كالنجف) ينظر إلى كل جديـــد نظرة استغراب ودهشة كمـــا ذكرت في رسائلك العزيزة ، وثق يا أخي جعفر أن ما سيصل اليك من المعلومات الداهشية الطريفة سيكون له وقع عميق في قلوب قراء (الهاتف) ! ! فهو شيء جديد مفيد ، فريد ! ! »

وظل يكتب لي حليم دموس ، وأنا أنشر في الهاتف ما يصلح أن يكون مادة للاطلاع ، أو لوناً من ألوان الأدب الذي يتجلى في شعره والذي كان ينشره له الهاتف منذ الثلاثينات وقد عزّ عليّ الاستشهاد به اليوم لبيعي جميع سني الهاتف على احدى الجامعات الأميركية .

أما داهش ، أو الدكتور داهش ، فقد كان قد التف حوله عدد من أمثال حليم دموس كانت منهم (مدام حداد) وهي شقيقة زوجة الشيخ بشارة الخوري رئيس الجمهورية اللبنانية ، ولسبب كثر اللغط بـه وتردد فيه اسم داهش والداهشية انتحرت هذه السيدة وفارقت الحياة ، فنيط أمر التحقيق في هذه الحادثة بعبد العزيز شهاب ، وكان هناك ما يقتضي التحقيق مع الدكتور داهش ، فجلب إلى دائرة التحقيق ،

والمروي عن عبد العزيز شهاب أنه لم يكن يعرف داهشاً إلا بالاسم وكانت نفسه مفعمة بالاعجاب به بما كان يسمع عنه كدكتور في علوم ما وراء الطبيعة كما يقال وصاحب دين جديد ، ولكنه ما كاد يبدأ التحقيق معه في شأن (مدام حداد) حتى غابت تلك الصورة المنطبعة في ذهنه عنه على ما يروي الرواة فقد رأى منه تخاذلاً وضعفاً تجاوز الحدود المألوفة عند الذين يصيبهم الخوف والاضطراب لأي حدث مهما ضعف وقلّ شأنه ، ويحكي لي بعض هؤلاء الرواة ومنهم الدكتور بيار غريب الطبيب اللبناني المعروف ، عن لسان(عبد العزيز شهاب)المحقق قوله بان المحقق حين أخبر داهشاً بأنه سيطلق سراحه ، ولن يأمر باحالته (للتوقيف) والحبس الموقت كاد ينكب داهش على يديه ليقبلهما أو هو قد فعل ذلك على ما روى الآخرون، وكيفما كان الأمر فهي روايات لم يتسن لي تحقيقها لأنني لم أعرف عبد العزيز شهاب ولم تجمعني به الظروف ،

وبعد هذا الحادث ـ حادث التحقيق ـ غاب داهش دون أن يعلم به أحد من أصحابه ، وانتشرت حينذاك اشاعات كثيرة عن هذا الغياب منها اتهام الحلفاء بخطفه وقتله !! ومنها تسخيره قوة طارت به إلى عالم مجهول لا يصل اليه انسان ومنها قصص غريبة أخرى ، أما الشائعة التي رسخت في الأذهان وكان مبعثها القيام بالتحقيق في قضية انتحار (مدام حداد) عند الذين علموا باجراء هذا التحقيق ، هي أنه قد زج في سجن الحلفاء ، ومات

ودفن خفية عن الناس ، وقد تلقى أتباعه كل تلك الشائعات بشيء كثير من الحزن ، والأسى ، والأسف ، ولربما كان حزن حليم دموس عليه أضعاف حزن الآخرين من أتباعه ، لأنه كان المؤمن كل الايمان بدعوة داهش ، وكان الداعية الكبرى ، والمبشر الأعظم للرسالة الداهشية ، وهو نفسه — أي دموس — الذي أسّس (المكتبة الداهشية) وحثّ الأنصار على أن يعينوا وقتاً خاصاً لمدارسة رسالة (الدكتور داهش) .

وأقام أتباع داهش وفي طليعتهم حليم دموس حفل تأبين لروح المرحوم داهش الذي كان قد خرج من لبنان واختفى في بلد من البلدان البعيدة قال بعضهم انه قد رءآه بأذربيجان وظن أتباعه المقربون أنه سجن ومات في السجن ، وهو اليوم وحتى كتابة هذه الكلمة حي يرزق ويسكن في شقة من احدى عمارات بيروت ، وقد يزوره البعض لا على أساس النبوة وانما الصداقة أو الاستشارة الروحية ، وقد تدعوه المناسبة إلى أن يقوم ببعض الحركات المدهشة لبعض من يزوره ، وأخبرني أحمد ابراهيم القنصل العام اللبناني بساحل العاج أنه أجرى له شيئاً من هذا عن طريق ورق اللعب (الكوتشينة) وكتابة الاسم أو الأرقام على الورق الذي نسيت الآن كيفيته وقال لي أحمد ابراهيم أنه قد أثار دهشته فيما فعل .

وتلقيت من حليم دموس رسالة مطولة بتاريخ ٦ مارس ١٩٤٨ وقد عنونها حليم (برجاء مستعجل) هذا جزء منها :

« ... لقد أعجب الأخوان الداهشيون بكلمتكم عن (مذكرات دينار) واحتفظوا بالعدد ، وطلبوا منه عدة أعداد ، وكذلك هم وأنا نطلب منك موافاتنا بقطعة نثرية في رثاء المرحوم الدكتور داهش لتقال مع أقوال الأدباء والشعراء ، ورجال الصحافة ، وذلك في الحفلة التذكارية التي سنقيمها قريباً في منزل (الرسالة الداهشية) وأنا أتولى القاءها عنك !! كما سألقي بعض قصائد ، وقطع وردتنا من مصر ، ومن بعض الأقطار

العربية ، وإذا شئتم أن تكون كلمتكم نثراً وشعراً (معاً) كما فعل البعض ، فلا بأس ، وأنتظر سرعة الاجابة على ما كتبته اليكم في هذه العجالة » ...

وليس بالمستغرب أن لا أجيب على رسالته ، ولم ألبّ طلبه هذا في المشاركة برثاء الدكتور داهش ، ما دمت لا أعرفه ، ولا أعترف برسالته ، ومن طبعي أنني لا أستسيغ أن أفعل شيئاً لا أؤمن به حتى وإن كان من أجل صديق عزيز كحليم دموس الا ما ندر وفي ظروف محرجة لها مبررها في نفسي ، ولكن حليم دموس لم يعاتبني على تخلفي عن تلبية طلبه ، ولم يؤاخذني على اهمال نشر ما كان يبعث به إلي ما دمت قد تذرعت له بمحيط (النجف) غير الملائم وتخلصت منه .

وفي نفس التاريخ المتقدم أي في ٦ مارس من سنة ١٩٤٨ تلقيت رسالة أخرى جاءت كملحق بالرسالة السابقة يقول فيها :

« ...فمن غريب الاتفاق أنه بعد وصول عدد (الهاتف) الأخير وفيه رأيك الناضج في (مذكرات دينار) وصلتنا كلمة ممتعة قيمة من المحامي الكبير الدكتور بولس ، وهو مقلّ في الكتابة ولكنه مجيد وعميق ، وقد رأيت أن أنقل اليك رأيه وأرسله في الحال لتنشره ، في أول عدد، وأرجو موافاتي — حال صدور المقال — بعدة أعداد لأوافيه بنسخة ، وهو صديق حميم ، ومؤمن بالرسالة الداهشية ، ومعجب بها كثيراً لأنها (رسالة) انسانية روحية لا أنانية مادية » ...

ولم يكن في مقال الدكتور ميشال بولس ما يستدعي اهماله أو حذف شيء منه كما كنت أفعل فيما كان يرسل به اليّ حليم دموس بحجة النجف المحافظة ، لذلك بادرت بنشره في الهاتف ، وأغمضت عيني عما انطوت عليه رسالته التي سبقت هذه الرسالة فجاءني من دموس بتاريخ ١٤ نيسان ما يلي :

« ... فاني أطالع (الهاتف) بلذة ، وأساير نجمك اللامع ، والاحتفالات التي أقيمت لك من قادري أدبك العالي – وهو يشير إلى الاحتفال الذي جرى للهاتف بمناسبة مرور عشر سنوات على صدوره بصورة متواصلة ، ودون انقطاع ولم يكن مثل هذا في ذلك اليوم ممكناً لصحيفة أدبية تصدر في العراق – ولقد وصل – يقول دموس – العدد الأخير ، وفيه مقالة الدكتور ميشال بولس ، وعسى أن يكون قد قدمت له عدداً ، وعلى كل حال فاني أطلب منك نسخة ثانية من هذا العدد لحفظه في (المكتبة الداهشية) ثم إنك لم تجبني على رسالتي اليك ولا سيما فيما يتعلق بمذكرات دينار الشعرية ، وأنت تعلم أن هناك (جحيم دانتي) و (رسالة الغفران) للمعري ، أما أسلوب الدكتور داهش فقد فاق الاثنين مادة ، ووصفاً ،وخيالاً ، وأسلوباً (كذا) فأرجو مطالعته من الدفة إلى الدفة ، ومراجعة مقدمتي بتدقيق ، ثم كتابة صفحة كاملة من (الهاتف) بقلمك الناضج الفياض ، ومتى صدرت كلمتك فابعث الي بعدة نسخ من ذلك العدد لأطلع عليها الأخوان الداهشيين في الوطن والمهجر (ثم يضيف قائلاً) .

« ولقد أعجبني ما ترجمتموه من (جحيم الصينيين) في العدد ١٨٦ وفي الصفحة ١٥ ، وفي هذا الباب يمكنكم نقل عدة فقرات من مقدمة الجحيم ، وعدة دركات من نفس الجحيم ليرى القراء أسلوب هذا الكتاب الداهشي الذي لم ينسج على منواله أحد (كذا) وكله وصف حقيقي للدركات وما فيها من عذابات » .

ووصل الي كتاب (الجحيم) ، وكان مصوراً بأشكال تخيلها داهش عن الأفاعي التي تنهش جسد الانسان والعفاريت والتنانين المخوفة التي تتلقفه وهو في وسط هذا الجحيم، والنيران التي تكتنفه من جميع جهاته ، ومع هذا الكتاب تلقيت طائفة من تلك المقالات والأخبار والحوادث التي تبشر بالدعوة الداهشية التي آمن بها حليم دموس ايماناً عجيباً من أعماق نفسه

وراح يطمع في استغلال صداقتي ، ومحبتي ، وتقديري لشاعريته ليكون بوسعه تسخير (الهاتف) على قدر الامكان لنشر ما لم يستطع نشره في الصحف اللبنانية ، فكان لا بد أن أهمل نشر هذا ، وان أهمل الردّ على رسائله، واقوم بالاعتذار اليه، لاسيما وقد كنت أتهيأ للانتقال بجريدتي ومطبعتي إلى بغداد . وتلقيت منه وأنا ببغداد في تموز من سنة ١٩٤٨ رسالة تهنئة على انتقالي الى بغداد ثم يضمنها غرضه الذي أصبح أقرب إلى المرض منه إلى العقيدة اذ يقول :

« ...أهنئك قبل كل شيء ، وقد أصبحت الهاتف في بغداد عاصمة الرشيد ، وأرجو أن تكون هنا أنعم بالاً ، وأحسن حالاً ، وهذا ما أتمناه لك من صميم قلبي أيها الزميل الجليل .

كنت قد كتبت اليك وأنت في النجف ، وحتى الآن لم يردني جواب على ما سألتك عنه ، فهل سكوتك عن الجواب هو الجواب ؟

وبالأمس كنت في زيارة أحد الأطباء الداهشيين ، فعثرت عنده على مقالة بليغة عنوانها (الانسان) كان قد بعث بها اليه الدكتور داهش الذي ينظر بمقالته هذه للانسان من الناحية السوداء ولما كانت المقالة قطعة أدبية فقد أحببت موافاتكم بها لتكون (للهاتف) فقط فأرجو نشرها بعناية في محل لائق » ...

* * *

— ٣ —

أنا الآن في بغداد ، وقد سقطت الحجج والمعاذير بالنجف المحافظة في اسقاط أكثر ما كان يبعث به حليم دموس للنشر في سلة المهملات فليت شعري بماذا يمكن التذرع به من الحجج والأعذار في اهمال نشر ما

يبعث به اليّ من المواد التي لا تتضمن إلا الدعاوة للداهشية ، والتي ليس فيها أي خير للأدب والفن والحقيقة ، وأنا أسعى لأن أجعل هذا الصديق راضياً مني ، وغير مشيح بوجهه عني ؟

وكانت (الرقابة) على الصحف يومذاك لم تزل قائمة كاحدى مخلفات الحرب الثانية ، لذلك وجدت في (الرقابة) خير وسيلة للاعتذار ، ورأيت أن أعزو لهذه (الرقابة) التي لم أجد فيها أي خير غير هذا ، كل ما أضرب به عرض الحائط من مقالات حليم دموس عن داهش إذا لم يكن فيها فائدة للقـــراء .

وكم أنا آسف أن أضطر إلى هذا الخداع والكذب مراعاة لخاطر حليم دموس الذي كنت أحبه ، وقد كان مجال الاعتذار (بالرقيب) واسعاً اذ كثيراً ما كانت تمر عليه أشياء ليس لها علاقة بالسياسة أو الدين والتقاليد فيمنع نشرها ، وحين يناقشه الصحافيون يكون عذره بأنه يعرف من أمر السلطة ما لم يعرفوا هم ، وتذكرني حال هذا المراقب بحال التلميذ الذي سأله المعلم : ترى كم يدفع أبوك للدائن في كل قسط إذا استدان مائة دينار على أن يدفعها في أربعة أقساط ؟ فيجيب التلميذ : انه لا يدفع شيئاً ، فيصرخ المعلم في وجهه ويتهمه بالغباء ... ولكن التلميذ يجيبه بأنه يعرف أباه جيداً بأنه لا يدفع شيئاً ، أما المعلم فلا يعرف عنه شيئاً ، هكذا كان الرقيب في ذلك الوقت— بل وفي كل وقت ينظر إلى الأمور بهذا المنظار — ولربما أوردت أنا هذه الأفكوهة في غير مكان من (هكذا عرفتهم) ونسيت .

وأنا اليوم أعتذر إلى حليم دموس وهو في قبره عما كنت ألفقه له من الأكاذيب وأثقل بها كاهل هذا الرقيب المسكين ، وقد جاءتني مرة رسالة من حليم يقول فيها :

« لقد حيرني سكوتك عن الكتابة كما تحير قراء (الهاتف) وهم لا يسمعون جواباً مقنعاً لهذا السكوت ، وعهدي ببراعتك دائم الصرير ،

وبصوتك دائم الزئير والهـــدير ، فأجبني وطمئني عزيزي فأنت حبيب الجميـــع .

وكنت قد بعثت اليك ببعض المواد منذ عهد بعيد إلى النجف فلم تصدر في (الهاتف) فهل من سبب لذلك ؟

وها أنا باعث اليك بقطع نثرية وشعرية لم تنشر وهي من آثار الدكتور داهش التي لا تزال خطّية ، فاذا أعجبك هذا الأسلوب الطريف وافيتك بسلسلة منه » ...

ولم يمر قليل وقت حتى تناولت رسالة أخرى بتاريخ ١٤ تشرين الثاني من سنة ١٩٤٨ وبرفقتها مقالة مصورة بخط داهش ، وفي هذه الرسالة يقول :

« ... ولما كانت خدمة (الهاتف) واجبة على كل أخ يحب جعفر وآثار جعفر ، فها أنا موافيكم بقطعة نفيسة من آثار الدكتور داهش ، وقد عثرت عليها اتفاقاً في (منزل الرسالة الداهشية) مكتوبة بخطه ، وقد أحببت أن يكون (الهاتف) أسبق الصحف إلى نشرها ... »!

وهنا أعدت عليه الكرة فيما يخص الرقابة ، وقلت له ان (الرقابة) تشدد علينا ، وتتدخل فيما يعنيها ، وما لا يعنيها ، وتحرمنا وتحرم قراءنا من الافادة ، ولقد صدق من قال (يرى الحاضر ما لا يراه الغائب) ورحت أبالغ فيما يفعل قلم الرقابة في المطبوعات لكي أبرر اهمالي لما يبعث به اليّ ، فجاءتني الرسالة المؤرخة بتاريخ ١٩٤٨/١١/٣٠ التي يقول فيها :

« ... عجبت من قولك ان بعض القطع الداهشية لم يوافق عليها (قلم الرقابة) ولكنك لم تذكر أي قطع تعني ؟ ولذلك أرجو اعادتها اليّ — ولم يدر أني رميت بها في سلة المهملات ، ولربما صارت بعد ذلك إلى برميل الكناسة — ويقول دموس — لأنني أرسلت اليك معلومات خاصة لم أدونها

عندي ، ويهمني أن تبعث بها اليّ مع أول بريد ، ثم ما علاقة المراقبة بقضية اصلاحية ، نشرت عنها الصحف في الشرق ، والغرب ، دون أن تمتد اليها يد مراقبة حتى ان من أطلعتهم على بعض ما جاء في رسالتك قالوا : نحن نسمع من صاحب (الهاتف) أنه أجرأ أديب في العراق – وهو يشير إلى المعارك التي خضتها مع العوام المتلبسين بأثواب الروحانيين في النجف ، والتي عرضتني للقتل غير مرة – فكيف لم يوقف المراقبة عند حدها ؟ أو ينشر القطع بأسلوب توافق عليه المراقبة ؟

أما القطع التي بعثتها اليك مؤخراً فأعتقد أن يد المراقبة لن تمتد اليها ، وهكذا الواصل اليك مع هذه السطور ، وهي قطعة نثرية لمؤسس الداهشية مع نظمها شعراً – والنظم هو من نظم دموس نفسه – فيحسن طبع النثر ومقابله الشعر بعد مقدمة بقلمك الرشيق إذا كان من لزوم ؟ وهذا ما أتركه لذوقك السليم ،وكلما نشرت شيئاً ما فأرجو أن تتكرم بأكثر من عدد لي » ...

ويغلب على ظني أنني اعتذرت له من عدم اعادتي ما لم يوافق على نشره الرقيب المسكين المتهم ، وانني قلت له : ان الرقيب لم يكتف بعدم موافقته على نشر تلك المواد وانما أمر بمصادرتها مني ، في حين كانت السلة سلة المهملات هي التي التهمت ما بعث به اليّ ، وحين وجدت في قصيدته التي نقل بها أفكار داهش النثرية فكرة أدبية اجتماعية نشرت القصيدة وحدها ، دون ذكر نقلها من منثورة لداهش ، والذي بقي في ذهني أن قصيدته تلك لم تخل من روعة وحلاوة ، فكتب لي في ١٩٤٨/١٢/٢٤ رسالة يقول فيهـــا :

« ... وصلني العدد الأخير من (الهاتف) بتاريخ ١٧ منه وفيه قصيدتي (أتسمعين أتنصتين) وهي من آثار داهش المنظومة شعراً ، وكنت أتمنى لو تكرمتم بأكثر من نسخة كلما نشرتم لي وللمرحوم داهش شيئاً ، لأننا نرغب في تجليد أعداد الهاتف سنة بعد سنة ، وحفظها في (المكتبة الداهشية)

التي ستكون مجموعة فريدة في بابها من حيث الصحف العربية من سائر الأقطار ، وها أنا باعث اليكم بعض المواد لأجل نشرها تباعـاً في الهاتف ... »

ويبدو أن حليم دموس قد آمن بأن (الرقيب) ليس من حقه منع النشر للمواد التي لا يوافق عليها فحسب ، وانما من حقه أن يصادر من تلك المواد ما يشاء منها ، لذلك صار لا يسألني اعادة ما لم ينشر مما يبعث به اليّ ، وكان الذي يغري حليم دموس بمتابعة ارسال ما يخص الدكتور داهش وما يقوم هو بنظمه بوحي الفن أو العقيدة هو أني كنت أنشر ما كان يسكبه بشعره من أفكار لا علاقة لها بمذهب داهش إلا من الوجهة الأدبية ، لذلك كان يواصل ارسال هذه المواد ، وأنا أواصل القاءها في سلة المهملات .

ولم يمرّ على الرسالة المتقدمة أسبوعان حتى تناولت منه الرسالة المؤرخة ١٩٤٩/١/١١ التي يقول فيها :

« وها أنا أبعث اليك بهذه العجالة طي نسخة من (جحيم الدكتور داهش) راجياً مطالعته بدقة وروية — وكان قد بعث لي بنسخة منها من قبل ثم نسي ذلك على ما يبدو — وكتابة صفحة كاملة عنه في (الهاتف) وأنا أعتقد أنه يستحق صفحة وأكثر من صفحة من قلمك الرشيق الفياض » ...

وأردف الرسالة المتقدمة بعد ذلك بالرسالة المؤرخة في ١٩٤٩/٥/١٤ التي يقول فيها :

« ... وبالأمس انتهيت من تبييض مجموعة جديدة ربما نطبعها بعد الصيف عن (داهش والداهشية) وفيها آراء لنخبة من كبار الأدباء والشعراء ، وقد اخترت (للهاتف) ما تجده في طيّه ، وقد كلفت المقدم محمد حسن (المحاويلي) مؤلف (قلب اليمن) أن يحمل اليك أشواقي » ...

— ٤ —

لقد كان حليم دموس أكثر ايماناً (بالداهشية) من داهش نفسه ، ذلك لأن داهشاً كان يعلم في قرارة نفسه أنه غير نبي ولا رسول ، ولا صاحب رسالة ، ويعلم ان هؤلاء الذين التفوا حوله انما هم طائفة من السذج الأطهار الذين نسوا أن أديانهم نفسها تحمل من الدعوة إلى الخير والصلاح أكثر مما يقول داهش وغير داهش ، وان حليم دموس ربما كان من أطهر هؤلاء الأتباع نفساً لذلك آمن بداهش ونبوته ايمانه بموسى ابن عمران ، وعيسى بن مريم ، ومن يدري فقد ظنه أعظم من جميع الأنبياء ما دام يستطيع أن يقلب الورقة المدورة بحجم الدرهم ليرة ذهب عثمانية ، فبدأ ينظر إلى هذه الأفكار الساذجة التي يأتي بها داهش نظرة روحية أعمق من الواقع ونسي ما تحمل مسيحيته من التعاليم الانسانية والصلاح الذي يستمد داهش من بعضه كل تعاليمه ودعوته ، لذلك قصر حليم دموس في سني عمره الأخيرة كل شعره على الدعوة للداهشية ، وعدّ (جحيم داهش) كتاباً مقدساً ، فنسي بذلك مقامه بين الشعراء ، ومكانته الأدبية في المجتمع ، وفقد احتفاء الأدباء به كشاعر من كبار شعراء العربية ، فقد ظل يكتب لي ويلحّ عليّ بأن أنشر له ما يبعث به اليّ ، وظللت أنا أخلق له المعاذير في عدم نشر المواد التي تخص (الدعاية) لنبوة داهش ، حتى إذا مات حليم دموس ماتت معه الداهشية ، وارفض معتنقوها ، ولم يعد لها ذكر بعد ذلك ، لأن (دموس) كان كل شيء في هذه الديانة كما كان بولس الرسول في المسيحية وأكثر .

وقد أورد يوسف أسعد داغر في الجزء الثالث من كتابه (مصادر الدراسة الأدبية) ترجمة له وذكر من آثاره (ديوانه) المنشور في دمشق سنة ١٩٢٠ ، و (ذكرى المتنبي) المطبوع ببيروت سنة ١٩٣٦ و (زبدة الآراء في الشعر والشعراء) المطبوع بدمشق سنة ١٩١٠ و (قاموس العوام)

المطبوع كذلك بدمشق سنة ١٩٢٣ و (المثاني والمثالث) وقد صدر في جزئين وبطبعة أنيقة قامت بطبعهما مطبعة العرفان بصيدا ، وله (أناشيد الملحمة العربية الكبرى) وقد قام (الهاتف) بنشر الكثير منها ، كما انه قام بترجمة المسرحية المعروفة (في سبيل التاج) عن الفرنسية ، وله أيضاً (يقظة الروح أو ترانيم حليم) وهي مطبوعة ببيروت ، ومن الروايات له (فاجعة بيروت) و (الروايات العشر) .

أما أناشيد (الملحمة العربية الكبرى) فلم ينشر منها إلا بعضها ، وأما شعره الذي عني بأفكار داهش فهو كذلك لم يجمع في كتاب واحد كما لم ينشر كله بعد وكل هذه الآثار الأدبية تكاد تصبح اليوم صفحات منسية لا يستبعد أن تكون الدعوة إلى الداهشية السبب في هذا النسيان ، مع أن هذه الآثار الشعرية لا تخلو من بواقيت وجواهر لا يستهان بها .

ولقد بلغني — ولا أعلم مدى صحة هذا الخبر — أن هذه الداهشية أو غير الداهشية قد أوقعت بينه وبين أهل بيته شيئاً من البرود والفتور طرد بسببه من بيته أو انه هو الذي خرج ، وعـاش في سنيه الأخيرة وحيداً ، غريباً ، في غرفة حقيرة من بيت مهجور لا تسكنه إلا عجوز فقيرة وقد دخل غرفته ذات يوم ولم يخرج منها وبعد ثلاثة أيام كما روت لي السيدة سميرة قائدبيه بمقتضى مسموعاتها وجد أنه قد مات وكان تعليل موته أنه مات جوعاً إذ لم يجدوا في جيبه قرشاً واحداً يشتري به رغيفاً ، وكما عاش وحيداً غريباً فقد مات كذلك وحيداً غريباً وهو بين قومه ومحبيه ، وما أمرّ أن يعيش المرء — ولا سيما اذا كان شاعراً مرهف الحس — غريباً وهو في وسط قومه ، فبكيته صديقاً حميماً ، وانساناً وديعاً ، طاهر النفس ، طيّب الذات ، وشعرت بالندم على ما كنت ألفّقه من المعاذير الكاذبة له لئلا أخدش له عزة نفسه ، رحمه الله ، وتغمده برضاه .

سامي الكيالي

كيف عرفت سامي الكيالي

١٨٩٨ – ١٩٧٤

– ١ –

في أواخر العشرينات كنت أصدر جريدة (الفجر الصادق) في النجف الأشرف وكانت مجلة (الحديث) التي صدرت لأول مرة في حلب سنة ١٩٢٧ والتي كان يصدرها سامي الكيالي تصل اليّ عن طريق المبادلة المألوفة بين الصحف ، وكنت أجد فيها بحوثاً طريفة للكتاب العرب من مختلف الأقطار ، وعلى رغم صغر حجم (الحديث) وقلة صفحاتها بالنسبة إلى مجلات هذا العصر الشهرية فقد كانت مشحونة بالكثير مما يطيب ويفيد من البحوث والمقالات ، والشعر ، حتى لقد طمعت بأن أبعث لها ببعض ما كنت ادخرت مما كتبت بعد توقف (الفجر الصادق) عن الصدور ، وكان هذا أول ملتقانا الروحي ، وقد زاده وثوقاً عدم انقطاع مجلته عني بالرغم من كتابتي له ولغيره من الصحف التي كانت تصل اليّ مبادلة بوجوب الكف عن ارسال صحفهم ما دامت صحيفتي قد توقفت عن الصدور ، وهي عادة التزمت بها عند اغلاق الحكومة الصحف التي أصدرتها ، فكان البعض من الصحافيين يقطع عني صحيفته بمجرد تلقيه هذا الاشعار ، وبعضهم يظل مواصلاً إرسال صحيفته اليّ دون الالتفات إلى طلبي ، وكان من هذا البعض سامي الكيالي الذي ظل يرسل اليّ مجلته

(الحديث) طوال مدة صدورها ، وقد تعرفت بطائفة من الأدباء عن طريق هذه المجلة ، كما ازددت معرفة بالذين كنت أعرفهم بسببها ، وكان من هؤلاء الذين عرفتهم لأول مرة ، وأعجبت بهم هو الدكتور اسماعيل أدهم ، وهو من نوابغ الفكر الذين لا يتتبع قارىء آثارهم إلا وتتملكه الدهشة لهذه العقلية الجبارة مهما خالفت آراؤه وعقيدته رأي القارىء وعقيدته ، وقد كان اسماعيل أدهم ملحداً ، وكان قد كتب كتاباً باسم : (لماذا أنا ملحد) وكان شعوبياً على ما كان يقال ، ومتأثراً بآراء (كارل ماركس) لحد كبير ،ولكن كل هذا التطرف في الالحاد ، والتطرف في اعتناق المادة مذهباً في الوجود لم يستطع أن يغطّي على غزارة علمه ، وأدبه ، وفلسفته العميقة،وهذه الديباجة المشرقة من نثره الخلاب التي تشدّ القارىء اليه شدّاً لا انفكاك له منه حتى وان خالفه فيما يقول ، وهو بعد ذلك يتقن بضع لغات كتابة وقراءة ، ومات منتحراً بأن ألقى بنفسه في البحر بالاسكندرية ، واختلف البعض في سبب هذا الانتحار ، أو سبب موته ، فعزاه إلى ما كان يعاني من مرض ليس له شفاء ، وشاعت حوله اشاعات أخرى أشبه بالاشاعة التي شاعت حول غرق (أسمهان) المطربة متهمة اياه بالتجسس لحساب بعض الدول ، وقالوا انه حين انكشف أمره أنهى حياته بالانتحار كما فعل أخيراً (بوفقير) حين انكشف أمره في تدبير الانقلاب على الملك الحسن في المغرب ، ومنهم من ذهبت ظنونه إلى أن هناك من ألقى به في اليمّ عامداً وأشاع بأنه هو الذي أقدم على الانتحار ، إلى غير ذلك من الاشاعات التي ترافق المشاهير الأعلام غالباً حين يغمض شيء في حياتهم العامة وليس فيه دليل يركن اليه المؤرخون ، ويذهب آخرون – وأنا أميل إلى أقوال هؤلاء – إلى أن سبب الانتحار كان اليأس من الوصول إلى معرفة كنه الحياة ، والوقوف على أسرار الوجود عند الذين يتعمقون في الفلسفة المادية وهم غير مؤمنين بشيء غير المادة فلا يجدون ما يطمئنون به أنفسهم من الايمان ، ويقلل من بعثرة أفكارهم وتشتتها ، فيصيب

أعصابهم شيء من الخلل حين يتجاوز تفكيرهم مستوى تفكير النوابغ ، ولا يعني هـذا أن مصير كل من يبلغ القمة من النبوغ يكون عـلى هذا النحو ، وانما قد يكون هذا سبباً عند البعض فيختل توازنهم ، ويستولي عليهم اليأس ، ويقدمون على الانتحار ، ويكون شأنهم شأن أولئك الناس الاعتياديين الذين لا يتحملون آثار الصدمة فيلتجؤون إلى الخروج من هذه الدنيا بقتل أنفسهم .

وقد أبّنت مجلة (الحديث) الدكتور اسماعيل أدهم خير تأبين ، وأشارت إلى مواهبه ونبوغه ، ونشرت له آثاره العلمية ، وصارت (الحديث) من أهم المصادر لمن تعنيه دراسة هذا الرجل المدهش الغريب ، وترجم له خير الدين الزركلي في (اعلامه) فقال عنه ما يلي :

« اسماعيل بن أحمد بن اسماعيل بن ابراهيم باشا أدهم : عارف بالرياضيات ، له اشتغال بالتاريخ ، شعوبي ، تركي الأصل ، أمّه ألمانيّة ، كان أبوه ضابطاً في الجيش التركي ، وجده معلماً للغة التركية في جامعة برلين ، وجدّ أبيه مديراً لديوان المدارس المصرية في عهد محمد علي ، ولد اسماعيل سنة ١٩١١ م بالاسكندرية ، وتعلّم بها وبالآستانة ، ثم أحرز الدكتوراه في العلوم من جامعة موسكو سنة ١٩٣١ وعين مدرسـاً للرياضيات في جامعة سان بطرسبورج ، وانتخب عضواً أجنبيّاً في (أكاديمية) العلوم السوفيتية ، وعهدت اليه جامعة (فريبورج) بالاشراف على طبع كتاب المستشرق (سپرنجر) عن حياة (محمد) عليه الصلاة والسلام ، وانتخب وكيلاً للمعهد الروسي للدراسات الاسلامية ، وانتقل إلى تركيا ، فكان مدرساً للرياضيات في معهد أتاتورك بأنقرة ، وبها نشر كتابه (اسلام تاريخي) بالتركية ، وعاد إلى مصر سنة ١٩٣٦ م فنشر رسالة بالعربية باسم (من مصادر التاريخ الإسلامي) صادرتها الحكومة ، ورسالة باسم (الزهاوي الشاعر) وكتاباً وضعه في (الالحاد) وكتب في مجلات مصر

والشام ، مقالات بالعربية ، منها (علم الأنساب عند العرب) و (نظرية النسبية) و (خليل مطران الشاعر) و (طه حسين درس وتحليل) و (عبد الحق حامد) الشاعر التركي ، وكان يعيش من ريع ملك صغير له في الاسكندرية ، وأصيب بالسل ، فتعجل الموت ، وأغرق نفسه بالاسكندرية منتحراً سنة (١٩٤٠) م » .

وكثير من الذي كتبه اسماعيل أدهم منشور في مجلة (الحديث) مما يعدّ شيئاً مبتكراً في عالم الفكر والبحوث العلمية ، ولم يكن اسماعيل أدهم وحده من كبار كتاب مجلة (الحديث) وانما كان هناك الكثير من أدباء مصر ولبنان وسوريا وقد ملؤوا (الحديث) أدباً .

— ٢ —

وكانت مجلة (الحديث) تنقطع بعض الأحيان عن الصدور في أوقاتها ، ويطول انقطاعها أحياناً أكثر من المعتاد ، فكنت أتلهّف لطلعتها ، ولا أعرف سرّ هذا الانقطاع إلا يوم تجاوز اتصالي بالكيالي حدود قراءة مجلته ، وأصبحت المراسلة والمكاتبة متواصلة بيننا ، وحينذاك علمت أن للكيالي هواية لا تقل عن هواية ابن بطوطة في الأسفار ، وقد طوّف بالكثير من البلدان شرقاً وغرباً ، فزار أميركا وجاب بلدان أوروبا ، وعرف الكثير من معالم الحضارة في دنيا الأدب ، وأحاط بالكثير من وجوه الثقافة يزور المكتبات والمعاهد ، والجامعات ، ولم يكن هناك من يخلّفه على المجلة ، أو قل انه لم يطمئن إلى أحد يعهد بالمجلة وتحريرها اليه في أثناء غيابه ، حرصاً على نزعة مجلته ، وطريقتها ، ونهجها فيما يجب أن ينشر ، وما لا ينبغي أن ينشر ، وهو حين يعود من أسفاره كان يعود وفي جعبته أشياء طريفة ، وأفكار جديدة يطعّم بها مجلته فيزيد بذلك من ثقافة قرائها ، واحاطتهم بما ينبغي أن يحيطوا به في دنيا الثقافة وميادين الأدب ، وقد أصبح

له اتصال وثيق بسبب هذه الأسفار والرحلات بالكثير من أعلام العرب ، وأعلام الشرق العرب خاصة مثل لطفي السيد ، والدكتور طه حسين ، وعباس محمود العقاد، والدكتور محمد حسين هيكل، وعبد القادر المازني وغيرهم ، وهذا ما ساعده حين أغلق (الحديث) نهائياً على أن يسدّ فراغه بالتأليف .

أما اغلاق (الحديث) فقد جرى في سنة ١٩٦٠ حين عرضت الحكومة السورية على الصحافيين الاختيار في استمرار صدور صحفهم أو اغلاقها نهائياً وقبول التعويض عنها نقداً ، أما عبد الله يوركي حلاق – صاحب مجلة الضاد الحلبية – فقد فضّل الاستمرار في اصدار مجلته ، وأما سامي الكيالي فقد رأى في الانصراف إلى التأليف وسيلة أجدى في خدمة الأدب ، لذلك قبل التعويض ، وكان تعويضه عشرة آلاف ليرة سورية على ما علمت من بعض الاخوان ، أما ما قاله هو لي عن هذا التعويض انه كان شيئاً تافهاً ، وقد قبله لأنه ضاق ذرعاً بالصحافة والصحافيين بعد أن قضى فيها ثلاثين سنة ، ولم يذكر لي المبلغ .

وظل قلمه المبدع يعمل في نواحي من البحوث التي جلا فيها الكثير من صور النوابغ وأخرجها اخراجاً منقطع النظير ، من حيث تصوير البيئة والمحيط ، وبعرض يغني القارىء والباحث عن الركض لاقتناص الشوارد فيفتح لأول مرة أبواباً جديدة من عرض الأفكار ، والآراء ، والأخبار التي ينفرد بها ، والتي لولاه لما كان يتم الالمام بها والوقوف عليها الماماً كاملاً ، ومن ذلك كانت الرسالة الضافية الوافية التي كتبها عن الدكتور طه حسين ، وكذلك كان كتابه عن (الأدب المعاصر في سوريا) وهو كتاب يؤرخ فيه الكيالي للأدب والأدباء ألوانهم ، وطبيعة شعرهم ونثرهم ، في مختلف اتجاهاتهم ، ومناحيهم طوال قرن واحد مبتدئاً بسنة ١٨٥٠ ومنتهياً بسنة ١٩٥٠ ، وقد كتبت أنا عن كل من الكتابين مقالاً نشرت أحدهما في

جريدة (البلد) البغدادية لعبد القادر البراك ، والآخر في جريدة (الحرية) البغدادية لصاحبها قاسم حمودي ، وكانت قد جاءت في ضمن أدباء سوريا ترجمة لساطع الحصري ، بصفته أديباً في هذه الحقبة من الزمن !! وأنا أعرف ساطع الحصري معرفة جيدة فهو فضلاً عن كونه لا يعرف شيئاً من القواعد العربية نحواً وصرفاً ، فانه لا يحسن ضبط الكلمات العربية إملاء في الكثير من كتاباته ، وعلى رغم أن جميع مؤلفاته كانت تمر من تحت أقلام أصدقائه وما كانوا يدخلون عليها من تصليح وتنميق فانها لم تخل من أغلاط عربية فظيعة ، وانه لبوسع القارىء أن يقول أي شيء عن ساطع الحصري ، ويصفه بأية صفة يشاء ، ولكنه لا يمكن أن يحشره بين الأدباء لا من حيث الكتابة والقراءة والقواعد فحسب ، وانما من حيث الخميرة ، ذلك لأن خميرة الأدب هي من نوع خاص من الفنون تولد مع ولادة الأديب ثم تستوي وتتوكل بالمران والتجربة والدرس والاحتكاك ، وكل هذا غير موجود عند ساطع الحصري ، لذلك لم يسلم مقالي الذي كتبته لجريدة (الحرية) من مآخذ أخذتها على الكيالي كان منها حشر ساطع الحصري بين كبار رجال الأدب من أمثال (بدوي الجبل) و (محمد كرد علي) و (عمر أبي ريشة) وأضرابهم وقد تلقيت من سامي الكيالي تعليقاً على مقالي هذا يقول :

« تسلمت رسالتك التي تضمنت أصدق العواطف من أخ عزيز تأبى سجيته النبيلة إلا أن يضفي على المخلصين لرسالة الأدب أطيب الكلمات المشجّعة ، وثق ان الجهد الذي بذلته في اخراج الكتاب ، وتاريخ هذه الفترة ، ولا سيما الغامض منها ، كان مرهقاً ، وأشعر أن ثغرات كثيرة لما تسدّ بعد ، وأنا في سبيل كتابة الجزء الثاني ، وسيكون أوسع ، وسأتناول التيّارات الأدبية باسهاب ، وكلمات الأصدقاء ، وأنت في الطليعة ، هي التي تشجعني على أداء هذا الواجب ، وقد لقي الكتاب كل ترحيب من الكثيرين ، وأشكرك أبلغ الشكر على كلمتك الطيبة في جريدة (الحرية)

وتقبلت ملاحظاتك بكثير من الترحاب ، وأنا ما أدخلت ساطع الحصري في عداد الذين أرخت لهم إلا (لحلبيّته) أي ان الاقليمية هي التي دفعتني إلى ذلك ، وان رأيي في الرجل لا يختلف عن رأيك ، فهو أبعد ما يكون عن حظيرة الأدب ، وان كان فضله لا ينكر في النواحي القومية والثقافية » .

— ٣ —

وساعد هذا الفراغ الذي حصل للكيالي بسبب اغلاق (الحديث) على اتساع جولاته ، وتسجيل ما يحصل عليه في هذه الجولات ليخرج منها بسلسلة من المحاضرات القيمة ، كالمحاضرات التي ألقاها بمعهد الدراسات العربية العلمية في القاهرة عن (الأدب والقومية في سوريا) وقد تمّ طبعها من قبل المعهد ، والكيّالي إلى جانب طبيعته العلمية والأدبية فهو متمسك بالقومية العربية ، وكان من محبي جمال عبد الناصر ومؤيديه ، بداعي تلك القومية التي كان يتمسك بها .

أجل ، لقد كان يفيد من تلك الرحلات التي يقوم بها في البلدان . فيضيف إلى قائمة الأصدقاء والمعارف الذين يتعرف بهم أسماء جديدة يظلون يشغلون ذهنه فلا ينساهم ، ولا ينسى ما اتصفوا به ، وهذا من بعض ما امتاز به في مجالات اتصالاته بالمجتمعات ، واحتكاكه بالناس ، وقد كتب لي مرة يقول :

« ...أعدت قراءة كتابكم (هكذا عرفتهم) فقرأت للمرة الثانية بعض فصوله واني أهنئكم على هذا الأسلوب الحي الجميل الذي يشعرنا بأننا نعيش مع الشخص ، وكم سررت حين قرأت كلمتكم الطيبة عن المرحوم عبد الله القصاب — بالطبع لا أعني المحامي الجزار — (وهو يقصد بهذا عبد المحسن القصاب المحامي الذي لا يمتّ لآل القصاب بصلة ، وانما جاء

اللقب من أبيه الذي كان يعمل جزاراً) وقد عرفت الفقيد عبد الله القصاب ، وكانت بيننا صلات ودّ ، وكان آخر لقائي به في (فينا) وقضينا أسبوعاً من أمتع أسابيع رحلتي ، وقد أنصفتموه في جميع مواقفكم وأنت خير من ينصف الناس ويقدر مزاياهم » .

وكان يكتب لي في الغالب من البلدان التي يمرّ بها ، وحين يعود منها مشيراً إلى ما تسنّى له أن يحصل عليه من الثمرات المفيدة في حقول التاريخ والأدب ، فهو حين يحلّ بليبيا مثلاً يكتب لي ويقول :

« كانت رحلتي إلى ليبيا ممتعة وصلتني بفضلاء أمثالكم عرفوا الكثير عني وعن مؤلفاتي فحاطوني بفيض مودتهم وكرمهم ، وأطلعوني على الكثير مما كنت أجهله من حياتهم الفكرية والأدبية ، ومراحل جهادهم البطولي ، والواقع أن زيارة قطرما والاحتكاك برجالاته وأدبائه ، ومفكريه ، تكشف للباحث الكثير مما يجهله ، فأنا أعرف الكثير عن ليبيا ولكن هذه الزيارة أطلعتني على أشياء كنت أجهلها كل الجهل ، وهو قطر كريم يغصّ بالأدباء والشعراء ، والمؤلفين ، وربما أنتجت هذه الزيارة رسالة آمل أن أكتبها في هذا الصيف » .

ثم كتب هذه الرسالة عن ليبيا ، ولست أعلم ما إذا كانت هذه الرسالة قد تمّ طبعها ونشرت أم هي لا تزال مخطوطة .

— ٤ —

كل هذا وأكثر منه وأنا لم ألتق سامي الكيالي بعد ، ولم يتح لي المرور بحلب الشهباء ، واستجابة دعوته المكررة لي بزيارة هذا البلد العريق ، حتى تكاد لا تخلو الرسائل التي أتلقاها منه من تكرار هذه الدعوة ، وأنا أعده بذلك كما كنت أعد عبد الله يوركي حلاق الذي لم أكن أعرفه عن كثب حتى جاءتني ذات يوم برقية من نظير زيتون يخبرني فيها بأن عبد الله يوركي سيصل في القطار في التاريخ المعين وينتظر مني القيام بما ينبغي على واحد

مثلي لواحد مثاه، ويضيف في البرقية أنّ الرجل في طريقه إلى الكويت لزيارة ابنه الذي يعمل هناك، وكان لا بد لي من استقباله في محطة القطار القادم من الموصل ، وألفيت كوركيس عواد ، وميخائيل عوّاد في المحطة ينتظران وصوله فقد تلقيا نفس البرقية من نظير زيتون ، ولأول مرة تكتحل عيني برؤية صاحب (الضاد) ، وكانت لي يومذاك بعض الدالة أو شبه الدالة على الأصح على وزارة الاعلام بصفتي أديباً لا غير – إذا جاز أن أكون أديباً – فنبهت من أعرف في (الاعلام) بوجوب استضافته ، فكان أن استجابت إلى ذلك وأنزل في فندق سميراميس وكان أحسن فنادق بغداد يوم ذاك في ضيافة وزارة الاعلام ، وكانت العلاقة في تلك الأيام على أشد ما تكون توتراً بين العراق وسوريا فخشي عبد الله يوركي وهو سوري أن لا يكون عمله مرضياً عند حكومته لاسيما وهو كاتب صحافي اذا ما قام بزيارة المسؤولين العراقيين وشكرهم على حسن ضيافتهم وتكريمهم اياه، فكاشفني بحيرته هذه وطلب مني رأيي فيما يفعل ، وكنت أعرف أحمد الرحبي القائم بأعمال السفارة السورية ، وتعود معرفتي بالسفارة السورية ببغداد إلى أيام وجود الشاعر العالم خليل مردم بك وزيراً مفوضاً ببغداد قبل أن تتأسس

عبد الله يوركي حلاق صاحب مجلة الضاد

السفارة السورية ، وكانت تربطني به رابطة مودة كبيرة يوم كنت أصدر (الهاتف) ببغداد وكان يدعوني في كل مناسبة وكل حفلة فضلاً عن أننا طالما ضمتنا دعوات الحكومة العراقية والسفارات بصفتي صحافياً ، وبلغت من محبته أن سعى من ذاته وهو رئيس للمجمع العلمي بدمشق أن يدخل ابنتي فريدة في كلية الطب بدمشق على نفقة الحكومة السورية ، يوم تخرجها من الثانوية ولكن وضع سوريا يوم ذاك مع اسرائيل كان وضعاً متأزماً فدخلت ابنتي جامعة بغداد . وكانت هذه المحبة من خليل مردم بك سبباً بعد ذلك لدعوتي إلى حفلات السفارة السورية ودعواتها حتى ولي السفارة من ليس له علاقة بالأدب والأدباء فانقطعت رجلي ولم أعد أعرف أحداً من السفارة وأعضائها . واقترحت على عبد الله يوركي بالاتصال بأحمد الرحبي وعرض المسألة عليه . وقمت أنا بتمهيد زيارته للسفارة السورية ، وكانت السفارة حينذاك تحت رقابة مديرية الأمن العام . مثلما كانت السفارة العراقية بدمشق تحت مراقبة المباحث والأمن العام السوري . ولما كنت أعرف عن نفسي بعدي عن السياسة والسياسيين وأعلم أن المسؤولين في العراق يعرفون ذلك عني كل المعرفة لذلك كنت قليل الحذر في اجابتي للدعوات السورية وحفلاتها فقمت أنا بتمهيد اتصال صاحب (الضاد) بسفارته ، وحصلت على موعد لي وله في مواجهة أحمد الرحبي ، وأشهد أن الرحبي لم يكتف بالترحيب بفكرة زيارة عبد الله يوركي للمسؤولين العراقيين وشكرهم على حسن ضيافتهم له وابداء العواطف نحوهم ، بل قال بأنه مستعد لأن يقول لوزارة الخارجية السورية إذا ما سألته عن الزيارة التي قام بها عبد الله يوركي للمسؤولين العراقيين أنه – أي أحمد الرحبي – هو الذي أوجب عليه القيام بهذه الزيارة ، وهكذا كان .

ومنذ ذلك الوقت كثرت مواعيدي بزيارة حلب ، وزيارة دير الزور بالدعوات المكررة من لدن عبد القادر عياش ، ولكن الظروف أو سوء الحظ كما يسمونه قد حال بيني وبين تحقيق رغبتي ، وليست هذه الظروف أو سوء الظن إلا الكسل أو التكاسل ، والا فأنا أقضي صيف كل سنة بلبنان

فما أسهل عليّ من زيارة دمشق وهي لا تبعد عني إلا القليل وقد دعاني لزيارتها غير مرة الصديق الكريم محمد جميل القربي ، ودعتني ذات مرة الأديبة الألمعية سلمى الحفار الكزبري .

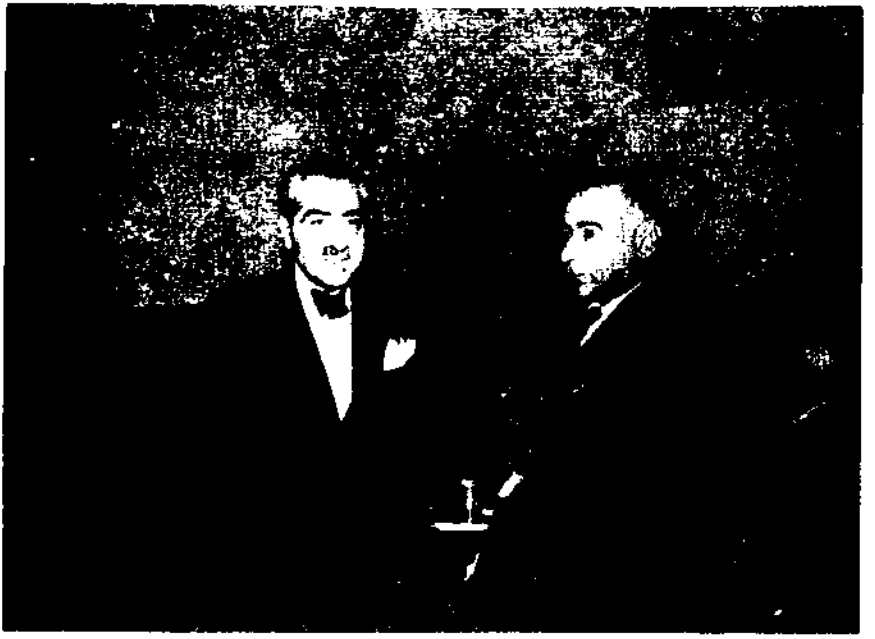

خليل مردم بك والمؤلف

وفي صيف احدى السنين من الستينات وأنا أقضي الصيف بسوق الغرب قمت ذات يوم بزيارة الصديق الدكتور أمين زهر وهو من أشهر أطباء سوق الغرب ، واذا بالباب يطرق ، ثم اذا بعبد الله يوركي وبصحبته سامي الكيالي يدخلان !! اذ كان الصديقان قد علما من قبل بمكاني من سوق الغرب في كل صيف فقصدا الفندق الذي أقيم فيه كل سنة حسب العادة وهداهم صاحب الفندق إلى محل وجودي في بيت الدكتور أمين زهر الذي كثيراً ما كنت أقضي فيه بعض أوقاتي ، وأفيد من مكتبة بيته في المراجعة ، بل كثيراً ما كنت ولا أزال ، أتناول الغداء عندهم ، فهو صديق قديم وقد سقطت الكلفة بيني وبينه ، وأصبح هو وعقيلته الست

أبريزا مصداقاً لقول القائل (رب أخ لم تلده أمك) وقد حكت أبياتي الثلاثة فيه وفي عقيلته مبلغ تعلقي بهما اذ قلت :

عرفت السجايا الغرّ لما عرفتـــه ... وأدركت فيه كل ما كنت أشتهي
وأحببته حبي لأهـــلي جميعهم ... وحبي لأهلي ليس عمراً وينتهي
وأحببتها حـــب الشقيق لأختـــه ... وأكثر من حب الشقيق لأخته

في أثناء الخروج من افتتاح المجلس النيابي سنة ١٩٥١ وعلى رأس كل من خليل مردم والمؤلف علامة دليل على كثرة التقائهما

وكان عناق . وكانت فرحة ما بعدها فرحة بهذا اللقاء المفاجيء في مثل هذا الوقت . وفي مثل هذا المكان . وقمت باجراء التعارف بين الدكتور زهر والكيالي وعبد الله يوركي اذ لم يكونا قد عرفا آل زهر من قبل ، ولم يعرفا ما كان بيني وبين هذا البيت من معرفة سابقة يعود تاريخها يومذاك إلى ربع قرن وإلى يوم كان الدكتور أمين زهر طبيباً في مدينة النجف الأشرف . وكنت أنا لم أنتقل بعد من النجف إلى بغداد ، فتم لنـــا

هذا التعرف هناك. واندمج بيت الدكتور زهر ببيتنا في النجف حتى كاد أن يصبح بيتاً واحداً لكثرة اختلاف بعضنا إلى بعض. وكثر تزاورنا اليومي لقرب مسكنينا . لذلك سرعان ما شعر الكيالي بانعدام الكلفة فطاب له هذا المجلس ، كما طاب لعبد الله يوركي الذي أسمعنا في ذلك المجلس ما طاب من شعره ، وحدثنا الكيالي بجانب كبير من ذكرياته عن بعض الأعلام ، وبجانب كبير من رحلاته في الأقطار . وحين صار وقت الغداء خيّرتهما بين أن يتناولا غداءهما معي في الفندق الذي أقيم فيه وهو على مقربة مني أو يتناولاه هنا في بيت الدكتور زهر ؟ فتركا ذلك اليّ ، وكان

الثلاثة في الوسط من اليمين خليل مردم بك . ومحمود صبحي الدفتري . والمؤلف

الدكتور زهر وعقيلته يلحّان عليّ في تناول الغداء على مائدتهما ، وقد رجّحت أنا ذلك لا لطيب الغداء عند زهر فحسب. وانما لأن هذا المجلس قد توسع ، وما لبث أن توارد علينا بعض الأقارب والأهل فلذت لهم هذه الأحاديث التي تخللها كثير من (النكت) والنوادر . والشعر . ولا يبعد أن

يكون ارفضاضنا عن هذا المجلس انقطاعاً عن هذه الأحاديث . وتحولاً مما كنا فيه من انتشاء وانتعاش .

وقمنا إلى مائدة الطعام ونحن نواصل الحديث . وان الذي يعرف الكيالي عن كثب يعرف فيه ، المتحدث اللبق اللطيف الذي يجتذب اليه الأسماع في صوته الناعم الهادىء الذي يشعر السامع ببعد صاحبه عن الغضب . وحدة المـــزاج .

الدكتور أمين زهر وعقيلته والمؤلف وسعيد مكارم

وطال جلوسنا على المائدة ،وهنا عرف الكيالي لِمَ أقضي الصيف من كل سنة هنا مفضلاً (سوق الغرب) على غيرها من المصائف ؟ فرغب أن يفعل هو الآخر فعلي كلما تيسر له ذلك في السنين المقبلة ، وينزل بسوق الغرب من أجلي ، وأجل الدكتور زهر الذي تم له التعرف به اليوم .

وصمم عبد الله يوركي نفس التصميم ،أما الكيالي فقد عمل بما صمم عليه فصار يوافيني في كل سنة بعض الوقت بسوق الغرب فأنعم برؤيته ، وأسعد

بزيارته . وكثيراً ما تناولنا غداءنا على مائدة الدكتور زهر . وقد صحب ذات سنة كريمته التي تعمل في التعليم بمدارس حلب على ما أظن لعرضها على الدكتور زهر حين علم أن للدكتور براعة في الطب الداخلي . بل طالما كان هو يستشير الدكتور زهر فيما يعرض له ، ويشكو منه بعض الأحيان ، أما عبد الله يوركي فلم يتسن له أن يزور سوق الغرب بعد تلك الزيارة إلا مرة واحدة كان فيها هو ونجله وكنّته ضيوفاً على الدكتور شاهين الصليبي فزارني ليلاً في الفندق وقضينا معاً شطراً طويلاً من الليل .

— ٥ —

وفي كل سنة ، وحين يعود كل منا إلى بلده تتجدد المكاتبات بيننا . وقلّما خلت رسائل الكيالي من الاشارة إلى ما كان يقرأ لي مما كنت أطبعه في بيروت والذي كان يتسلمه مني بلبنان . أو الذي كان يحمله اليه صديق الطرفين الأديب الشاعر خليل هنداوي حين يخرج الكتاب من المطبعة بل كثيراً ما يعود الكيالي فيقرأ الكتاب كله أو بعض فصوله مرة أخرى على ما كان يذكر لي ذلك ويقول :

« إنّك من الذين لا يطيق القارىء أن يقرأهم دون أن ينتهي من قرائتهم آسفاً لانقطاع هذه اللذة الروحية التي قلما يجدها عند الآخرين من الكتاب والمؤلفين » كما يقول . واني لأسجل رأيه هذا لا من باب التباهي — وإن كان التباهي بمثل هذا الرأي الذي يبديه عالم بحاثة ، وصحافي أديب كبير ، سواء كان مجاملاً ، أو معبراً عن شعوره الصادق أمراً يدعو إلى الاعتزاز — وانما أسجله هنا كتصويرة من خواطر هذا الرجل وما يجول في نفسه أو يدّعي التحسس به ، حتى لقد كتب لي مرة يقول :

« ... يسرني دائماً أن أتلقى أخباركم ، وأن أكون على صلة بما تنتجه

يراعتكم الفاضلة التي تنشر دائماً أصفى ما في ذخائرنا الإسلامية من روائع ، فقد حباكم الله بالكثير من الفضائل ، وما نشرتم شيئاً الا كان ذا أثر ملموس في حياتنا العقلية . وكل آثاركم تنطق بالموهبة المبدعة التي تصل بين الماضي والحاضر بأسلوب مشرق أخّـــاذ ، وغاية في الروعة ، ولقد عشتم يا أخي طوال حياتكم لا تعرفون إلا البذل ، والعطاء في شتّى ميادين الفكر ، وهذا هو الذي جعل لكم هذه المكانة في قلوب اخوانكم الذين يكنّون لكم أصدق حبٍّ وأكرم منزلة » ...

وكان لا بد لنا أن نلتقي في الغالب في كل صيف ، فكان يقضي وقتاً يطول آماداً بفندق شبلي من سوق الغرب . وكان يقول لي انه لم يختر سوق الغرب لولا نزولي أنا فيه ، اذ كان قبل ذلك يؤمّ مصايف أخرى ويتنقل بين مصيف وآخر ، فلا يقضي في الغالب أكثر من أسبوع أو دون ذلك في كل مصيف . ويعرف بوجوده أدباء لبنان أو الأدباء العرب الذين يؤمون لبنان فيكثرون من زيارته ، ويكون مجلسه حافلاً بأهل الفضل والعلم والأدب .

وفي الوقت الذي يكون الكيالي بسوق الغرب يكون وقتي في الغالب وقفاً عليه ، ويكون له في كل يوم أو يومين زيارة لي بفندق فاروق فنتناول الغداء معاً .

وفندق فاروق هذا قد اعتدت النزول فيه لأسباب قديمة ربطتني بصاحبه داود صليبا ، وهي رابطة يرجع تاريخها إلى أيام وجودي في النجف الأشرف حين كنت أصدر جريدة الهاتف ، وكان داود صليبا يقوم بتدريس الرياضيات في ثانوية مدينة الديوانية التي تبعد عن النجف بما دون المئة كيلو متر ، وبينما كنت أهم بمغادرة مكتب الجريدة في نحو الساعة الثانية من بعد ظهر أحد الأيام من أوائل الصيف دخل عليّ هذا الرجل ، ولم يكن لي به سابق معرفة ، وقدّم نفسه قائلاً : انه فلان وانه يعمل مدرساً بثانوية

الديوانية ، وقد أوشكت عطلة المدارس الصيفية أن تحين ، فرأى أن يزور هذه المدينة ، التي يعرف عنها الشيء الكثير بالسماع دون أن يراها ، لذلك انتهز هذه الفرصة وقدم النجف ، وطاف بما استطاع أن يطوف في معالم هذه المدينة ومدارسها الدينية ، وقبل ساعة أو أكثر دخل أحد المطاعم لتناول الغداء ،ولكنه لا يدري لأي سبب ؟ وكيف عرف صاحب المطعم بأني لست مسلماً فجاء يسألني عمّا إذا كنت مسلماً فأجبته- يقول صليبا – بالنفي ، فقال لي لا يؤذن لأحد من غير المسلمين الدخول هنا في المطعم !! ولا يمكنك أن تتناول غداءك عندنا ، فقلت له – يقول صليبا – وفي أي مطعم يمكن لغير المسلم أن يتناول غداءه ؟ قال : ليس هنالك مطعم من هذا القبيل.

وخرجت من المطعم – يقول صليبا – وصممت على الرجوع إلى الديوانية من حيث أتيت ، وفي محطة السيارات (الكراج) قيل لي إن في مثل هذا الوقت من الظهيرة تقف السيارات عن الحركة بسبب الحر وانعدام حركة المسافرين ، وان عليّ أن أنتظر حلول الساعة الرابعة بعد الظهر لكي تبدأ حركة النقل من جديد ، فاضطررت إلى التجول في الأسواق وفي الشوارع العامة ، وإذا بي وأنا أمرّ من هنا تستلفتني اللوحة القائمة فوق هذه الدار وقد كتب عليها اسم (جريدة الهاتف) فقلت في نفسي : لقد حلّت العقدة ، فهذا صحافي ، وصاحب جريدة فلا أشك أنه لا يمانع في أن يطعمني رغيفاً من الخبز اذا وجدته وها أنا ذا كما قلت لك : أنا جوعان ...

لقد ضحكت في وقتها مما حدث لهذا الرجل ، وقلت له : أما أن يكون في هذا البلد أشخاص مثل صاحب هذا المطعم فهذا صحيح ، ولكن ليس كل من في هذا البلد على هذه الوتيرة ، وليس أدل على ذلك من وجود أساتذة مسيحيين في ثانوية النجف هم أكثر تماساً من غيرهم بالسكان ، وهناك طبيب مسيحي ، ومهندس يتولى تعبيد طريق الحج البري . فكيف

يعيش هؤلاء هنا؟ وقلت له وسأصحبك معي الآن إلى بيتي ،وسأقدّمك ونحن في طريقنا إلى البيت إلى من يلتقيني من المعارف في الطريق وأقول لهم انك مسيحي وأنت في صحبتي إلى بيتي لتناول الغداء . فان أنكروا عليّ ذلك فالأمر كما يقول صاحب المطعم . ثم اني سأقدّمك إلى زوجتي في البيت وأخبرها بأنك مسيحي جئت معي لتتناول الغداء عندنا ، فان أنكرت عليّ ذلك أو تجهمت فاعلم بأن الذي قاله صاحب المطعم صحيح وصحيح ، والآن فتفضل معي ومعذرة إذا وجدت الغداء غير لائق بك ما دامت زيارتك لنا مفاجأة .

هذا كل ما بقي في ذهني حينما ذكرني به القادمون من سوق الغرب الذين رأوا شاهدوا دكتور الرياضيات بثانوية سوق الغرب، يبني الطابق الأول من فندقه الذي نزلوا فيه ، وقد قص عليهم هذا الرجل القصة . وقال انه قد قضى ليلة عندي وإنه صحبني إلى بعض مجالس الأدب ، وانني قد عرفته في تلك الليلة ببعض العلماء والأدباء ، وأنا لا أذكر شيئاً أكثر من قصة المطعم ، وأخباره منذ عودتي إلى البيت اذ كانت قد مرّت على ذلك حفنة من السنين .

وقبل وجود داود صليبا صاحب الفندق حفزني وجود الدكتور أمين زهر بسوق الغرب إلى جانب وجود هذا الفندق الذي سبق لي أن تعرفت بصاحبه عن طريق المصادفة قبل سنين أن أتخذ منه مصيفاً بعد أن كنت لا أفضل على (ضهور الشوير) مصيفاً آخر لجمال البلد نفسه ولوجود أصدقاء حميمين لي فيه كان في مقدمتهم اسكندر حريق ، والدكتور أسد رستم ، وحليم دموس الشاعر ، وعزيز نصر المهندس والدكتور همّام .

ولقد قص أبو فاروق هذه القصة على سامي الكيالي كما كان يقصها على غيره حين تحين المناسبة ، فكانت هذه القصة مفتاح باب لمذاكرة جديدة بيني وبين الكيّالي عن الأدب النجفي ، ومجالس هذه المدينة التي ترجع

عهودها إلى القرن الخامس الهجري والتي تقوم مقام المنتديات ، وقد أطلعني الكيّالي على ما كان يعرف هو عن أدب العراق وأدبائه بصورة عامة ، وأدب النجف وأدبائه بصورة خاصة ، واذا به يروي الكثير من الشواهد الشعرية للسيد محمد سعيد الحبوبي . وكان الكيّالي من الذين يستبعدون عدم معرفة الحبوبي للخمرة . وعدم شربه لها في حياته . وإلا فكيف بامكان شخص أن يصف الخمرة بهذا الوصف وهو لا يعرفها شرباً وطعماً،وأثراً، ألم يكن هو القائل :

خفّف طبعي شربها مثلمـــا دبيبهـــا ثقّـــل أجفـــاني

واستطعت أنا أن أغيّر رأيه في (الحبوبي) وأكدت له أن الرجل لم يذق الخمر في حياته بل ولم ير لونها بعينيه لا في الكؤوس ، ولا في (القناني) وان الحبوبي لم يكن وحده على هذه الشاكلة بل ان الكثير ممن وصفوا الخمرة في أشعارهم ودعوا إلى شربها والتلذذ بها لم يذوقوها في حياتهم بل ولم يروها وفي طليعة أولئك المشاهير كان عمر الخيام الذي قلما خلت رباعية من رباعياته من ذكر الخمرة ، والدعوة لشربها وهو بعيد كل البعد عنها احتساءً كما يرى المحققون .

وككل المجالات تطرقت إلى أدب العراق وأدبائه ، وأدب النجف وأدبائها ، فانكشف لي انه يعرف أشياء كثيرة فيما يخص الأدب العراقي وخصائصه منذ القرون الإسلامية الأولى حتى الجيل الأخير . وهو يرتئي آراءً خاصة لا ينبغي أن تظل خفية في الأذهان مختبئة في الصدور ، لاسيما في أدب العراق المعاصر ، وقد عرض عليّ ذات يوم أن أقوم أنا واياه ، مشتركين في تأليف كتاب باسم (الأدب المعاصر في العـــراق) على أن نرجيء ذلك إلى أول فرصة متاحة يمكنه القيام بزيارة العراق ، ومكوثه هناك شهراً أو شهرين للمساهمة معي في تأليف هذا الكتاب .

ورحّبت أنا بالفكرة ، وتركت الإجابة على رغبته في مشاركتي له في التأليف إلى وقت آخر يكون بامكاني البتّ به والتهيّؤ له كاملاً . وهكذا تكون القصة التي قصّها داود صليبا عن مجالس الأدب في النجف باعثاً لرسوخ فكرة تأليف (الأدب المعاصر في العراق) في ذهن الكيالي رسوخاً ثابتاً .

ورحت أفكّر في الوسيلة التي أستطيع بها أن أدعوه إلى بغداد للقيام بهذا العمل شريكين ، وقد تبودلت بيني وبينه الرسائل المشيرة إلى هذا وكان من بعضها الرسالة التي يقول فيها :

« ... أخي ان اهتمامك بأمر سفري إلى العراق يثيرني أكثر لتحقيق الفكرة في أقرب فرصة ممكنة . وأشعر أن الأدب العراقي المعاصر لم يوفّ حقه من البحث والدرس ، وكلما قرأت بحثاً لأديب ، وقصيدة لشاعر وكتاباً لمؤلف لا يزال اسمه مجهولاً ، أيقنت أن العراق في الفترة بين الحربين العالميتين ، خطا خطواته الواسعة ، وان البذور التي زرعتموها أنتم واخوانكم الروّاد قد أثمرت ثمراتها المرجوة ، ولا شك أن كثيرين يستطيعون كتابة تاريخ هذه الفترة ، ولكن عوامل مختلفة تدعوني أن أضطلع بهذه المهمة ، ولا أعلم اذا كانت الظروف ستساعدني ، وإذا كنت سأوفق إلى انجازها ؟ لهذا لا أحب أن يثار الموضوع صحفياً ، وأنا من الأشخاص الذين يحرصون على أن يعلن العمل عن نفسه لا أن يثار حوله الضجيج ثم يكون لا شيء » ...

ثم يضيف قائلاً :

(وإن استقراري في القاهرة قد حال دون زيارة بغداد ، على أن الفكرة لا تزال قائمة ، آمل أن نمضي هذا الصيف في بيروت أو حلب لوضع خطة عملية للقيام بهذا البحث في الخريف ، وأشعر منذ الآن بصعوبة العمل إذا لم نتعاون ونشترك معاً في كتابة هذا الكتاب الذي سيكون من أطرف كتب

الدرس والتراجم ، إذا كتب له الصدور » ...

ولكي أحقق الفكرة ، وأخفف شيئاً من عبء التكاليف المادية ونفقات سفر الكيّالي إلى بغداد واقامته هنا بعض الوقت للمشاركة معه بالتأليف . ـ لاسيما وأنا الآخر ليس بامكاني أن أقوم بنفقات الكيالي مدة اقامته ـ رأيت أن أكلم خالد الشواف ـ وكان حينذاك مديراً للثقافة بوزارة الاعلام ـ بوجوب اتخاذ المقتضيات اللازمة لاستضافة الكيالي من قبل وزارة الاعلام مدة اقامته في العراق للشروع بتأليف كتاب باسم (الأدب المعاصر في العراق) ولست أدري لِمَ تلكأ خالد الشواف ؟ ولم يجرأ على أن يقدم اقتراحاً بمثل هذا إلى وزير الاعلام ؟ ولو كان قد فعل لَمَ الأمر ـ على ما أظن ـ ولكان اليوم بين أيدينا كتاب يصلح أن يكون مرجعاً أكاديمياً أشبه بالموسوعة للأدب العراقي المعاصر وأدبائه المعاصرين ، وكل ما اقترحه عليّ الشوّاف هو أن أكتب للكيالي بأن يطلب من أية مؤسسة رسمية في سورية كوزارة التربية أو وزارة الاعلام ، أو المجمع العلمي ، أو احدى النقابات أن تكتب إلى وزارة الاعلام العراقية بعزم سامي الكيالي على السفر إلى العراق ومكثه هناك شهراً أو شهرين بقصد تأليف هذا الكتاب بالمشاركة معي ، والسؤال من وزارة الاعلام العراقية عن نوع المساعدة التي تستطيع وزارة الاعلام أن تقدمها للكيالي ، وقال الشوّاف وحينذاك سيستطيع أن يعلّق على مثل هذا الكتاب ويقدمه للوزير فتصدر هناك دعوة للكيالي بقدومه إلى العراق ونزوله ضيفاً على الاعلام ؟!!

والحق أن اقتراح الشواف هذا لم يكن صائباً بالنسبة لشخصية كشخصية الكيـــالي خصوصاً وان الكيالي لم يطلب مثل هذا مني ، وقد يمتنع عن الاستجابة إذا علم أن هناك مسعى لاستضافته من لدن وزارة الاعلام عن هـــذا الطريق وهـــذا ما كنت أستنتجه مما أعرف من إبائه وسيرته العامة ، ولكن كان علي أن أخبره بأسلوب خاصّ ، وأعلمه بأني لم أستسغ

مجيئه إلى العراق ومكثه مدة شهر أو شهرين على حسابه ، وهو كما أعرف ليس من أرباب المال والثروة ، لذلك رأيت أن أطلع خالد الشواف وهو شاعر أديب يعرف مكانة الكيالي ومنزلته ، ولكن (الشواف) كان على رأيه من حيث (الروتين) وهو يتمنى لو أن الكيالي أخبر احدى المؤسسات الثقافية السورية بعزمه لتخبر هذه المؤسسة وزارة الاعلام العراقية بذلك .

وقد سعيت أن يكون كتابي للكيالي مليئاً بالتحفظ ومراعاة الخاطر وأشرت إلى المسألة كما لو أنني أشير إلى أمر اعتيادي مألوف ، ومع ذلك فقد جاء جوابه مشحوناً بالاستنكار والاباء وهو الذي كنت أتوقعه ، وفي إثباتي لهذا الجواب هنا صورة من صور الأدباء الأباة المترفعين الذين يعرفون معنى عزة النفس وكرامتها اذ يقول :

« ... لقد قرأت رسالتك باهتمام ، وشكرت مسعاك ، وسرني أنك فاتحت الأخ الشاعر الصديق الأستاذ الشواف ، ولم تجعل للموضوع صبغته الرسمية ، ولعلك عرفت نهجي من رسالتي ، فلا أكرر ما قلته ، فأنا أبعد الناس عن الضجيج ، وعن هذه الأساليب التي يلجأ اليها الكثيرون ، والتي قاسى منها العراق الشيء الكثير ، وكم أساء طغام إلى الأدب ، وإلى الفكر باسم الأدب والفكر ، ونحمد الله أن في وزارة الثقافة أدباء يميزون بين الأصيل والدخيل ، أما من جهتي فيصعب عليّ جداً أن أكلف هيئة رسمية أو علمية أن تكتب بشأني ، فلست نكرة والحمد لله ، وحافزي إلى الموضوع أن أكتب عن فكرة مباركة يجب أن يكتب عنها بانصاف واسهاب ، ولا أطمع بشيء ، ولم يخطر ببالي هذا الموضوع الذي تفضلت مشكوراً فأثرته دون علمي ، فاذا جاءت الدعوة — وأنا لا أنشدها — بصورة غير مباشرة كان بها ، والا تحملت النفقات على قدر طاقتي دون أن أكلف أحداً فلساً واحداً ، فقد أنفقت كل ما أملك على الأدب ، ولن أتلكأ في هذا الموضوع الذي يهجس به خاطري ، وآمل أن يصدر إلى حيّز الوجود »

ومن سوء الحظ لم أوفق إلى دعوة الكيالي على نفقة وزارة الاعلام ، وكنت أسوّف وأؤجّـــل النظـــر في تأليف الكتاب بعد أن كنت قد وافقت في مشاركته بالتأليف ، وكان الكيالي يستشعر مني هذا التسويف وتأجيل الشروع بالتأليف كلما اجتمعنا بسوق الغرب أو تبادلنا المكاتبة ، وهو لا يعلم ان السبب كله هو عجزي عن إيجاد الوسيلة الكريمة التي تضمن له الاقامة في العراق دون أن يتكلف شيئاً من النفقات حتى توفي والفكرة لم تبارح خاطره ولم تبارح خاطري .

— ٦ —

وكان الكيالي كثير التفقد لي ، فلا يكاد يبلغه خبر عن اعتلال صحتي ، أو ضائقة تحل بي إلا ويبادر إلى الاستفسار عني بلهفة وحرارة ، وأحمد الله انني سعيد جداً بطائفة غير قليلة من هذا النحو من الأصدقاء ، واني لا أنسى بعض هؤلاء الذين عرضوا عليّ مساعدتهم يوم أغلقت مكتب عملي ، واضطررت إلى بيع بيتي بسبب وفاة زوجتي التي صعب على بناتي أن يرين مكانها خالياً في البيت الذي توفيت فيه ، واشتريت بيتاً كلفني أكثر مما أستطيع ،فكان في مقدمة هؤلاء الدكتور بدوي طبانة الذي كتب لي من ليبيا بأن لديه مبلغاً يزيد عن حاجته — وهو كفيل بأن يسدّ هذا المبلغ حاجتي ، وينقذني من ديون البنوك وأرباحها ، وأنا أعرف صدق الدكتور طبانة ووفاءه ، مثلما أعرف علوّ قدره في ميدان العلـــم والأدب والمعرفة ، وقـــد عرض عليّ الكيالي في صيف ١٩٧٣ مثل هذه المساعدة مـــع علمي بخلو يده من أي شيء يسمى فلوســـاً ، ولكني كنت أعلم ان له رصيداً من الاعتبار عند أصدقائه القادرين يمكّنه من ذلك وأكثر ،وما دمت في ذكر هذا اللطف والعطف الخالص فاني لأذكر باعتزاز ما عرضه عليّ الطبيب الاختصاصي الشهير الدكتور مظفر الشذر ، والجراح الكبير الدكتور

محمد صالح عبد المنعم فاعتذرت من الجميع شاكراً ما دمت أستطيع أن أسدّ هذه الحاجة من البنك ومن بيع ما كان لزوجتي وبناتي من الحلي ، وبعض موروثاتنا ، وأنا على الرغم من اعتذاري ولا سيما من الدكتور طبانة الذي ظل يلاحقني بالحاحه فاني أشعر كأني استعملت نقودهم ووفّيت بها ديوني ، ولا أزال أحس احساس المطوق بأفضالهم والناهل من احسانهم واحسان سامي الكيالي الذي كان مستعداً لتوريط نفسه بالدين ليخلص صديقاً له من ورطة الدين؟! وهو الذي قلّ وجود مثاله في هذا الجيل بين النـــاس .

وانقطعت مكاتيبي مدة طويلة عن الكيالي بسبب وعكة (النقرس) المعروف (بداء الملوك) والتي لا تزال تعاودني في السنة مرتين أو أكثر ولكنها بصورة أخف بسبب (الأيندوسيد) و (الزايلوريك) ، وقد سبق لاحدى الصحف أن قالت عني قولي :

« لماذا ليس لي من الملوك إلا داؤهم ، في حين أن العقارات ، والثروات والقصور من أنصبائهم وحدهم » .

وقد قرأ الكيالي في هذه الأثناء بيتين من المبالغات الشعرية للشاعر الأديب طالب الحاج فليّح ، وكان قد نشرهما في مجلة (الضاد) عن هذه الوعكة التي حالت بيني وبين مكاتبة الكيالي واللذين يقول فيهما :

نلت بالعلم يا (خليلي) مقامـــاً لم ينله بين الورى إنسان !!
أو (داء الملوك) فيـــك وأولى أن يرى في يمينك الصولجان ؟

فكتب لي الكيالي يقول :

« ... وبعد : فقد وصلتني أخبارك بعد لأي ، وكنت أعلّل انقطاع رسائلك بسبب سفرك إلى بقعة نائية تبحث عن مصادر ووثائق للموسوعة الفريدة التي تزداد قيمتها وعظمتها كلما أضفت اليها مجلداً جديداً ،

وما كان يخطر ببالي انك تقاسي ألم النقرس ـ داء الملوك ـ وليس لك من تعاظمهم ، وبذخهم ، ورعوناتهم إلا العناء ، شفاك الله ، وحسب الأديب ما يعانيه ، وما يقاسيه رغم عطائه الوفير ، وبذله ، وتضحياته في سبيل الفكر والأدب ، وأنا أرجو أن تكون اليوم في أتمّ صحة ، وقد زالت أعراض الداء نهائياً ، وما أحوج الأمة الآن إلى هذا الانتاج الذي يربطنا رباطاً وثيقاً بتراثنا الخالد الذي أخذت بعض الأيدي الأثيمة تعمل على تشويهه وتهديمه » ...

وقد قصد بالانتاج قيامي بتأليف (موسوعة العتبات المقدسة) فقد كان شغوفاً بما صدر منها حتى لقد حدثني عن عزمه بأن يضع عن كل جزء رسالة مستقلة تتضمن تلخيص ما تضمن ذلك الجزء تعطي القارىء فكرة تاريخية موجزة عن كل عتبة من العتبات التي ورد ذكرها في هذه الموسوعة وراح يبشر بها ، ويعدّها من الأعمال الجبارة في عالم التأليف ، وان هذه الموسوعة التي يشير اليها الكيالي لم يصدر منها غير ثلاث عشرة مجلدة تتناول تاريخ مكة المكرمة من أول تعميرها ، والقدس الشريف ، والمدينة المنورة ، والنجف الأشرف ، وكربلاء ، والكاظمين ، ومشهد الرضا ، وسامراء ، ووقف تأليفي هنا بسبب ظروف خاصة وأنا في منتصف الطريق أو دون منتصف الطريق في تأليفها ، وكان الكيالي كثير التحدث عنها ، وانه ليذكرها ويطريها في كل مناسبة في مجالسه ورسائله ، وقد كتب لي مرة ، انه يريد أن يوصلني بخير الدين الزركلي ، فقد جرى عنده ذكر هذه الموسوعة ، وهو يحب التعرف بي ، وهذه رسالة من بعض رسائله الكثيرة التي تشير إلى ما كان لهذه الموسوعة من وقع في نفسه اذ يقول :

« ... ولقد أكبرت همتك وجهدك ، وجلدك ، ففي كل حرف من حروف هذه الموسوعة أثر كبير من أدبك وعلمك واخلاصك للرسالة العُلوية التي تركها السلف ، وقد جمعت بين ما تركوه، وما كتبه المعاصرون،

ولاسيما المؤرخون ، والمستشرقون الغربيون ، فجلت (الموسوعة) الكثير من الآراء ، والاتجاهات ، وان عملك هذا يا أخي لهو من الأعمال الفريدة الفذة التي لا يستطيع القيام بها إلا الهيئات العلمية ، ولكن ما تحليت به من ثقافة واسعة ، وايمان بقدسية الرسالة ، وصبر الموسوعيين من أئمة العلماء هو الذي عبّد لك هذا الطريق الوعر الذي سلكته ، ومهّدت للكثيرين ممن نعموا بهذا الاشراق الذي يغمر هذه العتبات التي تضمّ في مثواها الأئمة والهداة الذين أناروا لنا المصابيح التي نهتدي بنورها في دجنّة هذه الأيام وظلماتها ، وإن هذه الموسوعة لتزدان بأبحاثكم القيّمة ، وبهذا التحقيق الواسع الذي لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا أحصاها ، ثم أسلوبكم المشرق الذي يشد القارىء إلى متابعة الموضوع وتلاوته مهما استعصى وتشعّب » ...

فكثير من مثل هذا الذي ورد في رسائل الكيالي الذي يحول بيني وبين نشره التخوف من الظنون بأني قد أكون متجاوزاً في ذلك حدود تصوير أفكار الأدباء وآرائهم العامة والخاصة إلى التباهي والعجب بنفسي وبملكاتي الأدبية إذا صحّ أن تكون لي ملكات أدبية .

— ٧ —

وكان الكيالي من المدعوين هو وسليم الزركلي كممثلين لأدباء سوريا في مؤتمر الأدباء الخامس المنعقد ببغداد ، وفي هذه الزيارة أتيح له بما بذل سالم الألوسي من مسعى أن يطوف بمعظم معالم العراق التاريخية ولاسيما ما كان منها في بابل وفي الموصل و (الحضر) على الأخص ، واعتذر بعد ذلك من المشاركة في مهرجان (المربد) في البصرة ، وقد كتب لي بعد رجوعه ولم أوفق لرؤيته وقت وجوده في العراق ، لقد كتب لي انه سئم هذه المؤتمرات ، وهو من الذين يكرهون الضجيج حول أسمائهم ، ويقول

انه قد عاش طوال حياته الأدبية في جو من الصمت البعيد عن كل مظاهر التهويل التي يلجأ اليها الكثيرون ، وهو حين يمرّ باستعراض صفحة من حياته يشير إلى صبيح الغافقي ، الذي كتب عنه مرة كلمة في احدى الصحف وبالغ في طول عمره وعدّه يومذاك ممن تجاوز الثمانين على ما أذكر في حين أنه كان من مواليد ١٨٩٨ وقد توفي في ١٩٧٤/٢/١٧ وحتى حين وفاته لم يكن قد بلغ الثمانين وهو يطري صبيح الغافقي ويعده من أكثر الصحافيين صدقاً ونشاطاً إلا في تعيين عمره ! » ...

* * *

لقد كان الكيالي يشكو من عوارض مختلفة أهمها ضغط الدم ، وعوارض القلب ، ومنذ سنة ١٩٦٧ بدأت تنتابه هذه العوارض في فترات أطول ، وقد وجد في مراجعة الدكتور زهر بسوق الغرب حين كان يجيء في الصيف بعض الراحة ، وأوصاه الدكتور زهر أن يجري تخطيطاً دقيقاً للقلب .

* * *

وفي آخر زيارة لسوق الغرب أدهشني بما كان يبدو عليه من ضعف وذبول عجيب ، وقد تناول عندي الغداء هو ووديع ديب ، وعلى أن أمره قد همني كثيراً فلم أحبّ أن أسأله عنه لئلا أثير في نفسه القلق أو الفزع ، ولكن الخوف على مصيره كان قد استحوذ على نفسي وأقلقني ، ولم أكن واهماً اذ لم يعد إلى حلب حتى علمت بأن حالته قد ساءت ، ومما زاد في علته كونه قد سقط وأصيب برضوض أو كسور ، فلزم سريره لا يستطيع التحرك بسبب التهاب فقرات ظهره التي أوجبت عليه ملازمة السرير ملازمة خاصة ، وقد كتبت للمرحوم خليل هنداوي كما كتبت لعبد الله يوركي أسألهما عنه ، وجاءني منهما بأنه في أمان ، وقال لي كل منهما بأنه يزوره في بيته ولم ينقطع عن زيارته وان صحته لا تدعو إلى القلق ، ثم

كتبت إلى عبد الله يوركي راجياً منه بأن يقوم بزيارته خصيصاً نائباً عني في تفقد صحته وابلاغه تمنياتي الطيبة ودعائي له بالشفاء العاجل ففعل عبد الله يوركي ، وكتب لي مرة أخرى يطمئني عليه ، ولكنه ما كاد يمرّ بعض الوقت حتى صكّ أذني صوت الناعي يشير إلى أن روح هذا الأديب الكبير الذي خدم الانسانية جمعاء ، وخدم العربية ، تاريخاً ، وأدباً وفكراً ، وخدم حلب الشهباء بصورة خاصة قد سمت إلى ملكوت بارئها فتحقق في هذا السمو معنى اسمه في حياته ومماته ...

* * *

لقد أخذوا على الشاعر المهجري أمين مشرق قوله في رثاء أحد المتوفين :

لو يفتدى حكم الإله رأيتنا نفديك بالأرواح والأبدان

وعدّوا قوله هذا ضرباً من ضروب المبالغة غير المقبولة ، وهو حقاً من ضروب المبالغة لو كان المرثي واحداً من ناسنا الذين نصبّحهم ، ونمسّيهم كل يوم ، اما وان هناك ضرباً معدوم النظير من حيث الخلق ، والفضيلة ، ومن حيث المواهب والملكات ، وأنت لا ترى صورهم ، ولا تتلمس أفكارهم ، ولا تتحسس بشيء مما جبلوا عليه من الخير فهذا مما لم يمرّ بخاطر أولئك الذين يؤاخذون (أمين مشرق) على رثائه ، فليس من المبالغة في شيء لو تمنيت أن يفتديهم العارفون بقدرهم ، والعالمون بقيمتهم في في دنياهم ، بالأرواح والأبدان ، ويقولون فيهم (ولكنه بنيان قوم تهدما) والحق أن سامي الكيالي قد كان من ذلك الرعيل ومن القلة المختارة في عالمه ومحيطه .

* * *

وكثيرون أولئك الذين يبحثون ويكتبون ، وكثيرون أولئك الذين يملؤون الدواوين بالشعر ، والمكتبات بالمؤلفات ، ولكن الذين كانوا يذيبون أنفسهم فيما يكتبون ، ويحرقونها شموعاً ليستنير بها الآخرون ، ويتخذون من أنفسهم قدوة في خدمة الانسانية لينتفع بوجودهم الناس وليكونوا خير مقتدى في دنياهم من حيث العمل ، والسيرة ، والبحث ، والكتابة ، قليلون ، ومن هذا القليل كان سامي الكيالي .

* * *

فم دافىء لا يعرف الكلمة النابية ، ولسان ذلق يحسن التعبير عن عواطفه الصادقة ، ووجه بشوش يشيع البهجة في نفوس محدثيه ، وهو بعد ذلك واقعي فيما يقول ، ويفعل ، يعطيك من نفسه أكثر مما تتطلب من الاهتمام والاحترام ، وقد أنسى الكثير من الصور في دنياي أما سامي الكيالي فهو من الذين ستظل صورهم ماثلة أمام عيني ، وستظل الدموع منهمرة من عيني كلما مرت بخاطري في خلوتي تلك الأيام المشحونة بالذكريات الحلوة الجميلـــة .

* * *

وشيع تشييعاً جليـــلاً في حلب ، ورثاه على قبره خليل هنداوي رثاء حاراً بليغاً ، كما رثاه عبد الله يوركي بقصيدة من خيار الشعر ، وقد كرّمته (حلب) بحفل تأبيني أقيم مساء الخميس من ٤ أيار ١٩٧٤ ، وأصدرت مجلة (الضاد) باسم صاحبها عبد الله يوركي حلاق عدداً خاصاً

ضم جميع ما قيل عن سامي الكيالي من شعر ونثر ومن عروض لترجمته .

* * *

وهكذا وفد سامي الكيالي على ربه ، مجاهداً في ساحة العلم والأدب ، طاب الله ثراه وجزاه عن العلم والأدب والانسانية خيراً .

كيف عرفت
الشيخ عبد المنعم العكام
١٩٠٠ ـ ١٩٧٤

ـ ١ ـ

كان العكّام من طلاب المدرسة الرشدية في العهد العثماني في النجف ، وكنت أنا من طلاب المدرسة العلوية الأهلية التي ينفق عليها العلماء لتغذية أبنائها بالعلوم العصرية ، وكان هو من زملاء السيد حسين النقيب ، والشيخ رؤوف الجواهري ومضيـــاء الكيشوان في تلك المدرسة ، وأنـــا لم أعرفه وأعرف هؤلاء إلا بعد عهد التلمذة المدرسية ببعض السنين ، وقد أغلقت المدرسة الرشدية العثمانية بعد انتهاب كتبها ، ورحلاتها ، وأثاثها على أثر ثورة النجف في وجه العثمانيين في أثناء الحرب العظمى الأولى وطرد السلطة العثمانية من النجف نهائياً ، وقيام الثوار بادارة شؤون المدينة بشكل شبه فدرالي مثير للضحك ، فتبعثر طلاب المدرسة الرشدية ، وولى كل واحد وجهه شطر الجهة الملائمة لظروفه وأحواله ، أما المدرسة العلوية فقد بقيت تعالج سكرات الموت حتى نهاية الحرب العظمى الأولى وماتت بسبب الضيق الاقتصادي الذي خلقته الحرب ، وتضاؤل ما كان ينفق عليها العلماء والمتبرعون من الحقوق الشرعية ، ولما كانت طبيعة أسرتي طبيعة علمية ، واتجاهها كان اتجاهاً علمياً في الغالب ، كان عليّ أن أتلقى الدروس المألوفة لطلاب العلم ، من العلوم العربية ، والمنطق على أن ألج بعد ذلك باب الفقه

والأصول منتهجاً نهج طلاب العلم في النجف الذي لم يزل هذا النهج سائر المفعول لحد ما فيها .

وكان عبد المنعم العكام بعد خروجه من المدرسة الرشدية قد انتهج نفس هذا النهج كما كان ينتهجه أبوه الشيخ محمد العكام ، والفرق بيني وبين العكام لم يكن في السن وحدها ، فهو يكبرني ببعض السنين ولكنه كان في الدراسة ، فقد أعدّ نفسه منذ أن خرج من المدرسة الرشدية ليكون فقيهاً في الدين ، لذلك اعتمر هو العمامة ، وانكبّ على الدرس انكباب العشاق الوالهين . وانغمس في زمرة الطلاب المتحمسين انغماساً كلّياً .

وإلى هنا وأنا لا أعرف عبد المنعم العكام . ولا أعرف خبره ، وبدأت أنا بدرس المقدمات التي لم أتعلم منها في المدرسة العلوية إلا أقل القليل، وكان أول شخص درست عليه هو الشيخ علي الدشتي ، ثم انتقلت منه إلى الشيخ محمد رضا الحساني ، ثم الشيخ عبد الهادي السماوي ، ثم السيد علوان السيد سلمان ، أو قل السيد علي السيد سلمان ، وكنت أحضر هذه الدروس في مدرسة (الأخوند) الكبرى ، حيث يقيم الشيخ علي الدشتي ، والسيد علي السيد سلمان ، وهناك تعرفت بالسيد سعيد كمال الدين ، والسيد حسين كمال الدين ، والسيد محمد علي كمال الدين عن كثب ، وهناك عرفت السيد سعد صالح عن كثب أيضاً ، وكل هؤلاء كانوا يدرسون على أساتذة يسكنون هذه المدرسة ، وكان للسيد سعيد كمال الدين غرفة في جناح خاص منها كانوا يطلقون عليها اسم غرفة الأحرار لما كان يجتمع فيها دعاة الحرية من المتفتحة أذهانهم ، والمتتبعين للأساليب العصرية من قراء الصحف والمجلات ، وتاريخ الحركات الوطنية .

ثم حضرت مدرسة (الأخوند) الصغرى حيث يقيم الشيخ عبد الهادي السماوي ، والشيخ محمد رضا الحساني اللذين ألحّا عليّ بأن تكون اعادتي للنحو عن طريق ألفية إبن مالك دون غيرها ، وقد نزلت على ارادتهما ،

وفي عصر كل يوم كنت أقصد (الصحن) الشريف للمباحثة كما كانوا يسمونها ، وأقضي شطراً من النهار والليل مع طائفة من الرفاق والأصدقاء ، وكنت أختلف إلى حلقات مختلفة من حيث المزاج ، وكان يتألف معظمها من السيد جعفر الكيشوان ، والسيد علي الجصاني ، والشيخ محمد رضا المظفر ، والسيد محمود الحبوبي ، والسيد أحمد الهنـــدي ، والشيخ مهدي الجواهري (الشاعر) وحسن الجواهري ، والسيد أحمد جمال الدين ، ومحمد حسين شومان ، وكل هؤلاء كنت أجتمع واياهم في حلقات متفرقة ، ولكن قد تجمع الحلقة معظمهم في بعض الأحيان ، وقد يحضر هذه الحلقات بالمصادفة السيد يوسف البهبهاني ، والسيد محسن النقيب الذي تخرج فيما بعد في المدرسة العسكرية وصار ضابطاً واستشهد في معركة الفلوجة في ثورة رشيد عالي الكيلاني ، وغير هؤلاء كثيرون لا تحضرني أسماؤهم الآن .

وهنا وبين هذه الحلقات المجزأة في الغالب ، والمجتمعة معاً في بعض الأحيان في الصحن الشريف عرفت الشيخ عبد المنعم العكام ، وما لبثت حتى أحسست بالفرق بينه وبين الآخرين الذين درست عليهم ، وكان العكام قد تقدم في الدرس تقدماً محسوساً ، اذ كان قد انتهى من العلوم العربية في دراسة النحو والصرف ، والعروض ، والمعاني والبيان ، وعلم المنطق ودخل دراسة الفقه والأصول ، وبدأ يحضر من الأصول (الكفاية) للملا كاظم الخراساني ثم يحضر بحث الشيخ أحمد كاشف الغطاء ، فانتقلت اليه لأدرس (المطوّل) عليه ، فألفيت فيه أستاذاً متمكناً ، لبقاً ، يحسن التوجيه ، وضرب الأمثال الخارجة للدرس ، والتي قلّ من يحسن تحريرها ، وزاد تعلقي به كونه يعرف ما كنت أعرف مما تلقيناه في مدرستينا الرشدية والعلوية من الدروس الحديثة كالحساب والهندسة والجغرافيا ، والتاريخ ، وكلمات ضئيلة من الفرنسية ، أما زملائي الذين عرفتهم في المدرسة العلوية فقد تشتتوا في جهات مختلفة ولم أعلم إلا عن حال القليل منهم .

وهنالك شيء آخر حبّب لي العكام وزاد تعلقي به ، وهو ظرفه ، وحبّه للنكتة ، وشعره الجاد منه ، والهازل الذي كان يرتجله في أثناء الحديث ، وما لبثت دراستي عليه – باستثناء العروض الذي اختلفت معه في أصوله – أن تحولت إلى صداقة رصينة ، لاسيما وقد كان فارق العمر بيننا قليلاً ، والذوق متقارباً من حيث الظرف ، وحب النكتة .

والصحن الذي نجتمع فيه عصر كل يوم هو صحن الإمام علي (ع) وقد كان في ذلك اليوم يحكي المساجد في عهد رسول الله وما بعده من عهود المسلمين ، فقد كان عبارة عن مدرسة واسعة ، كما كان مركزاً للوعظ والارشاد . ومأوى للغرباء ، ومتنزهاً لسكان المدينة الذين لم يجدوا محلاً تسكن اليه نفوسهم ، وتتمتع عيونهم ببهجة النقوش الكاشانية العجيبة ، والقبة والمنارتين الذهبية ، وما توصلت اليه الريازة ، وفن النقش والكتابة على المعادن ، وعلى الكاشاني المحيطة بجدران الصحن من كل أطرافه وزعموا أنها تحوي كل آيات القرآن منقوشة بالخط الثلثي الجميل ، والثريات المدلاة من سقوف الغرف المحيطة بالصحن من جهاته الأربع ، والتي كانت هذه الغرف – وقبل أن تبنى المدارس وتتكاثر – مسكن طلاب العلم الغرباء ، وأنواع السرج من المعادن والبلّور القائمة على قبور العلماء وقبور بعض الملوك من الإيرانيين والأفغان والهنود والزنجباريين في داخل غرف الصحن التي صارت مدافن بعد أن هجرها طلاب العلم متنقلين إلى المدارس التي بناها العلماء في مواضع متعددة من المدينة، ثم ان الصحن بعد ذلك هو المحل الذي يضربه البعض لبعضهم للالتقاء في موعد معيّن ، وهو سوق كبير تجد فيه كل شيء أكثر مما تجده في(خان الخليلي)في القاهرة،وهنا في الشمال الشرقي من الصحن جمع من طلاب العلم يتحلقون حلقات حلقات ، ويقتعدون الأواوين ، والدكك وهم يغطّون الجانب الكبير من هذه الجهة من الصحن الواسع ، حين ينتهون من الدرس صباحاً ، وقبيل ابتداء صلاة المغرب عصراً ، ولقد مرّ على النجف وقت بلغ فيه عدد طلاب العلم من المعممين

عشرة آلاف طالب على تواتر النقل كان معظمهم من الغرباء يؤمّون النجف من مختلف الجهات ليتفقهوا في الدين ويعودوا إلى بلدانهم أئمة ، ووعاظاً وأساتذة وعلماء ، وقد سبق أن جاء وصف الكثرة من المعممين على لسان الشيخ علي الشرقي في محل آخر من هذا الكتاب أن قال :

بلـــــدي رؤوس كلـــــه أرأيت مزرعة البصلْ ؟

وقد يقصد النجف زوار يأتون لزيارة ضريح الإمام (ع) في مواسم معينة، وهناك يكتسح هؤلاء الزوار كل مجالس الجالسين في الصحن حتى لم يبق مجال قدم واحدة للمستطرق .

وهناك محل خاص من الصحن وأطرافه يجلس فيه عمال بناء ، وحمّالون وملاؤون يملأون الأحواض في البيوت بالماء الذي يسحبونه من بئر البيت وهم يعرضون أنفسهم للعمل في كل صباح وكل مساء في هذا المكان .

وفي حلقة بيضوية أو مستطيلة الشكل أناس يعرفون (بالمدّاحين) يجتمع حولهم الأطفال والنساء والقرويون من الزوار وقد فرشوا في وسط الحلقة عباءة لهم،وهم مكشوفو الصدور يلطمون صدورهم بأكفّهم في ضرب منسق ، ينشدهم واحد منهم مدائح ومراثي للأئمة بالزجل والشعر العامي فيردد أصحابه مطلع القصيدة المنغمة كما يفعل (الكورس) عندما ينتهي المطرب والمغني من مقطع غنائه ، أما صوت الضرب على الصدور فهو يقوم مقام الجوقة والموسيقى فيرمي لهم الناس فوق العباءة المفروشة بما تجود به أنفسهم من قطع النقود النحاسية .

وكم يتفق أن يجمع أحد الدراويش الناس حوله في هذا الصحن ، وأمامه صندوق خشبي مغلق ، وبداخله عدد من الحيات والأفاعي غير السامّة ، ولكن معظم الناس والعامة منهم خاصة لا يعلمون أن هنـــاك حيات غير سامة ، ويبدأ هذا الدرويش بشرح لمزايا أحجبة وأدعية يحمل

مئات منها يخرجها من عبّه ملفوفة بمنديل من الحرير وقد طبعت عليها طلاسم فيها بعض الكلمات والحروف يقول الدرويش ان من يحمل نسخة منها فهو آمن من لدغ العقارب والأفاعي، وللبرهنة على ذلك فهو يدعو أحد الجالسين في الحلقة أو الواقفين المتفرجين ، ويضع في جيبه نسخة من الحجاب المطبوعة بوساطة (قالب) خشبي ثم يفتح الصندوق ويخرج منه حيّة أو حيتين . ويضعهما في عبّ حامل (الحجاب) ثم يعرض تلك الأحجية للبيع بمبلغ زهيد يستطيع الدرويش أن يعيش به شهراً وأكثر من شهر عيشاً رضياً لكثرة ما يبيع من هذه الطلاسم . وهؤلاء الدراويش يأتون من جهات مختلفة ولا سيما إيران ، وقد يعقدون هم حلقات في الصحن الشريف على غرار حلقات المداحين ولكن دون لطم على الصدور وانما ينشدون فيها من الأشعار الفصيحة العربية والفارسية انشاداً يجتذب اليه النفوس .

أما صفوف المكدين على أبواب الصحن فحدث عنها ولا حرج ، ويطوف الباعة حتى باعة المرطبات والسقاؤون على الناس في الصحن ، ولكل منهم نغمة خاصة تجتذب النفوس ، هذا إلى جانب العارضين مبيعاتهم من (المسابح) وتربة الحسين (ع) ، والأقفال ، والمفاتيح ، وعلب السكاير ، والعلائق ، وعدد كبير من السجـــاد الايراني ، والبسط ، والأعبثة ، والألبسة (المستعملة) يطوفون بها بين الناس عصر كل يوم،حتى إذا صار وقت صلاة المغرب،فرشت كل جهة من جهات الصحن بفرش وحصر خاصة بالصلاة، وإذا بعشرات الأئمة، وقد شغل كل واحد منهم جهة معينة خاصة به وبالمؤتمين به حتى يموت ، فاذا مات الامام ورث محله إمام آخر ، واقتدى به المقتدون ، وقد يكون الإمام غير أهل للصلاة بالناس عند الشيعة ، لأن من شروط الإمام عند الشيعة هو العدل أي أن يكون معروفاً بالعدل وإلا بطلت الصلاة خلفه ، وقد يتحرج البعض فلا يصلي خلف إمام متزوج بغير زوجة واحدة ، لاعتقاده بانتفاء العدل عنده مصداقاً لقوله تعالى (وإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة ولن تعدلوا) ويرى البعض ان من

اللزوم أن تجيء النية خلف إمام الجماعة بقوله (أصلي خلف هذا المؤمن العـــادل) .

- ٢ -

والمصلون خلف هؤلاء الأئمة إما أن يكونوا من تلامذتهم فهم واثقون بتقوى أساتذتهم وعدلهم ، أو ممن يعرفونهم عن طريق الشهرة ، والجوار وغير ذلك فيقتدون بهم ، وهناك ناس يصلّون خلف البعض رياء لمصلحة تخصهم كأن يستعينوا بهذا الإمام في قضاء حوائجهم والافادة مما يحصلون عليه من الحقوق الشرعية على أيديهم ، وقد يبلغ بهم الحال أن يصلوا خلف هذا الإمام حتى إذا خلوا بأنفسهم أعادوا صلاتهم !! ...

وحين يؤذن المؤذنون في الصحن الشريف ، وينادون قد قامت الصلاة ارفضّت تلك الحلقات من الناس الجالسين هنا وهناك ويخفّ البعض للصلاة جماعة وراء أحد العلماء أو يصليها فرادى ، والصلاة جماعة عند الشيعة ليست واجبة في مثل هذه الأحوال وإنما هي مستحبة وأكثر ثواباً .

ومن أشهر الأئمة في تلك الأيام المعروف بالزهد والتقوى والفقر المدقع كان الشيخ (علي رفيش) وقد كان عدد المقتدين به في الصحن أكثر من أي عدد آخر من المصلّين حتى المصلين خلف المرجع الديني الأكبر ، فاذا ركع الشيخ علي رفيش أو سجد ألفيت للصلاة روعة عجيبة حين ترى عشرات من الصفوف الطويلة راكعة أو ساجدة مرة واحدة وعلى نسق واحد ، بحيث يوحي لك هذا النسق بشيء كثير من الرهبة والروحانية حتى وإن لم تكن من المعتادين على الصلاة .

والشيخ (علي رفيش) هذا يسكن محلة (الحويش) من النجف الأشرف ، وما سكن فيها أحد من وجهاء أهل العلم والأدب في تاريخ النجف إلا القليل اذ معظم رجالات العلم والروحانيين والمراجع الدينية يسكنون ــ ولا

يزالون ـ محلة (العمارة) في الغالب بدون قصد ، والسيد محمد سعيد الحبوبي الذي أكسب محلة الحويش شهرة في حياته ، قد سبقه إلى اضفاء هذه الشهرة على الحويش سكنى المرجع الديني الكبير الشيخ محمد طه نجف .

وفي ذم محلة الحويش يقول السيد جعفر الحلي وكان يسكن الحويش وقد مرت الاشارة إلى ذلك في أحد أجزاء هذا الكتاب ، يقول :

ان عيشي في الحويش ْ نكد أسوأ عيش ْ
بين (عباس خميس ٍ) و (عليّ بن رفيش)

وحين لامه السيد محمد سعيد الحبوبي على قوله دون التفاته إلى سكنى السيد محمد سعيد الحويش قال السيد جعفر : ولكن الذي نقل لك البيتين يا سيدي لم ينقل لك البيت الثالث الذي استثنيتك فيه وهو :

لكن المولى (سعيد) لم يزل كهف قريش

ولم يخف على الحبوبي أن السيد جعفر قد ارتجل هذا البيت ارتجالاً .

والأئمة الذين يأتون للصلاة بالجماعة تكون لهم كبكبة ، وقعقعة من الحواشي التي تحيط بهم . ومن الذين يمشون خلفهم لاسيما إذا كانوا من المراجع الروحانية ، وقد شاهدت أنا الكثير منهم يمتطون المطايا والحواشي خلفهم حتى إذا بلغوا باب (الصحن) نزلوا من أظهر حميرهم وتلقاهم الناس بالصلوات على محمد ﷺ مكررة معادة حتى يصلوا إلى محل صلاتهم من الصحن الشريف ، أما الشيخ علي رفيش فكان يرفض أن يماشيه أو يمشي خلفه أحد ، وهكذا كان الشيخ (علي القمي) وكان الشيخ علي رفيش في أشد ما يكون فقراً ولكنه كان نظيف الملبس أنيقاً جداً .

وقد سبق هؤلاء في السير إلى الصلاة وحده وبدون حاشية وأبهة المرجع الديني الكبير الشيخ (محمد طه نجف) وحتى حين كفّ بصره كان أكثر التزاماً بالسير وحده ، مستعيناً بالعصا في طريقه بين البيت والصحن الشريف

والمعروف عنه انه كان أديباً وكان ظريفاً حلو المعشر ، وقد نقل عن فتاتين دعوبتين رأتاه في الطريق ولم تعرفا انه المرجع الروحاني الأكبر فأرادتا العبث به كشيخ أعمى لقيتاه في الطريق فدنتا منه وقالت له احداهما :

ــ يا عمّي الشيخ نحن شابتان تخاصمنا وارتضيناك حكماً لتحكم بيننا وتعيّن من منّا أجمل من الثانية ؟

فقال لهما وهو يبتسم . قال : إن الاعتماد يا بنيّ ليس على النظر وإنما هو على الذوق ، فما دام الانسان لا يستطيع أن يذوق الشيء فانه لا يستطيع أن يحكم عليه .. !

ولم يكن الشيخ محمد طه نجف من المراجع الدينية الوحيد الذي لا تفوته النكتة ، وإنما رووا لنا الكثير عن الكثير منهم نوادر تستحق الجمع ، كما رووا لنا الكثير الكثير ممن اتصف بالتجهم ، وضيق الصدر ، والتزمت ، والعبوسة . وليس هذا بالمستغرب ، لأن الناس أجناس كما يقولون .

وكما ينفرط عقد تلك الحلقات عند حلول الصلاة فان عقدنا هو الآخر ينفرط ويقوم كل منا إلى الصلاة فرادى أو جماعة ، وأغلبنا كان يصلي منفرداً ، أما الشيخ عبد المنعم العكام فيكون في تلك الساعة قد سبقنا إلى الموضوع واندمج في صفوف المصلين خلف الشيخ أحمد كاشف الغطاء ، وقد تدلى منه الحنك ، وذاب في روحانية الصلاة خشوعاً دون أية مداجاة أو رياء ، فقد شب العكّام تقياً ، ورعاً ، قنوعاً ، والتقي الورع في الغالب ــ كما رأينا ــ لا يكون منطلق المحيا ، مشرق الوجه ، باسم الثغر ، أما الشيخ عبد المنعم فقد كان بخلاف هؤلاء ، لقد كان يبتدع النكتة ويخلقها خلقاً ، وكان إذا ضحك يغرق في ضحكته حتى تكاد أنفاسه تتقطع ، وهو بعد هذا سريع البديهة ، حلو الحديث ، لطيف الاشارة ، يهزل ، ويداعب ، وينكّت حتى في أثناء الدرس ، وتغيب الابتسامة والضحكة من علا شفتيه ومن بين شدقيه إذا وقف بين يدي الله مصلياً ، وإذا جاء

رمضان وجدته غارقاً في بحر ليس له قرار من الخشوع ، وقد ينهي قراءة القرآن في رمضان مرتين وأكثر .

لقد قيل لأحـد المتزمتين من أولئك المتجهمين الذين تنطق السحن منهم بالغضب دون داع سوى انهم من أرباب الزهد والتقوى — ومثل هؤلاء المانّين على الله وعلى الناس بزهدهم كثيرون — لقد قيل له :

— هل تضحكون يا شيخنا إذا ما حصلت نكتة بارعة أو حدث حادث مثير للضحك ؟

لقد تأمل هذا المتزمّت قليلاً ثم قال :

— قد يتفق ذلك ، ولكنه قلما يتفق ! !

ان العكام وإن كان يبالغ في تمسكه بالطقوس الدينية فلا يقوم مثلاً إلى حاجة إلا ويمد يده إلى مصحف صغير اعتاد أن يحمله في عبّه فيستخير الله أيفعل ذلك أم لا يفعل ؟ ولا يبعد أن تدعوه المبالغة إلى أن يستخير الله فيما إذا عطش أو جاع أيشرب أو يأكل الآن أم يؤجل ذلك إلى وقت آخر ! ! ومع ذلك كله فانه يفيض بشراً وحلاوة ، ويضحك ملء شدقيه ، ويحسن افتعال النكتة والسخرية ، ويجيد تمثيل الحكايات المضحكة ، وإن أباه الشيخ محمد هو الآخر ظريف ، ولطيف ، ونظيف الثياب والعمامة ، وأنيق في مظهره أكثر أناقة بين زملائه وأقرانه ، وللشيخ منعم العكام أخ أصغر منه وهو الشيخ محمد علي العكام وقد توفي قبله ، وكان هو الآخر في منتهى الظرف والبراعة في النكتة وتقليد الآخرين ، وعندي انه أكثر دعابة وظرفاً من الشيخ عبد المنعم .

— ٣ —

ويروي الشيخ محمد العكام والد الشيخ عبد المنعم ان له جماعة من أتباعه في الايمان به من قبيلة بني لام الذين يسكنون شمال مدينة العمارة من

نهر دجلة يخرج اليهم في موسم معين من السنة ويقيم عندهم أياماً يخصّونه بما هو مرسوم لأمثاله من الحقوق الشرعية وما اعتادوا أن يقدموه من الحاصلات الزراعية على سبيل الهدية لاسيما في مواسم الحصاد ، ذلك لأن لأغلب طلاب الدين الروحانيين (عوائد) عند بعض القبائل يخرجون لتسلمها في أوقاتها المناسبة ويأتون بها عيناً أو ثمناً من قبائلهم ، وكان للشيخ محمد العكام صديق مدني يقيم على مسافة بضعة كيلومترات من محل اقامة الشيخ العكام إذا خرج إلى قبيلة بني لام ، وكان هذا الصديق يملك بستاناً عني بأشجارها عناية فائقة حتى لم تكن هناك ثمرة لم يغرس هذا الصديق شجرتها في بستانه ، فهي تحوي ضروباً عجيبة من الفواكه لا يعرفها سكان تلك القبائل بل وحتى لم يعرفوا اسمها لعدم معرفتهم المدن ، وقد يعمّر الرجل منهم الثمانين وأكثر وهو لم ير البرتقالة والرمانة بعينه ، وكل أشغالهم وحرفهم منحصرة في زراعة الرز ونسج البسط ،وان الرجال جميعاً يحضرون (المضيف) وهو ديوان رئيس القبيلة وبأيديهم مغازلهم وأصوافها فيتسمّعون الى ما يتداول به الضيوف والزوار من الأحاديث في حين يدأبون هم على الغزل في مغازل طويلة خاصة بنسج السجاد والبسط المعروفة بهم دون جميع قبائل العراق ، وكان صاحب البستان المشار إليه نجفياً اشترى هناك قطعة أرض وحوّلها إلى ما يشبه جنة عدن ، وكان دعوباً ظريفاً تجمعه بالشيخ محمد العكام خفة الطبع وحبّ النكتة ، وكم يتفق أن يدعو الشيخ محمد إلى بيته وبستانه ويستظيفه يوماً ويومين وأكثر ، وقد علم الشيخ محمد ان موسم التفاح قد حان ولا شك ان عند هذا الصديق أنواعاً من التفاح الجيد ، لذلك أرسل الشيخ محمد أحد هؤلاء الغزّالين وقال له اذهب إلى فلان وسلم لي عليه واطلب منه أن يزوّدك بكمية من التفاح .

وحين أدّى هذا الفلاح الغزّال الرسالة طالباً من صاحب البستان مقداراً من التفاح للشيخ محمد العكام هاج في صاحب البستان ظرفه فنادى الغزّال

وقال له افرش عباءتك، فخلع الغزّال العباءة من علا كتفه وفرشها، وكانت هناك مجموعة كبيرة من (البامية) اليابسة التي كان صاحب البستان قد أعدّها بذراً للسنة المقبلة – وهؤلاء الفلاحون والغزالون من بني لام لم يكونوا قد عرفوا (البامية) وقد لا يكونون قد سمعوا بها – وقال له املأ عباءتك بهذا التفاح الفاخر فقد جئت في الوقت المناسب وبلّغ الشيخ محمد عاطر تحياتي واحترامي ، وحمل الرجل العباءة المشحونة بالبامية اليابسة فوق ظهره وسار متجهاً إلى (المضيف) حيث يقيم الشيخ محمد . وعلى بعد مائة متر وأكثر صار ينادي :

– يا شيخ محمد .. لقد جئت لك بكل تفاحة في مثل طول الذراع !! وكان يكرر هذا القول وهو مقبل على (المضيف) حتى إذا دخل المضيف المكتظ بالغزّالين ألقى بحمله في وسط القوم ، فلم يطق الشيخ محمد مسك نفسه من الضحك ، وهناك دنا واحد من الغزالين يبدو انه من أكثر هذا المجتمع فهماً وادراكاً وبطرف من مغزله بدأ يبحث بين أصابع البامية اليابسة وهو يعنّف الغزال الذي جاء بها ويقول له : الا ما أشد غباوتك وبلادتك، لقد أرسلوك لتأتي لهم بالتفاح فجئتهم بالباذنجان .

أما النص العامي الشعبي من هذا التعليق فان الشيخ محمد يرويه هكذا : « ملعون أبو الحزيّة يودّوه على تفاح يجيب بيذنجان » .

وهنا يقوم الشيخ محمد بتقسيم هذه الكمية من البامية على الحاضرين وهم لا يعلمون ماذا يصنعون بها فيقول لهم الشيخ محمد : اغمسوها في الماء دقائق وكلوها فانها ثمرة طيبة ، فكانوا يفعلون ذلك بمحضر الشيخ محمد ورئيس القبيلة الذي شارك الشيخ العكام في ضحكه ، ويتوجه أحدهم للشيخ محمد ويسأل :

– وأنت يا شيخ محمد لِم لا تأكل معنا ؟

فيقول لهم : – انني لا أميل لأكل الباذنجان .

ويردّ عليه واحد منهم قائلاً – والله لمن حقك أن تعاف أكله فانه يكاد يخدش فمي ويجرح لساني ولا يفيد معه الغمس في الماء ، وليس من طعم فيه غير اللزوجة .

– ٤ –

والتعليم في النجف مجاني لا يتقاضى الأستاذ عليه أجراً ، والقرويون الذين يأتون من بعض جهات الشرق الجنوبي من العراق والمعروفون باسم (الشروقية) يلاقون صعوبة في تلقيهم الدروس لأن كثيراً منهم معروفون بالبلادة والغباوة بحيث لا يصلحون للدرس والتفقه بالرغم من نبوغ بعضهم نبوغاً يستلفت النظر ، لذلك قل من يقبل تلمذتهم عليه ، وكثيراً ما يعتذر الأستاذ عن قبولهم في حوزة تدريسه ، ولكن الشيخ عبد المنعم العكام لا يمتنع أن يتقبل منهم ما يستطيع إذا وجد المجال مساعداً ، ولا يبعد أن يكون قبول العكام لهم تلاميذ ضرباً من ضروب التفكهة والتسلية لكثرة ما يروون عنهم – صدقاً أم كذباً – من الروايات المضحكة كأن يزعموا بأن أحد (الشروقيين) قد قال « بأني قرأت (الاجرومية) من أولها إلى آخرها ما حفظت الا حروفُ الجرّ » .

ويروي لي الشيخ عبد المنعم عن ثقل الحركة وتبلّد الذهن عند الشروقيين فيقول اني سلّمت على أحدهم في الطريق ولكني لم أسمع جوابه إلا حين بعدت عنه بعشرات الأمتار وفي أثناء محاولتي عبور الشارع إلى شارع آخر جاءني الردّ منه ممدوداً ممطوطاً منغّماً كأنّه جزء من (مقام السيكاه) وهو يقول : وعليـ... كم السـ...لام ، !!

وكان العكّام يطلق على البعض أسماء فتلازمهم هذه الأسماء ، ومن هؤلاء الذين عرفتهم زنجي أعتقه مالكوه فجاء إلى النجف ليتفقّه في الدين واعتمر العمامة البيضاء وانكب على الدرس بشوق ورغبة ، وقد كان نظيف

الثياب أنيق الملبس ، فأطلق عليه العكام اسم (بيدنجان العلماء) .

والعكام وإن كان قد اتخذ من هؤلاء التلاميذ – إلى جانب تلاميذه الآخرين الممتازين – وسيلة تسلية فقد خدم هذه الطبقة التي كان يعتذر من تدريسها الآخرون ، وخرج منهم على يده من استلفت الأنظار إلى شعره وأدبه كالشيخ محمد جواد السوداني الذي كانوا يتنبأون له بمستقبل جد باهر في عالم الشعر ولكن مرض السلّ قضى عليه وهو لم يزل في عنفوان شبابه ، وله قصائد منشورة في جريدة (الفجر الصادق) تثير الاعجاب .

ويكثر العكام التفكه مع هؤلاء الشروقيين الذين كان يقول المجتهد المرحوم الشيخ محمد الشريعة بأن (الشروقي) – وقد مرت الاشارة الى هذا من قبل – ويعني المتحجرة عقولهم والبلداء الذين تدور حولهم النكت والنوادر – يحتاج إلى أربعين سنة يدرس فيها العلم والأدب لكي يصير حماراً فكيف بامكان أمثال هؤلاء أن يعيشوا في وسط معروف بحدة الذكاء والفطنة والذين جاء وصفهم على لسان الشيخ عبد الرزاق الشيخ راضي القائل «والله ان من المشايخ من يستطيع أن يقنع الحمار بأن يضرب عن أكل الشعير إذا أراد » ! !

قلت ان العكام كان كثير التفكه والتندر بالبليد من الشروقيين وكان الذكي الفاهم من الشروقيين يشارك العكام في تفكهه وسخريته بالبليد ! ! وقد نقل لي بعض هؤلاء التلامذة الذين يحضرون حلقة درس العكام مثلاً من أمثلة تفكّه العكام اذ قال ان العكام سأل مرة أحد تلامذته لو قلت لك (أطاح الله حظك) وطلبت منك استعمال ياء النسبة فماذا كنت تقول ؟ (والدرس كان موضوعه ياء النسبة) فردّ عليه الطالب – وهو يضحك لأنه كان فطناً – قائلاً أقول (أطاح الله حظي ألست هذا الذي تريد ؟)

فقال له العكام : أحسنت والله وأصبت .

وسأله مرة أحد تلامذته في درس (البديع) عن ردّ (العجز)

من بيت الشعر على (الصدر) فشرحه له العكام وأورد له المثل قائلاً مثال ذلك :

شختّي تجري عليكم دائماً دائماً تجري عليكم شختّي

والشخة هي البولة لغة .

وسأله مرة تلميذ من هؤلاء قائلاً : أليس الحبيب هو المحبوب ؟ قال العكام بلى ، قال فما معنى قول الشاعر :

قالوا حبيبك محموم فقلت لهم أنا الذي كنت في حمّائه سببا

أفليس الصحيح أن يقول الشاعر (قالوا محبك محموم فقلت لهم)

فقال العكام : والله انه لرأي مصيب وان كان الحبيب هو المحب أيضاً ولكن لننزل على رأيك ، فمن يدريك أن الحبيب – أي المحبوب على قولك – حين وقعت عينه عليك وعلى أمثالك من (المحبين) لم يرتجف ولم يصب بالملاريا ، وحين ذاك تكون أنت من الانصاف بحيث تعرف ان قبح صورتك هو الذي أوقع هذا المسكين بالملاريا ؟ أفلا يجوز ذلك ؟

قال له تلميذه وهو يعرف طبيعة العكام ومزاجه الدعوب : صحيح يا شيخي ،(وشيخي) هو لقب كل أستاذ في النجف ، وحتى قد تعني أكثر من أستاذ ...

– ٥ –

أما في مقـــام الجد في البحث والمناقشة فقد يصل به الأمر إلى الحنق ، ويقوم غاضباً ، وقد يغتاظ من بعض الأشخاص لسبب من الأسباب فيكتم غيظه ويظهره بأساليب مختلفة على قدر وقعه في نفسه مما يناقض جبلّته الهازلة الضاحكة المرحة ، وكم كنا نخرج عصر بعض الأيام – ولاسيما عصرَ الجمعة إلى وادي السلام فنقطع مسافة على محاذاة سكة الحديد

بين النجف والكوفة ، وكثير ممن يسلك الجانب الأيسر من السكة وكثير من يسلك الجانب الأيمن ، وبين الجانبين من المسافة الفاصلة ما يقدر بخمسين متراً أو أكثر قليلاً ، فيسلم البعض من الجانب الأيمن على الأيسر أو من الأيسر على الأيمن من معارفه بالايماء وذلك بأن يرفع يده إلى رأسه إذا كان من غير طبقة أهل العلم . أما طالب العلم والأدب فيضع كفه اليمنى على صدره ، وبشيء من الانحناءة إلى الأمام يسلم أو يرد السلام على الجهة الثانية ومعها كلمة : السلام على مولاي ، أو السلام على سيدي ، أو على أخي ، أو وعليكم السلام وعلى أخي وسيدي ، هذا إذا كانت المسافة قريبة والصوت مسموعاً .

وهكذا يفعل العكام إلا إذا كان الذي يحييه من بعيد شخصاً غير مرغوب فيه عنده ، وأن يكون الصوت غير مسموع لديه ، وهناك يضع العكام كفّه على صدره وينحني كمن يحيي صديقاً عزيزاً وهو يردد وبمسمع ممن يماشيه قائلاً : لعنك الله ، ولعن آباءك، وأجدادك، وأذاقك واياهم مرّ العذاب ، وشتائم أخرى من هذا القبيل فيردّ عليه الطرف الثاني من الجانب الآخر – الذي لم يدر بأن العكام انما يلعن منه آباءه وأجداده بهذه الانحناءة وهذه التحية – قائلاً سلمك الله ، وحرسك وأبقاك ، أو شيئاً من هذا القبيل .

وأذكر مرة قد وقع ما يكدر الصفو بينه وبين (صالح شمسة) وكنا ذات ليلة من ليالي الجمعة في بيت صديق نسمر ، فاقترح العكام بأن يقف منا موقف الواعظ المبتهل إلى الله، ونحن نؤمّن على دعائه على أن نرد عليه بكلمة منغمة عيّن لنا موسيقاها فنقول بعد كل جملة من دعائه : (صالح شمسه) بدلاً من قولنا (آمين) .

وللعكام صوت عذب النغمة يجيد به تقليد (المقامات) العراقية وإن لم يكن هو من هواتها أو محترفيها ، لذلك فحين كان يقول اللهم احفظ لنا

الأديب الفاضل صالح شمسه، كان يقول ذلك بنمط خاص من ترديد الصوت ، وراح يقول : بما يقارب القول الآتي :

ـ اللهم يا ذا العزة والجبروت خفف لنا من جبروت :

فيرد عليه الجميع :

ـ صالح شمسه

ويقول : وخفف اللهم شيئاً من ثقل دم الصديق العزيز

فيرد الجميع : ـ صالح شمسه

وعلى هذا النمط كان يطيل الدعاء والتعريض بصالح شمسه حتى ينتشر خبره ويشيع على ألسنة الأصدقاء، ويبلغ مسامع صالح شمسه الذي كان ذات يوم صديق العكام الحميم ، وصالح شمسه هذا كما أعرفه أنا أديب ، دمث الخلق، رقيق الحاشية ، لذلك كان يغتفر للعكام غضبته ويأخذه بحلمه .

وقد يضمنا مجلس خاص في بيت أحد الأصدقاء وليس بيننا غريب أو ما يحتشم منه ، فنطلب من العكام أن يعقد لنا مجلس وعظ ، وننضّد له من المخاد منبراً فيمد هو يده إلى عمامته ويغوص برأسه فيها حتى تبلغ شحمة الأذن أو دون ذلك بقليل ، ويمد يديه حتى يخرجهما من فتحتي ردن العباء ، ويسعل قليلاً تقليداً للوعاظ والمتزمتين ، وبخشونة من الصوت يمزجه ببحّة مصطنعة يتعالى صوته بالوعظ في أناشيد مرتجلة يهدد بها الذين يتنكبون طرق الصلاح ، ويعزفون عن فعل الخير ، الراكضين وراء أطماعهم الدنيوية فتجيء مواعظه على هذا النحو :

يا ابن آدم ، ما أكثر بطرك ؟ وما أشد طمعك ؟ ولا شك انك تملك عشرات البذل والثياب والسراويل في خزانة ملابسك ومع ذلك فلا تشكر الله ولا تحمده على احسانه ، فماذا يقول السخل ليت شعري ؟ وماذا تقول العنزة المسكينة وهي تمشي وليس من ساتر لعورتها ، وليس لديها خرقة سملة (ويظل يكرر كلمة الخرقة السملة وهو يتظاهر بالبكاء) .

ويعود ليقول :

يا ابن آدم ، يا ملعون الوالدين ، قد ينوشك رذاذ من المطر وأنت في الطريق إلى البيت فتملأ الدنيا ضجيجاً بنقمتك على السماء ، وغضبتك على القدر ، فماذا تقول الضفادع ، والسلاحف ، والأسماك الغاطسة في أعماق النهر خصوصاً إذا كان هذا السمك من الصنف الذي دعانا اليه الصديق فلان (ويسميه هنا) في الأسبوع الماضي ونرجو أن يعيد الكرة .

ويكثر من هذه المضامين المرتجلة والتي لا أستحضر نصوصها كلما سنحت الفرص لاجتماعنا فيبدع الشيخ عبد المنعم بما تفيض به قريحته من من المقارنة بين تعب الانسان الذي لا يقاس بتعب الحمار ، وسهره الذي لا يقاس بسهر الكلاب ، ويتفنن في صيغة الوعظ الذي لم يبق من نصوصها شيء في الذهن ، وقد قيل ان مثل هذه المقارنات المضحكة والمواعظ ليست من مبتكرات الشيخ عبد المنعم وحتى إذا صح هذا القول فاننا لم نجد من يحسن التفنن فيها كالعكام .

— ٦ —

وجاء في أحد أجزاء كتابي (هكذا عرفتهم) ان عدداً من النابهين كانوا قد درسوا على الشيخ قاسم محي الدين علومهم العربية وعلى الأخص (العروض) منها ، وكان الشيخ قاسم يلحّ عليّ — وعلى سبيل الدعابة — بأن أشير إليه لمن يسألني عن أساتذتي في العلوم العربية ، فكنت لا أستجيب له وأنفي أن أكون قد تعلمت حتى ولا كلمة واحدة عليه ، وحين برم الشيخ قاسم محي الدين بي سألني عمن درست عليهم؟ فذكرت له اسم الشيخ عبد المنعم العكام ، فضحك الشيخ قاسم وقال لقد كان العكام أبله تلامذتي على الاطلاق ، وأنت — قال لي ، تستنكف أن تنتسب لي تلميذاً ولا تستنكف أن تنتسب لأبله تلامذتي ؟

لقد كنت ذكرت هذا المضمون في الجزء الأول من (هكذا عرفتهم) وفي الفصل المتعلق بالشيخ قاسم محي الدين . وما كاد الكتاب ينتشر حتى جاءني الشيخ عبد المنعم العكام إلى بيتي وفي نفسه من الألم ما لم أتصوره على كثرة ما أعرف من غضبه وحنقه إذا غضب وحنق وقال لي معاتباً : كيف تكتب هذا عني وأنت تعلم انه مخالف للحقيقة ؟ وانني لم أتلق العلم على الشيخ قاسم لكي أكون من أبلد تلامذته ؟

قلت ــ أنت تعرف الشيخ قاسم . وتعرف مزحه وتفكهه ، وان الذين يعرفونك ليعلمون حق العلم بأنك لم تدرس عليه ، ولم تتلق دروسك منه ،

جانب من مدرسة آل الخليلي الكبير لطلاب العلم وفي الطابق الثاني غرفة العكام

وأنت رجل أديب ، وشاعر ، وظريف إلى جانب ما ألممت به من الفقه والأصول فكيف تسوّغ لنفسك الزعل والحنق لدعابة وردت على لسان الشيخ قاسم محي الدين ، وكتبتها أنا مفتخراً بأني لم أتلـــق دروسي إلا عليك .

وما زلت به حتى خمدت ثورته وهدأ ، وألححت عليه بالبقاء عندنا ظهراً لنتناول الغداء معاً ، وساعدت (الاستخارة) بالمصحف على ذلك ، وتغدينا واستعدنا الكثير من ذكريات الماضي وأيامنا السعيدة .

والشيخ عبد المنعم كان معوزاً مملاقاً . وكان هذا حال طلاب العلم في أكثر الأوقات فكيف يكون اذن حالهم في ايام الحرب العظمى الأولى وبعدها؟ وقد شحت الحبوب في أسواق العراق ، وعزّت وسائل المعيشة ، وساءت الأحوال . وجاءني العكام يطلب مني تنفيذ طلبتين الأولى أن أجد له محلاً في مدرستنا الكبرى (مدرسة آل الخليلي) والثانية أن يؤذن له باستعارة ما يحتاج من كتب مكتبة مدرستنا الصغرى ، وان لآل الخليلي في النجف مدرستين احداهما كبيرة وذات غرف متعددة ، ولمن يمنح حق السكنى شروط معينة مدرجة في الوقف ، ومدرسة صغيرة ذات مكتبة كانت كبيرة ثم قلّت العناية بها فيما بعد ولعبت بها يد الضياع فتقلصت ، وكان الاشراف عليها قد أودع في السنوات الأخيرة للشيخ محمد جواد الجزائري ، وكانت هذه المكتبة على ما أذكر توفر أهم ما يحتاج اليـــه طلاب العلم من كتب الفقه والأصول ، وعلم الكلام ، والرجال ، ولكن الاستعارة والخروج بها من المدرسة لم يكن سهلاً .

وقال لي العكّام ، أما بيتنا فلا يصلح للمطالعة لضيقه ، وعدم امكان الحصول فيه على غرفة مستقلة ، وأما الكتاب فأنت تدري بأني لا أستطيع الحصول عليه بالمال أو الاستعارة ، ثم ان مراجعة المكتبات والمطالعة في قاعاتها غير ممكنة لي ، واني في أشدّ الحاجة إلى هذين الأمرين ، أما العيش

فيكفيني رغيف من الخبز ظهراً وآخر مثله ليلاً . وهذا ميسور والحمد لله بل وحتى الرز لا نعدمه في بعض الأحيان .

جانب آخر من مدرسة آل الخليلي لطلاب العلم وقد انشحت بالسواد بمناسبة محرم الحـــرام

وقد صدق الرجل ، وقد يكون أهل بيته من الذين يؤثرون على أنفسهم ، وآية ذلك أن جمعاً من الأصدقاء قد تآمروا على أن يقصدوا بيته ليلاً ويقفوا من البيت في جانب . ويتقدم السيد محسن النقيب إلى باب داره كما لو كان شحاذاً يستجدي البيت بصوت شبيه بأصوات المساكين الأذلاء ، وهكذا فعل السيد محسن . واتقن لهجة المكدين ، وإذا بأخت

الشيخ عبد المنعم تفتح الباب نصف فتحة ، وتقدم له صحناً من النحاس وفيه شيء من الرز المطبوخ ، فخطف السيد محسن النقيب الصحن وفرّ به ، وصرخت الفتاة ان الشحاذ قد خطف صحن الطبيخ فتقافز أخوة الشيخ عبد المنعم ومن كان في البيت ، هذا بالعصا ، وآخر بالفأس ، وغيره بما وقع تحت يده وأدركوا الشحاذ فاذا به السيد محسن النقيب ، ولو لم يعرفوه بسرعة لراح شهيد الشحاذة قبل أن يبلغ الشهادة في حركة رشيد عالي الكيلاني .

وكان لمدرستنا وكيل متجهم شديد نيط به الاشراف على شؤون المدرسة الكبيرة وآخر كان أشد منه في مدرستنا الصغيرة ، اختارتهما أسرتنا خصيصاً لادارة المدرستين . وقد دخل في علمي بأني لست بالشخص الذي استطيع أن أحقق للعكام بغيته لو توليت أنا الأمر بنفسي ، لذلك لجأت إلى أبي وحملته على أن يطلب هو من الوكيلين المشرفين على ادارة المدرستين انجاز ما يريد العكام ، وهكذا استطعت أن أحمل وكيل المدرسة الكبرى أن يجد للعكام محلاً في المدرسة ، ولما كان مثل هذا المحل غير ميسور لامتلاء الغرف بالطلاب فقد شارك العكام أحد الطلاب في غرفته ، كما أتيح له أن يستعير ما يشاء من الكتب من المدرسة الصغيرة ، وكم كان سرور العكام عظيماً حين وجد شريكه في السكن ظريفاً مثله وشاعراً أديباً ، على أن العكام قلما كان يبيت في المدرسة ، وانما كان قد اتخذ الغرفة لاعداد دروسه ومطالعاته ، أما طلابه فقد كان يضرب لهم موعداً في الصحن ، أو في المسجد الهندي ، أما أنا فقد كنت أحضر درسه في غرفة من غرف الصحن من جهة باب الطوسي .

أقول ومعظم طلاب العلم في النجف كانوا يعيشون في مثل هذا العوز والفاقة والاملاق ، ويبدو ان القضية لم تقتصر على طلاب العلم وحدهم في النجف ، وانما كانت هذه حالة أغلب الطلاب في الأزهر ، والزيتونة ، وجامعة القرويين ، وطلاب العلم بأصفهان وغيرها ، ولقد جاء في خطبة

الدكتور زكي مبارك في الحفلة التكريمية التي أقامتها له (جمعية الرابطة الأدبية) في النجف : انه عاش في (الأزهر) مدة طويلة على الخبز اليابس ، وأقسم أن كسرة من الخبز قد جرحت ذات مرة جلدة كفه وهو يحاول أن يكسرها (بجمعه) ! !

ـ ٧ ـ

وكانت تتخلل مجالس درسنا مجالس ظرف نعقدها ليلاً في الصحن الشريف ، أو في غرفة الشيخ عبد المنعم العكام بمدرستنا ، أو في بيوت بعض الأصدقاء ، وقد بلغ بنا الظرف أن ألّفنا حكومة للافلاس اخترنا لها العكام ملكاً ، ونطنا كل واحد منا بوظيفة خيالية تناسب حاله ، وما لبثت هذه الدعابة أن تحولت إلى ما يشبه الجمعية السرّية ، فكنا نكتب المناشير السرية بخطوطنا ونكيل للانكليز الذين كانوا لا يزالون بعد في أوائل بسط سيطرتهم على العراق الشتائم ، وضروب القذع ، والقذف بما كنا نستحضر ، ثم نلصق هذه المناشير بالعجين الذي كنا نجلبه ليلاً من الخبازين على بلاط الصحن في المكان الذي كنا نتحلق فيه ثم ننقل مكان حلقتنا في ليلة أخرى إلى محل آخر من الصحن ، كما ننتهز فرصة خلو الصحن قبيل موعد اغلاق أبوابه فنلصق هذه المناشير على أبواب الصحن ، ولا أنسى ان أحدنا قد لصق ذات مرة المنشور على باب مسجد الهندي أو باب الصحن نفسه مقلوباً كأن جعل نهاية المنشور في الأعلى وأعلاه في الأسفل لارتباكه وشدة عجلته .. وكنا نمسك عن هذا العمل بعض الأحيان ، بقصد التضليل حتى إذا أمنّا من الجواسيس الذين كانوا يومذاك منتشرين بكثرة نسبية في النجف لكونها كانت مركز الثورة العراقية الكبرى وكان البلد في حالة غير طبيعية من حيث السياسة ، أقول حتى إذا أمنّا من الجواسيس عدنا إلى هذه اللعبة الصبيانية التي كنا نظنها لوناً من ألوان البطولة يومذاك ، وكان الشيخ عبد المنعم من الشجعان ، وكثيراً ما كان يكتب المنشور بانشائه وخطّه ولربما سعى للصقه

بكل جرأة كأنه فرض من فروض الدين ، بل هو من الفروض الواجبة عنده ما دام الغرض منه محاربة الكفر والالحاد ...

وبعد هذا قمت أنا باصدار جريدة كنا نخطّها بأيدينا ونتداول أعدادها فيما بيننا ، وكان للشيخ العكام نصيب وافر منها .

وأبواب الصحن الشريف خير موضع للاعلان عن حوائج الناس إذ قلما يمرّ أحد من باب الصحن دون أن يقف ولو دقيقة وأقل من ذلك ليقرأ اعلاناً عن ضياع حاجة ، أو خبر عثوره على شيء مفقود، فليس كأبواب الصحن – ولا سيما الباب المعروف (بالباب الكبيرة) ما يصلح لانتشار خبر المضيعات في البلد كله ، وحتى كتابة هذه الكلمة وهذه الأبواب ما زالت على ما أعهد بمثابة لوحات للاعلان وليست أبواباً أقيمت للاغلاق والفتح ، ولربما أصبح الفرق بين مضامين اعلانات الأمس واعلانات اليوم من بعض الأدلة على ما اعترى أخلاق الناس من تغيير ، فقد كانت الاعلانات التي تتضمن العثور على الأشياء بالأمس أكثر من الإعلانات التي تتضمن الأشياء الضائعة ، وكانت الصيغة الغالبة العثور على الأشياء تأتي على هذه الصورة أو ما يقاربها .

« ليكن معلوماً اننا قد عثرنا على كيس دراهم فعلى من يخصه أن يراجع فلان البقال (مثلاً) ويعطي أوصافه ويتسلمه » .

أما المضيعات فكانت تأتي على هذه الصورة :

« رحم الله من وجد خاتماً (مثلاً) فضياً بفص من العقيق – أو غيره أن يسلّمه لفلان (الكيشوان) وله عند الله الأجر والثواب » .

ويبدو لي ان الاعلانات – إذا كانت لم تزل باقية كما هي – قد تحولت إلى هذا الطراز الأخير ، ولكن دون جدوى لأن الذي يعثر على شيء لا يبحث عن صاحبه إلا القليل من أهل الذمة ، في حين ان أحوال

الناس قد تحسنت اليوم من حيث المعيشة ، ولم يعد لذلك الفقر المدقع الذي كان يؤدي إلى جرح الدكتور زكي مبارك من جراء معالجة كسرة من الخبز اليـــابس .

وأضاع مرة العكام كتاباً مستعاراً قد استعاره من بعض معارفه فوضع اعلاناً على باب الصحن ذكر فيه انه قد نسي الكتاب في الصحن وعلى من يجده أن يسلمه إلى عبد الحميد زاهد في الصحن . وكان قد نسي أن يذكر اسم الكتاب ولم يفطن إلى اغفاله ذكر اسم الكتاب إلا بعد أيام . وكان عبد الحميد زاهد يومذاك يجلس في طرف ايوان من أواوين الصحن، وإلى جانبه خزانة تحتوي على بعض الكتب للبيع ، وأمامه صندوق ، وفوقه صخرة كان يجلّد الكتب عليها ، وكان العكّام قد أخبره بالاعلان . وبعد أسبوع واحد وجد العكام عند عبد الحميد زاهد أربعة كتب من الكتب المختلفة الموضوعات كان قد عثر عليها البعض وجاؤوا بها إلى عبد الحميد زاهد ، والعجيب ان العكام وجد بينها الكتاب المفقود الذي تضمنه اعلانه ولم يذكر فيه اسمه .

وكنا في بعض أيام الجمع نذهب إلى الكوفة ونحن جماعة ومعنا ديوان شعر ، فكنا نجمع من كل واحد (قراناً) والقران هو العملة المتداولة في تلك الأيام وهو ما يساوي ربع (الربية) أي نحو عشرين فلساً من عملة هذا اليوم ، وكنت أقترح في كل مرة أن يودع المجموع من النقود عند الشيخ عبد المنعم العكام ، وكان العكام يتولى الانفاق علينا من مجموع ما لديه ، فيدفع أجور (الترامواي) ذهاباً واياباً بين النجف والكوفة وينفق على اعداد غدائنا ، ولا أذكر أن الغداء كان يتجاوز الخبز والجبن والتمر وبعض الخضروات كالفجل والكراث والرشاد ، وكنا نوغل في البساتين حتى إذا وجدنا محلاً تبهرنا خضرته وماؤه جلسنا عنده وبدأ أحدنا يقرأ في الديوان قصيدة ونشرع نحن بالتقفية ، وكثيراً ما كنا نبيت في مسجد الكوفة أو مسجد السهلة ، والمبيت هناك مجاني ، وحين نسأم تقفية الشعر ، نلجأ إلى

بعض الألعاب المألوفة كلعبة (السلطان والوزير) أو لعبة (موسى الشحاذ) ونسعى أن لا نستلفت النظر لئلا نطرد من المسجد من قبل القوّام على أساس ان اللعب في المساجد من المحرمات . وكم من مرة يفضل من النقود المجموعة شيء فيعيد العكام الفضلة إلى أصحابها .

وسافر والداي ذات مرة إلى الكاظمين وسامراء ليقضيا أياماً هناك ولم يبق في البيت غيري ، وقد وكل أمري إلى بيت إحدى اخواتي على أن أمرّ به ظهراً لأتغدى ، وليلاً لأتعشى ، فكنت أمرّ ظهراً ، وأتذرع بأعذار كثيرة لاعفائي من تناول العشاء ، وكنت حين ينتهي مجلسنا ليلاً في الصحن الشريف أستصحب الشيخ العكام إلى بيتنا ، وفي طريقنا كنا نشتري رغيفين من الخبز ، ومقداراً من اللبن الناشف بمقياس يسمى (بالرُبع) وفي البيت نشن اللبن ، وهناك في بيتنا كانت قوصرة من التمر لا أظن وزنها يقل عن ٢٤ كيلواً ، وهذا هو وزن القوصرة الكبيرة كان يهديها لنا في كل سنة بعض الأصدقاء كان آخرهم السيد حسين النقيب الرفيعي ، وكان الحاج عطية (أبو گلل) الذي كان يقول بأنه يكبس هذا التمر بيده خصيصاً في صفيحة نظيفة من صفائح السمن ويأتي بها مع الحمال الينا في كل موسم من مواسم التمر . وهكذا كان ديدنه حتى توفي ، كما كان هذا ديدن النقيب معنا حتى انتقل إلى بغداد وانتقلنا نحن كذلك .

ولم تكن القوصرة التي خلفها والداي قد فتحت بعد ، فانتهزنا أنا والشيخ العكام فرصة سفر الأهل وفتحناها وبدأنا نتعشى بها في كل ليلة ونرمي بالنوى من (الشناشيل) إلى الطريق ، ثم نجلس فنقرأ كتاباً ، أو ننظم شعراً ، أو نلهو بسرد ما وقع لنا مع الأصدقاء في ذلك اليوم ، ومن المؤسف أن يضيع الكثير من نظمنا من الشعر معاً في تلك الليالي ، ولو كنا جمعناه لألف ديواناً كبيراً اذا لم يحتو على جانب مهما كان ضئيلاً مما يجوز أن يسمى شعراً فهو على الأقل يصور أفكار شباب عاشوا في مثل ذلك الزمان ، ويسجل خواطرهم ، إذ لم يكن بين زمرتنا من الشباب من كان

يسمى شاعراً بحق غير محمد مهدي الجواهري ، الذي كثيراً ما كان ينضم إلى حلقاتنا ، وكثيراً ما كان يخرج معنا إلى الكوفة بل هو الذي يمسك بأحد دواوين الشعر ويقرأ القصيدة لكي نقفّيها نحن .

ويبيت العكام في بيتنا كل ليلة مدّة غيابَ والديّ اللّي طالت ، وكنت أستيقظ أنا بعد منتصف الليل على صوت خشخشة أو حركة وأفتح عيني فأجد العكام منحنياً على القوصرة يأكل من تمرها ويعبّ اللبن عبّاً ويجمع النوى ليرميه صباحاً من (الشناشيل) إلى الشارع حذراً من احداث صوت يسبّب ايقاظي من النوم .

وحين أستيقظ أندفع أنا الآخر إلى القوصرة لأخذ نصيباً آخر منها ، وهكذا حتّى أتينا على القوصرة أنا وهو قبل أن يأتي أبواي من سامراء ، ولا أذكر كم يوم مرّ علينا ونحن على هذه الحال ولكني أذكر ان آخر من أكل البقية كان العكام نفسه ، وكان هو الذي حمل القشرة ، قشرة القوصرة المنسوجة من خوص النخل تحت عباءته إلى الشارع ورماها في إحدى الزوايـــا .

وكانت معذرتي لأهلي حين افتقدوا التمر أن لفقت لهم حكاية بأن صديقاً لي قد عاد أبوه من الحج فقدمت له القوصرة بهذه المناسبة ، ومع ذلك فلم أسلم من المؤاخذة على فعلي ، اذ كانت التمرة تلك من التمور الجيدة التي كنا نطعم منها الأقرباء والأصدقاء كلما أكرمنا بها أهلها الذين لا أذكر الآن من هم كان أولئك من غير الذين ذكرتهم ، ولو درى والدي بأنني أنا والعكام لا غيرنا اللذين أكلا كل القوصرة لحدثت لي مصيبة .

وأكثر ما كان يلهينا حين نجتمع أنا واياه في بيتنا هو نظم الشعر ، ننظم القصيدة الواحدة مشاركة ، أو اننا نختار موضوعاً أو مناسبة فينظم كل منا على انفراد ثم نرمي بكل ذلك عرض الحائط ، ويوم تزوج صديقنا

السيد علي الجصّاني ، بعث له كل صديق حسب مقتضى أحواله بما يسمى (بالصينية) اصطلاحاً وهذه الصينية تحتوي على قطعة من القماش أو عباءة ومقادير من الحلويات ، ويستعيض البعض عن الصينية بدعوة شاي في بيته مصحوبة بالفواكه والحلويات ، واذا كان الداعي من الشعراء يعزز دعوته بقصيدة تهنئة للصديق العريس، او قد ينتهز البعض من أهل الشعر هذه الدعوة فيشاركون الداعي في تكريمه العريس بما يعدون من القصائد ، وهكذا فعل محمد مهدي الجواهري في احتفاله بالسيد علي الجصاني فقد دعاه لحفلة شاي في بيته وبارك له زواجه بقصيدة عامرة ، أما الباقون من أصدقاء الجصاني فلم يبق أحد منهم دون أن يبعث للجصاني بصينية حسب ما يقتضي حاله إلا العكام وكان من أصدقاء الجصاني المقربين ، ولم يكن في طاقته حتى أن يعقد له حفلة شاي في محل ما .

وجاءني العكام يسأل عما ينبغي أن يعمل ؟ فقلت له ان المسألة غير ذات شأن ، فتعال إلى بيتي وسنشارك معاً في نظم قصيدة نجمع فيها من اللغات المختلفة المألوفة ما نستطيع ونخلط بين الفصيحة من اللغة والعامية المحجينة ونمزج الجد بالهزل ثم نجد مكاناً منا لا نشادك اياها في أحد البيوت المعدة لتكريم الجصاني، وأنت رجل ظريف ، وسيكون ظرفك هو الهدية المناسبة ، وسيكون لهذه القصيدة إذا حبكناها حبكة جيدة وقع أعمق من وقع القريض ، ثم انك ستنجو من المقارنة بين قصيدتك وقصيدة الجواهري المزمع انشادها في بيته بهذه المناسبة والتي ستأكل كل القصائد التي قيلت في الجصاني ، ووجم العكام أول الأمر وظنني هازلاً ، ولكنه ما لبث أن شعر بأني كنت جاداً فيما قلت ، فقال اذن فالموعد في بيتك ليلاً .

وجاء العكام وجلسنا نقلّب الأمور على جميع وجوهها كأننا قادمان على مشكلة من مشكلات الدنيا العويصة ، وما لبثنا حتى قرّ رأينا على أن تكون القصيدة غزلية ويكون مطلعها بالعامية : « أنت ترف وزغيرون كالقمر) وعند منتصف الليل كانت القصيدة قد تمت بعد أن غيرنا وبدلنا

الكثير من كلماتها حتى اطمأننا إلى حسن وقعها .

وكان الشيخ جليل العادلي قادماً على اقامة دعوة للجصاني في اليوم التالي فوجدناها خير فرصة لهذه التجربة ، ورقى العكام المنبر ، وطلب من الجماعة أن يعيدوا المطلع عليه كلما انتهى من الدور كما يفعل (جوق) المغنين بعد أن أرشدهم إلى النغمة واللحن الذي يلتزمون به عند ردّهم عليه ، وصوت العكام — كما سبق لي أن قلت — صوت مقبول لا يخلو من عذوبة ، فلم يكد يتلو من القصيدة مقطعاً حتى بدأ البعض يفحص برجليه من شدة الضحك ، وما كاد ينتهي من انشاد القصيدة حتى طلب منه أن يعيد انشادها ، وفي هذه المرّة كان انشاده لها أجود من حيث الطريقة ، واللحن ، والموسيقى ، واستكتبه البعض أبياتها وقرأوها في مجالسهم ، وصارت تتردد على الأفواه وحتى اليوم وهناك بعض من يستظهرها ، وما من يعلم كيف نظمت هذه القصيدة وفي أية مناسبة كان نظمها ، وقد فات البعض أن ينسبها لناظمها لأنه يجهله .

وهناك قصيدة نظمناها على هذا الطراز يوم رأينا وقع القصيدة الأولى في النفوس كان كبيراً ، ولكنها لم تلاق الاقبال الذي لاقته قصيدة (أنت ترف وزغيرون كالقمر) والمقصود هو وصف الحبيب بالصبا والجمال والترف وتشبيهه بقمر السماء ، وقد أنشد العكام القصيدة الجديدة في بيت محمد مهدي الجواهري بعد أن أنشد الجواهري قصيدته . وهي كسابقتها — وإن لم تحظ بما حظيت به قصيدته الأولى — خليط من اللغة الفصيحة ، والعامية ، وبعض اللغات كالفارسية ، والتركية . والهندية ، وكان العكام يعرف اللغة الفارسية والتركية لأن المدارس العثمانية كانت تعنى بهاتين اللغتين كعنايتها بالعربية ان لم يكن أكثر وقد زاده اتصاله بطلاب العلم من الإيرانيين معرفة بالفارسية فأحسن فهمها ، أما مطلع القصيدة التي تليت في بيت الجواهري وكانت دون القصيدة الأولى شهرة فقد كان على هذه الصورة كما احتفظت به الذاكرة :

خدّك كالوردة ابيضٌ أحمرْ لكنك ابحامض حلو تتقشمرْ

وكان حين يعيد قراءة البيت يجري تبديل (الحامض حلو) برأس الفجسل ... وبشيء آخر مرة أخرى .

— ٨ —

واقتضت ظروفي ترك مواصلة الدرس ومراجعة دار المعلمين ببغداد لأداء الامتحان . وكان المشرف على ادارتها يومذاك محمد عبد العزيز المصري أو محمد خليل لتعييني معلماً . ولسابقة تلمذتي بالمدرسة العلوية في النجف لم يصعب علي أداء الامتحان بالدروس العصرية الحديثة من حساب وجغرافية وتاريخ . وأرسلت نتائج امتحاني لمديرية معارف بغداد وكان يومها يوسف عز الدين آل ابراهيم باشا وزير المعارف فيما بعد ، ويبدو أنه قد سرّ وكان من نتائج سروره هذا أن سألني ما إذا كنت أستطيع أن أرشح له للتدريس من أمثالي ليؤدوا الامتحان في الدروس العصرية ؟ فأجبته بأن ذلك سيتوقف على رجوعي إلى النجف ومذاكراتي بعض من أعرف منهم . فقال انه ينتظر مني الجواب بفارغ الصبر لأن (المعارف) يومذاك في أول عهدها بالعمل بعد الثورة العراقية الكبرى ، وهي بحاجة ماسة إلى معلمين يعرفون ولا أقول يحسنون تدريس الحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيـــا .

وتعينت أنا معلماً في مدرسة النجف الأميرية — كما كانوا يسمونها — وهي أول مدرسة رسمية كانت قد افتتحت قبيل قيام الثورة العراقية ثم أغلقت في عهد الثورة وأعيد الآن فتحها بعد الثورة ، وصار لي بيوسف عز الدين شبه ارتباط بما كتبت له ورشحت ممن كان قد زاملني في المدرسة العلوية الأهلية ، أو ممن قد عرفت فيه الأهلية فسافروا إلى بغداد وأدوا الامتحان بنجاح أو قريب من النجاح ، ورحت أعرض على الشيخ عبد

المنعم العكام الأمر وأحسّن له ترك مواصلة دروس الفقه والأصول ، لاسيما وانه ليس من المفروض أن نغير ألبستنا وتقاليدنا وانه سيبقى معتمراً العمامة كما بقيت أنا معتمراً العقال . وكانت الحاجة تحمله على الرضا وسرعة القبول ، لذلك رضي وعلق الأمر على (الاستخارة) بالمصحف ، بأن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويسمي باسم الله الرحمن الرحيم ، ويقرأ الفاتحة لأرواح المؤمنين والمؤمنات ، وينوي نيته ثم يضع اصبعه في جهة من المصحف وهو مغلق ، ويفتح المصحف ويقرأ منه ما يقدر من الصفحة من الآيات ويتفهم مغزاها وما يمكن أن يستدل منها بالتفاؤل أو التشاؤم وفعل العكام كل هذا وحمد الله أن جاءت الاستخارة وفيها ما يبشر بالخير حسب ما فهم هو منها ، ولكنه ظل متهيباً ، ورحت أذكره بأسماء الذين امتحنوا ونجحوا وهم دونه في كل شيء . ولم أزل به حتى تشجع وسافر ، وأدى الامتحان ونجح . وتعين معلماً ، ومنذ هذا اليوم ترك دراسة الفقه وانصرف إلى مطالعة دروسه المدرسية وتتبع الكتب التي تخص التعليم الحديث . أما ايمانه بالله ، وتقواه ، وتمسكه بالاستخارة فقد ظل كما هو يرافقه إلى الممـــات .

وفي أوقات العطل الرسمية في الصيف كانت نظارة المعارف تحرم القرى من الاستمتاع بهذه العطل وتفرض على المعلمين فيها الدوام الكامل . فكنا ننتهز هذه الفرص فتزور أصدقاءنا من المعلمين في القرى القريبة من النجف ونتناول غداءنا عندهم في المدرسة ، وقد نبيت في بعض الليالي عند من تسقط الكلفة بيننا وبينهم من المديرين الذين كانوا يسمونهم (بالمعلمين الأولين) ما داموا يديرون المدارس القروية التي تكون صفوفها دون الصفوف الخامسة والسادسة ، وكان العكام هو قطب الرحى في هذه الزيارات والرحلات التي نقوم بها من حيث ما كان يبتكر لنا من وسائل التسلية والتفكهة وجلب البهجة والأنس إلى نفوسنا . وحين نعود للنجف نعود وقلوبنا مفعمة بالانشراح والمرح والذكريات الطيبة . وكانت نفوسنا تفيض

بالبشر أياماً طوالا لكثرة ما كنا نضحك . ولذلك سرعان ما نجدد القيام بمثل هذه الزيارات .

وأذكر مرة أن صديقاً لنا من المعلمين اسمه الشيخ صادق ولا أذكر لقبه وكان من المعلمين في العهد العثماني وقد تعين عقيب الثورة العراقية معلماً أولاً (مديراً) لمدرسة الجعارة (الحيرة اليوم) ، وهو لا يعرف الشيخ (العكام) ولم يسبق له ان رآه فارتأينا أن نخلع على العكام صفة مفتش للغة العربية ، ونتظاهر بأننا ما جئنا إلى الحيرة إلا بصفة حاشية له كمعلمين نسير في صحبته ، وقد قام الشيخ صادق بضيافتنا خير قيام ، كما مثل العكام دور المفتش خير تمثيل حين سأل (المدير) والمعلمين عن الطريقة التي ينتهجونها في تعليم الصغار اللغة والمحفوظات واجاد والله الدور أحسن من الواقع عند المفتشين الحقيقيين واقترح أصولاً جديدة للتعليم ذات أهمية كبرى لو كانت (المعارف) تعلم بها وتأخذ بمضامينها ، ثم قام العكام يطوف بالصفوف ونحن وراءه حتى إذا جاء المرحاض وكان لها باب خشبي وفتحة الباب مشبكة بقضبان من الحديد بقصد دخول الضوء للمرحاض والتهوية ، فأنكر العكام على الشيخ صادق قلة النظافة في هذا المرحاض ، أما الحقيقة فقد كان المرحاض نظيفاً وليس فيه ما يؤخذ عليه ، ويومذاك كانت (المعارف) تشدد على المدارس في استعمال (الأسيد فينيك) لذلك كانت النظافة في هذا المرحاض متوفرة بصورة كاملة ، ولكن الظرف هنا قد هاج في نفس العكام وهو مجبول عليه ، فنادى الشيخ صادق – المعلم الأول – ولامه هو وفراش المدرسة على الاهمال ثم طلب منه أن يدخل المرحاض فدخلها الشيخ صادق ، وأغلق العكام عليه الباب وبدأ يكلمه من وراء القضبان ويقول له لا شك انك لا تستطيع أن تمكث هنا دقيقة أو دقيقتين فكيف باستطاعة الطفل إذا دخل هنا وبقي بضع دقائق وأكثر ؟ فيجيبه الشيخ صادق صحيح يا سيدي المفتش .. ويتعمد العكام أن يطيل الحديث ويجيء به من هنا وهناك لكي يسجن هذا المعلم في المرحاض

استجابة للذة الهائجة في نفسه في تلك الساعة .

وكانت لي بالشيخ صادق معرفة سابقة فذاكرني على انفراد بأن أسعى لجلب رضا المفتش ولا أدعه يخرج من المدرسة إلا وهو راض ، وأقسم أنه لم يلاحظ شيئاً يستوجب المؤاخذة عليه في المرحاض ولكن هذا المفتش الذي لم أدر من أين جاء به الانكليز الذين يلتقطون موظفيهم من كل من هبّ ودبّ وإن بدا من ملاحظاته انه كان ذا معرفة واطلاع واسع .

ويستبان ان العكام قد وجد في هذه الدعابة لذة حملته على أن يذهب بها بعيداً ، فحين مررنا بسوق (الحيرة) لفت نظره خان كبير ما لبث أن دخله ونحن نسير من خلفه ، وكان الخان مليئاً بالحبوب والتمور ، وهناك وقف ، وبمحضر من صاحب الخان قال : يبدو لي ان هذا الخان يصلح أن نستأجره فنتخذه مدرسة لأنه خان واسع ، ومحل صالح من حيث الموقع فجنّ جنون صاحب الخان — والناس بعد ركود الثورة كانوا يخافون بطش الانكليز وتنكيلهم بهم بسبب أقل الأشياء ، فراح صاحب الخان يصف الكارثة التي ستحلّ به إذا تم هذا العمل وطُلب منه تفريغ الخان ، ثم همس في أذن أحد معلمي (الحيرة) الذين كانوا يصحبوننا أيضاً بأنه مستعد ليدفع للمفتش مبلغاً من (الروپيات) إن انصرف المفتش عن السيطرة على الخان .

وفي اليوم التالي كنا قد رجعنا إلى النجف ، وبعد أيام علمنا بأن مدير ناحية الجعارة (الحيرة) وقائمقام (أبي صخير) كانا قد بلغهما أن مفتشاً للغة العربية كان قد زار (القضاء) و (الناحية) وتعجبا كيف لم يمرّ بهما هذا المفتش ويستمزج آراءهما فيما يخص مدارس (القضاء) و (الناحية) ولا أكتم القارىء اننا قد خفنا كثيراً ، وكان العكام أكثرنا خوفاً ، وكنت أسمعه طوال الأيام يسبّح وشفتاه تتحرك همساً بذكر الله ولا يبعد أن يكون قد نذر لله أن يتوب أو يخفف شيئاً من دعابته ، واقتصرت الدعابة عنده على الأقوال دون التمثيل والأفعال واكتفى بأن يقلب أناشيد

المدرسة إلى أشكال مضحكة ، حتى اشتهر عنه نشيد (المطايا) وذاع في العراق كله وكان يعقب كل دور منه نهيق يقوم مقام النوطة الموسيقية :

« دو ، ري ، مي ، فا ، صول ، لا ، سي »

وتعين العكام (معلماً أولاً) في قرية (الخضر) وضاقت به هناك الدنيا الواسعة ، فلم يكن في (الخضر) من يأنس به غير السيد كاظم ، والسيد كاظم هو خطيب عاشوراء لهذه القرية وضواحيها ، وكان رجلاً أديباً وظريفاً ، وبسبب انشغاله بقراءة مآتم الحسين (ع) هنا وهناك لم يكن باستطاعته ملازمة العكام ، فأحس العكام بالغربة والوحشة خصوصاً انه لم يجد بين من يعمل معه من معلمي المدرسة من يفهمه ، وضاقت الدنيا في عينيه ، وهو الذي عاش في الصحن الذي مرّ وصفه ونشأ في ذلك المجتمع الصاخب العاج بالأدب والشعر والفكاهة ، وبين تلك الحلقات من تلاميذه في مسجد الهندي . وفي الصحن الشريف ،وفي المدرسة ، وراح يبث حزنه للسيد كاظم ويشرح له ضيق نفسه ، وكان أن اقترح عليه السيد كاظم الزواج ، فليس في مثل هذه الحالة من علاج غير الزواج ، وخطب له السيد كاظم زوجة من بيت كريم ،وتزوج الشيخ عبد المنعم هناك ثم انتقل بعد ذلك إلى النجف .

ومرّ زمن ولم ينجب العكام ولداً ، وبعد محل طال في عين العكام رزقه الله بابن سماه (منذراً) وابنة سماها (فتحية) وبمناسبة ولادة (منذر) أقام العكام لطائفة من الأدباء والأصدقاء وليمة عشاء في بيته في النجف ، وتليت في هذه الدعوة قصائد تهنئة كانت لي فيها قصيدة لم تبق في ذهني منها غير هذه الأبيات :

يا نجمة طال انتظـــار بزوغها ... في أفقها ردحاً من الأعوام
هلّت (بمنذر) في سماك فحققت ... ما كنت ترجوه من الأحلام
بشراً أبـــاه فانـــه شهـــم ولم ... ينجب سوى شهم بنو العكّام

ويشتبه من يظن أن النجم مذكر ولا يؤنث وعلى المشكك أن يراجع (لسان العرب) لابن منظور .

وعمل العكام في النجف ، والكوفة ، والحلة معلماً ومديراً ثم نقل إلى بغداد مديراً لإحدى مدارس العاصمة ، وهنا فقط غيّر ملابسه بالملابس الافرنجية ووضع العمامة جانباً واعتمر السدارة .

وعلى ذكر العمامة التي قال بعض المعممين عنها : (لقد منعت رزقي وفسقي) أذكر أننا كنا ذات يوم ببغداد ، فعرض الرفاق علينا قضاء احدى الليالي في ملهى كانت تغني فيه مغنية عراقية غناءً شعبياً وكانت في عين الوقت تتقن بعض (المقامات) العراقية وكانت تسمى (جليلة العراقية) لعبت في الغناء دوراً لم يضاهها مطرب ومطربة في ذلك اليوم ، والشيخ منعم العكام يحب (المقامات) وكثيراً ما سمع صوت (جليلة) من الأسطوانات التي كنا نسمعها في بيت آل شلاش في النجف فأعجب بها ولكن الشيخ عبد المنعم كان لا يزال معمماً في ذلك الوقت وهو فضلاً عن ذلك يتحاشى أن يوجه له أحد الطعن بكونه من أرباب الهوى ومن محبي الطرب ، فسرّني مخبراً اياي بأنه يودّ الذهاب إلى ملهى (جليلة) في هذه الليلة ولكنه يحاذر من رفاقنا وما عليّ إلا أن ألحّ عليه وأنفي وجود الحرمة الشرعية في ذهابه معنا ، ولا أزال به وهو يمتنع حتى يطيعني وحتى يظن الرفاق بأنه قد أطاعني كرهاً ، أما العمامة فمن الممكن ابدالها (باليشماغ والعقال) وهكذا كان فحين عرض عليه الذهاب معنا ، استغفر العكّام الله ، ولعننا ولعن (جليلة) وآباءها وكفّرها وأخرجها من الدين ، فرحت أنا أورد له فتاوى بعض علمائنا الذين يخالفون من يزعم أن الغناء محرم في السماع وفي طليعة أولئك كانت فتاوى المرجع الكبير الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، وفتاوى المجتهد الكبير الشيخ محمد حسين البزدي الـذي كان يقول ان الإسلام يجيز كل شيء ما لم يكن فيه ضرر له ولغيره ، ولا شك ان الغناء مشمول بهذه الفتوى ، وطال الكلام ، ولكن كلام العكام كان يشتد في الممانعة حتى

اضطررت إلى أن أهمس في أذنه قائلاً : أيذهب معنا أو أخبر الرفاق بما اتفقنا عليه أنا وأنت ؟ وهنا وافق بشيء من الرياء والتظاهر بالاكراه ، وجلبنا له اليشماغ والعقال من أحد خدم الشيخ عبادي آل حسين الذي كان يومها نائباً في المجلس النيابي ، وقضينا ليلة مفرحة بسبب تعليقات العكام على غناء (جليلة العراقية) وجوقتها .

- ٩ -

وافترقنا زميلين يوم تركت أنا (المعارف) واشتغلت بالصحافة ، فقد سئمت التعليم بالرغم من أني لم أقض فيه سنين طويلة ، وبقي هو حتى بلغ نهاية درجة (التقاعد) في مثل رتبته اذ كان مخلوقاً للتعليم فطرة ، فهو فضلاً عن أنه كان أستاذاً لامعاً ومعلماً يحسن تعليم أية مادة من العلوم الابتدائية كالحساب والهندسة والجغرافيا بالاضافة إلى العلوم العربية ، فانه تولى في بعض السنين تدريس الرياضة البدنية حتى لم يجدوا أحداً يحسن تدريسها وهو يومذاك لم يزل يعتمر العمامة ، ولم يشهد تاريخ مدارس العراق — على ما أظن — معمماً يعلّم الرياضة البدنية ويعلم الأولاد ألعاب (الكرة) بكل أصنافها المألوفة في المدارس غير الشيخ عبد المنعم العكام المعمم بالعمامة الشيعية التي تمتاز بكبر حجمها ، وعدد طياتها على عمائم المذاهب الأخرى ، وكانت له من الملكات ما تجعل مادة الدرس نافذة في أذهان الطلاب حتى البلداء منهم ، وهو بعد ذلك محبوب من كل من درس عليه لكثرة ما كان يمزج الجد بالهزل .

وظل العكام يتردد عليّ بدون انقطاع في مكتب الجريدة وأنا وهو لم نزل في النجف ، وقد نشرت له في جريدتي بعض الشعر وبعض النثر ، وهو في شعره كما هو في نثره أديب ألمعي مشرق الديباجة يحسن رصف الكلمات في انسجام ورقة ، وانتقلت أنا إلى بغداد بجريدتي وانتقل هو

الآخر إلى بغداد مديراً لإحدى المدارس ، واشترى بيتاً في محلة العطيفية ، وكان هنا أيضاً لم ينقطع عن زيارتي في مكتب الجريدة غالبـاً وفي بيتي غبّاً ، وجاءني مرة بصديق قديم من أهل البصرة كان يبحث عن مكتب الجريدة ولم يهتد اليه ، وحين سألته عمن هداه اليّ وكيف عرف مكتب (الهاتف) قال العكام مستشهداً :

إذا كان الغراب دليل قـــوم يدليهم على الأرض الخـراب

ثم مرت فترة طويلة قلّ مروره فيها عليّ لاسيما بعد أن أغلق « الهاتف» بمرسوم وأحيل العكام على المعاش،ويبدو ان الشوق إلى الماضي قد عمل في نفسه ما عمل ، وهاجت ذكريات أيام الشباب في نفسه ، فحنّ ، وتحوّل حنينه وشوقه إلى قصيدة فوجئت بها منشورة في العدد ٢٦٨ وتاريخ ١٩٦٥/٣/٣٠ من جريدة (البلد) لصاحبها عبد القادر البراك ، وهي مقدّمة من لدن صاحب الجريدة بهذه المقدمة التي تقول عنه وعن قصيدته ما يـلي :

« هذه قصيدة أوحتها ذكريات في نفس ناظمها الأديب المفضال الأستاذ عبد المنعم العكام عن أدوار الصبا التي جمعت بينه وبـين ... جعفر الخليلي في مدينة النجف الأشرف ، والأستاذ العكام من أساتذة الأدب العربي ، وكانت له حلقة تدريس كبيرة تخرّج فيها عدد غير قليل من الأدباء ، وللكثير منهم اليوم مقامه ، ومركزه ، وقد أهدى قصيدته هذه إلى ... جعفر الخليلي حاملة ذكريات أحلامه الحلوة » .

ثم تجيء القصيدة بعد تلك المقدمة منشورة في مكان بارز من الجريدة ، ويشير فيها العكّام إلى كتاب لي باسم (في قرى الجن) الذي تتبع العكام قراءة فصوله في جريدة الهاتف قبل جمعه وطبعه في كتاب مستقل أعيد طبعه غير مرة ، أما القصيدة فهذه التي يقول فيها العكام :

حيّتك أنشودة بالبشر تزدان حديثها فيه أنغام وألحـــان

أتتك تحمل أحلاماً إذا خطرت ... تخضّل شوقاً لها بالدمع أردان
أتت تزفّ لك الذكرى بسالفنا ... أيام نحن على الضراء اخوان
في معشر عزّزوا للعلم شوكته ... وشيد في ربعهم للدين عنوان
وموطن هو للعافين منتجع ... ومنهل سائغ ان حار ظمئآن
تنمى إلى النجف العالي أرومتنا ... ففي رباها لنا عش واوكان
في تربة المرتضى أعوادنا غرست ... شكراً لمن غرسوها حيثما كانوا
ان يلحق الناس فخر في مواطنهم ... فهل تقاس بها في الأرض أوطان
فمن سناها لنا علم ومعرفة ... ومن صداها بنا نطق وتبيان
كتابها و (نوادينا) خمائلها ... فنحن أزهارها والعلم ريحان
وننظم الشعر لا نبغي به طمعاً ... من حاكمين ولا زلفى لمن خانوا
لا يعتري الاثم والفحشاء حوزتنا ... ونحن في ريعان العمر شبان
وأنت يا (جعفر) يا قطب دارتنا ... ان ضمنا لفنون القول ديوان
قد شدت من أدب الأحرار مندثراً ... أخنت عليه مع الاهمال أزمان
وجلتَ تسبق في ميدانه زمراً ... منهم أساطين تأليف واركان
ففي (قرى الجن) اعجاز اتيت به ... لم يأته قبل في التأليف انسان

* * *

آل الخليلي بين الناس ان ذكروا ... وجال للسبق في الافضال ميدان
قامت لتشهد في بغداد فضلهم ... من الخلائق أرواح وأبدان
الدين ، والعلم ، والاخلاق ، شيمتهم ... وسيرهم في الورى برّ واحسان

بغداد — عبد المنعم العكام

وحين صدر الجزء الثاني من كتابي (هكذا عرفتهم) حملت نسخة منه وتوجهت أسأل عنه في الجهة التي وصف لي الواصفون محل دارته من (العطيفية) حتى اهتديت اليه ، وعبثاً رحت أضغط على الجرس وأطرق على الباب ، وحين يئست طرقت باب الجيران سائلاً عن أسباب خلو البيت

من السكان ، فقيل لي ان العكام قد عاد إلى العمامة فاعتمرها من جديد وأقبل يجدد عهود الفقه والأصول وقد انتدب للامامة بمدينة (المحمودية) ! !

وظللت أفكر ؟ كيف رجع العكام إلى العمامة ، وان من الغالب أن يكون هؤلاء المتصدون للإمامة متجهمين عبوسين قليلي الحركة والكلام ليكون لكل ذلك تأثير في نفوس المؤتمين بهم ، وليت شعري كيف استطاع هذا الأديب الفكه اللطيف أن يوفق بين مزاجه ومقتضيات الإمامة ؟

وعلمت ولا أدري كيف ؟ وكان ذلك في شهر شباط من سنة ١٩٧٤ بأن العكام قد عاد من المحمودية إلى بغداد ، وأن له ابن عم خياط لم يبعد عني كثيراً فقصدته ، وسألته عنه وعن تلفونه ، وسرعان ما حمل السماعة واتصل بالعكام وقال له ان صديقاً هنا يريد أن يكلمه .

ومسكت أنا بسماعة التلفون وقلت له :

ان الكرام إذا ما أيسروا ذكـروا من كان يالفهم في المنزل الخشن

وعقبت قائلاً : وأشهد أني لست من الكرام كما أني لست من الموسرين ومع ذلك فلم تغب ذكراك عن بالي ، وأنا شديد الشوق اليك .

فردّ عليّ قائلاً : ــ وأنا كذلك لست من الكرام ولا الميسورين لا أذكرك لأني لا أعرف من تكون أنت ، فمن تكون ؟

قلت ــ أنا فلان ،

وشهق ، وهلّل ، ورحّب ، واستبشر ، وقال لي لِمَ لم تسأل عني ؟؟ قلت والله قد فعلت ، واهتديت إلى بيتك ، وقصدتك فيه ، وقيل لي انك عدت إلى سالف عهدك تواصل ما انقطع من دراسة الفقه والأصول ، وانك قد انتدبت عالماً روحانياً لمدينة (المحمودية) وقد تركت الآن

المحمودية وعدت إلى بغداد ، وأنا حائر في كل ما سمعت عنك فهل هذا صحيـــح ؟

قال : ان في المحمودية عالماً روحانياً مزيفاً يدعي العلم وهو من الجهل بحيث لا يميز الكوع من البوع على حد ما يصفون ، وقد أضلّ الناس فيما كان يروي من الأحاديث المضللة ، والخرافات الشائعة ، ويجمع المال باسم الزكاة وحق الإمام ، وقد أراد المرجع الأعلى ــ وكان يومذاك السيد محسن الحكيم ــ عزله حين بلغه شيء من نهجه ، وسلوكه ، فتمرّد عليه وعصى ، لذلك أمرني ــ يقول العكام ــ أن أتولى أنا إمامة (المحمودية) وكان أن توجهت إلى (المحمودية) وجرت بيني وبين هذا الدجال مناسبات أظهرت فيها زيفه ودجله بمحضر كثير ممن كان يستطيع أن يميز بين الصحيح وغير الصحيح ، ورحت أوجه له بعض الأسئلة التي تعرّيه وتفضحه فكان يعجز عن الاجابة أو يجيب بأجوبة مضحكة ليس لها بالأسئلة علاقة من بعيد أو قريب ، لذلك استصغرت شأنه ، ورحت أسخر به وأتندر حتى بلغ الحال أن صرت أسأله عن اعراب (قل هو الله أحد) فيتمتم ويحرّف فقلت للعكام ــ وأخيراً ؟

قال ــ ما مرت أيام إلا وقد سخّر بعض الجهال من مريديه بأن يشيعوا عني بأني جاسوس ، وبدأ يحرّض الأوباش الملتفين حوله وممن استخدمهم بالنقود والاستمالة على رمي البيت الذي استأجرته بالحجارة ليلاً وفي بعض الفرص المناسبة من النهار ، وأنا كما تعلم لست من أرباب المشكلات لكي أشتكي إلى الشرطة أو أتخذ مثل هذه الأساليب ، لذلك اضطررت حين كثر الضغط علي أن أفرّ ذات يوم تحت جنح الليل وأعود إلى بغداد هاربـــاً ...

وسألته عن ابنه (منذر) وكان قد أنفق عليه ، وبعث به إلى ألمانيا للتخصص ، وحصل له على شهادة عالية ، وسكن هناك فقال لي :

ـ لا هلّ هلاله ـ مشيراً بذلك إلى بيت الشعر الـذي كنت قد قلته أنا في مولد منذر من قولي (هلّت بمنذر في سماك فحققت .. الخ) ـ فعلمت ان العلاقة بينه وبين ابنه متوترة ، ثم قال لي : وقد لا تعلم أنني مريض واني غير قادر على الخروج من البيت ، فهل بامكانك أن تزورني في أيام الجمع ، قلت ـ ولِم .. لا ؟ وأنا جد مشتاق اليك ، لاسيما وأنا لم أرك منذ زمن بعيد .

وشغلني انتقالي من بيت إلى بيت كما عاقني (النقرس) الذي اعتاد أن يداهمني بين حين وآخر عن الاسراع في زيارته ، وظللت أسوّف في الوقت حتى طرق سماعي خبر وفاته وكان ذلك في يوم الثلاثاء غرة ربيع الأول ١٣٩٤ المصادف لليوم ١٩٧٤/٣/٢٦ ونقل إلى النجف ودفن فيها .

وكنت قد قرأت منذ عهد قريب للدكتور عبد السلام العجيلي خبر امرأة استخرجت عظام زوجها من المقبرة حين طلبت الحكومة السورية تغيير صفة المقبرة في مدينة الرقة ، وصدور أمرها بنقل أجداث الموتى وعظامهم من هذه المقبرة إلى المقبرة الجديدة التي عينتها الحكومة ، لقد نقلت هذه المرأة عظام زوجها في كيس وذهبت بها إلى بيتها قبل الاتجاه بها إلى المقبرة الجديدة لدفنها من جديد ، وهناك في البيت وضعت كيس العظام أمام عينيها ، وكما لو كان زوجها حياً يسمع ما تقول بدأت تحدثه عما حدث خلال هذه السنوات التي فارق فيها زوجها الدنيا ، وعما فعلت ذكرى زوجها في نفسها ، وما كان لفراقه من أثر في بيته وعلى أولاده ، فاذا بي أقف نفس الموقف كما لو كان أمامي جدث العكام ماثلاً ، أو لو انني كنت منكفئاً على قبره أتحدث اليه عما جرى بعده وما خلّف من فراغ لم يستطع مالىء أن يملأه بعده ، سارداً عليه خبر اللوعة التي غمرت كل وجودي بسبب فراقه ، ذاكراً ما كان لتلك الأيام الحلوة الجميلة ، وما كان لذلك الوجه الصبوح الضاحك من الأثر الممض في نفسي الكئيبة .

واليوم أناديه بصوت تخنقه العبرات أن يقوم من قبره، وانتحب ، وأصبّ الدموع كما تفعل المرأة المرهفة الحس التي لا تستعين على نكد الدنيا في ساعة المحنة بغير الانتحاب ، وصبّ الدموع ، رحم الله العكام ، وطاب الله ثراه ، وأحسن مثواه .

كيف عرفت
محمد علي الطاهر
١٨٩٤ - ١٩٧٤

- ١ -

في أواخر العشرينات وأنا أصدر جريدة (الفجر الصادق) في النجف الأشرف ، أو في أوائل الثلاثينات وأنا أصدر جريدة (الراعي) ثم جريدة (الهاتف) كانت تصل اليّ صحف ومجلات بطريق المبادلة، وذات يوم تلقيت فيما تلقيت صحيفة بأربع صفحات من الحجم الكبير من حجوم الجرائد باسم (الشورى) وعليها اسم أسمع به لأول مرة وهو (محمد علي الطاهر) ، أما أخي (عباس الخليلي) فقد كان يعرفه من أوائل العشرينات بالسماع كما حدثني بذلك محمد علي الطاهر فيما بعد ، وأراني نسخة من جريدة (اقدام) التي يحتفظ بها (الطاهر) والتي كان يصدرها أخي بطهران بعد أن نجا من حبل المشنقة ، عند حصار الانكليز للنجف في ثورتها سنة ١٩١٨ وفرّ إلى طهران كما مرّ حديثه في الجزء الرابع من كتابي (هكذا عرفتهم)

وفي هذا العدد الذي أرانيه الطاهر من جريدة (اقدام) مقال كان قد كتبه محمد علي الطاهر عن فلسطين ووعد بلفور ، والاستعمار الانكليزي

الغاشم ، وما ينبغي أن يفعله العرب لتدارك الأمر منذ هذة الساعة . وقد خصّ (الطاهر) المقال بجريدة (اقدام) وقام أخي عباس بترجمته إلى الفارسية . ونشره في جريدته مع مقدمة ضافية عن القضية الفلسطينية وعن صاحب المقال محمد علي الطاهر وشرح واف عن جهاده في سبيل الحرية والذب عن فلسطين ، وكان تاريخ هذا العدد من (اقدام) يعود إلى سنة ١٩٢٢ أي قبل صدور العدد الأول من جريدة (الشورى) بسنتين لأن العدد الأول من جريدة (الشورى) كان سنة ١٩٢٤ م والعجب من أمر الطاهر هو كيفية احتفاظه بمثل هذه الأعداد ، والجزازات من الصحف والرسائل والوثائق ، والصور التي كان ينوي أن يؤلف منها كتاباً يتضمن مذكراته ، وقد شرع بهذا فعلاً وأشرف على طبعه بمعونة أديب مروة صاحب مجلة (السياحة) ببيروت ، وتوفي قبل أن ينتهي الكتاب من الطبع ، وقد تم طبعه بعد وفاته باسم (خمسون عاماً في القضية العربيه) وقامت السيدة أم الحسن عقيلته باهداء بعض النسخ منه على بعض الأصدقاء الذين حضروا ذكرى تأبينه في بيته بمناسبة مرور سنة على وفاته ، ولم أطلع عليه أنا حتى كتابة هذه السطور ، وكل ما أعلم عنه انه حكاية مجاهد عربي مسلم ، صادق في وطنيته ، وقد وقف كل وجوده ، وأحاسيسه على القضية العربية والفلسطينية بصورة خاصة ، ومات شهيداً في سبيلها ، لأن الأمراض التي كان يعانيها ، والتي قضت عليه كانت كلها بسبب تفتت كبده ، وعذاب روحه الذي خلفته قضية فلسطين في نفسه .

أقول : لقد عرفت اسم الطاهر هذا لأول مرة من جريدة (الشورى) التي بدأت تصل اليّ بطريق المبادلة مع احدى صحفي التي لا أذكر أيها كانت تلك الصحف ، كما لا أذكر المدى الذي ظلت جريدته تصل اليّ والتي استطعت أن أتعرف عن طريقها ببعض من لم أكن قد عرفتهم وذلك بما كانوا ينشرون فيها من مقالاتهم ، وأشعارهم ، وفي طليعة أولئك كان الأمير شكيب ارسلان الذي لم أكن أعرف عنه أكثر من انه كان

شاعراً بليغاً، وكاتباً بارعاً ، ولعلو كعبه في الصناعتين سمي (بأمير البيان) وقد جاءت هذه المعرفة بين هذه المعلومات التي كنت قد عرفتها عن طريق مجلة (الزهور) التي كان يصدرها (أنطون الجميل) و(أمين تقي الدين) في القاهرة ، اما أن يكون الأمير شكيب ارسلان أول رجل عمل للاسلام ، وعمل للعرب — ولا غرابة في هذا فالدروز عرب أقحاح — ما لم يعمل المسلمون والعرب في ذلك الوقت فهذا ما عرفته لأول مرة في (الشورى) ثم تتبعت بعد ذلك سيرة الأمير شكيب وأخيه الأمير عادل ارسلان فاذا به يؤلف في كل من فرنسا ، واسبانيا ، وسويسرا ، جمعيات من الأصدقاء يؤيدون كل حركة تخص العرب والاسلام، وبين هؤلاء الأصدقاء عدد من النواب في البرلمان ، وكتاب أدباء ، ومحررون صحافيون يجمع بينهم وبين الأمير شكيب الاخلاص للبشرية ، وحب الحرية ، وكره الاستعمار ، فكان الأمير شكيب يحملهم على الاحتجاج ، والدفاع عن كيان المسلمين والمطالبة بالاستقلال للأقطار العربية كلما حدثت مناسبة ، وقد بلغ من أمره ، وهو منفي من لبنان وسوريا ان كان يتنقل بين فرنسا ، واسبانيا فيعرض على تلك الجماعات التي ألف منها أصدقاء للعرب ما كان يصل اليه من استشارات ، وأخبار ، فيتخذ واياهم أنجع السبل لاسماع أصوات الأحرار العرب وما ينزله بهم الانكليز وفرنسا من اضطهاد ، وتشريد ، وأحكام جائرة ، ولطالما ظهرت آثار هذا الاحتجاج من لدن أصدقاء العرب بمسعى من الأمير شكيب في البرلمانات ، والصحف ، وعلى أعواد المنابر ، ولا أحسب أن مؤرخاً يستطيع أن يتجاهل شكيب ارسلان ومساعيه في نيل استقلال الأقطار العربية وعلى الأخص ما كان يخص به ليبيا ، والمغرب ، والجزائر الأقطار التي كثيراً ما تكلم باسمها ، واحتج ، ودافع عنها ، وقابل من بيدهم الحل والعقد من دول الاستعمار بشأنها .

ولقد مررت على قبره ، وقبر أخيه عادل ارسلان الذي كان هو الآخر قطباً من الأقطاب التي دارت عليها رحى القضية العربية ، وقبرهما يقع في

الطريق بين سوق الغرب وبيروت من جهة الغرب ، وساءني أن أجد المقبرة لا تلائم ذكرى رجل كالأمير شكيب ارسلان بالرغم من الادعاء والتبجح الذي أبدته الحكومة اللبنانية ، والهيئة التي تولت القيام بتشييد هذين الضريحين ، وان الأمير والله أحد مفاخر المسلمين والعرب الكبرى فضلاً عن كونه أكبر مفخرة للدروز في عصره من حيث غزارة العلم ، والنبوغ الأدبي الذي لم يجاره فيه أحد في جميع أدوار تاريخ الدروز الأدبي ، والوطنية الصادقة التي تجرع بسببها مرارة النفي والتشريد وهو بعيد عن وطنه .

ومن الحق أن أذكر ان مصدراً آخر إلى جانب (الشورى) قد عرفني بالأمير شكيب ارسلان ، وهو تعليقه على كتاب (حاضر العالم الإسلامي) وهو كتاب جليل القدر كتبه أميركي بالانكليزية فقام عجاج نويهض بترجمته إلى العربية ، وكان عجاج يومذاك في القدس . وقد لقي في سبيل ترجمة هذا الكتاب من العناء والمشقة وشظف العيش ما لا يصبر على معاناتها إلا المؤمنون الناذرون أنفسهم لوجه الله،والا الذابون عن الحق أينما كان وحيث وجد ، ومن الممكن الاطلاع على بعض جهاد هذا الرجل من المقدمة التي وردت في الطبعة الثانية من هذا الكتاب النفيس الذي كان يعلق عليه شكيب ارسلان ، ويكتب حواشيه وهو لم يزل مسودة ويبعث بما يكتب إلى مترجمه عجاج نويهض لتقديمه للطبع ، وعجاج نويهض هو الآخر أحد مفاخر أهل الفضل ، وصدق العقيدة من المسلمين والعرب بين طائفة (الدروز) وهو الآخر ينفرد بخصال من العلم ، والأدب ، والحمية ، وصدق الوطنية ، وقد رافق النهضة العربية منذ أول نشأتها ، ومن المؤسف أن يعيش هذا الرجل اليوم في مسقط رأسه (رأس المتن) من لبنان ، كما يعيش القديسون في صوامعهم شبه منسيين من رجالات الحكم الذين كان الواجب عليهم ولا سيما سوريا ، والأردن ، أن يقيموا له تمثالاً في القدس، وفي عمّان ، وفي الشام ، ويحوطوه بالتكريم ويسدوا حاجته ليبرهنوا بأنهم لم ينسوه عالماً،

وأديباً ، ومجاهداً ، وصحافياً ، ومن أقدم من كان يذب عن فلسطين في أيام الاحتلال .

وفي هذه الجريدة ــ اعني (الشورى) ــ بدأت اعرف ما لصاحبها الطاهر من قيمة ، وأحس بمكانته كرجل متحمس ينزع إلى الحريّة ، والاستقلال ، ويحارب الاستعمار ، والانكليز بصورة خاصة ، بكل ما يقوى عليه ، ويقدر منه في وقت كان من الصعب أن ينبس الوطني العادي بكلمة اعتيادية فكيف بالوطني المتطرف المتحمس من أمثال الطاهر ؟ والعجيب من أمر (الطاهر)أنه كان من أوائل من أدركوا ما سيجرّ اليه وعد بلفور من الويلات على العرب إن لم يتخذوا له الحيطة اللازمة منذ اليوم الأول ...

وقد علمت فيما بعد ان الطاهر من أسرة فلسطينية عريقة ، وانه من مواليد (نابلس) ولد سنة ١٨٩٤ وقال بعضهم انه من مواليد سنة ١٨٩٦ أو من مواليد ١٨٩٠ ، وبعد أن درس الاعدادية بنابلس عمل موظف بريد في فلسطين ثم انتقل إلى القاهرة قبل قيام الحرب العظمى الأولى ، وحشر نفسه مع الوطنيين من المصريين والجوالي الغربية الناقمين على الانكليز ، وراح يؤلبهم على الاستعمار الانكليزي حتّى شاع أمره فقبض عليه ، وسجن ، وظل رهن السجن إلى أن ألقت الحرب الأولى أوزارها وزالت آثارها لحد ما ، فعاد (الطاهر) إلى نابلس من جديد ، ولكنه لم يجد في الميدان متسعاً للكفاح والجهاد ، فعاد إلى مصر مرة أخرى .

ــ ٢ ــ

وعلمت كذلك ان لأسرة الطاهر تاريخاً عريقاً اطلعت على تفاصيله فيما بعد من كتاب مخطوط كتبه الأستاذ (علي نصوح الطاهر) الوزير الأردني المعروف الذي استوزر غير مرة ثم صار سفيراً للأردن بطهران ، وكنا أنا والدكتور صلاح الدين المنجد في ضيافته بأصفهان يوم دعتنا ايران للانضمام

إلى مؤتمر علماء التاريخ فدعانا (علي نصوح الطاهر) وحملنا بسيارته بعد ارفضاض المؤتمر إلى زيارة (إصفهان) وهناك دفع لي كتابه عن الأسرة لأقضي به شطراً من الليل قبل أن أنام ، وإذا بالكتاب تأريخ مفصل لأسرة عربية عريقة كان لها شأن في ماضيها البعيد والقريب ، وقد برز فيها رجال أكفاء تركوا في حقل الخدمات العامة آثاراً عميقة ، فقضيت الشطر الأكبر من تلك الليلة متتبعاً أصول هذه الأسرة وتراجم اللامعين من أعضائها ، ولم تزل حتى اليوم تلمع منها أسماء معروفة مثل الدكتور حسين الطاهر الذي كان يقيم في الرياض طبيباً اختصاصياً وقد توفاه الله أخيراً ، ومثل أخيه علي نصوح الطاهر وهو أحد أعلام المهندسين الزراعيين ، والمفكرين الدبلوماسيين . ويعكف الآن على تفسير جديد للقرآن الكريم قرأت منه فصلاً بمنزله في مصر الجديدة من القاهرة ، ولا يستبعد أن يحدث هذا التفسير ضجة كبرى إذا كتب له أن يخرج إلى حيّز الطبع لمخالفته للكثير من آراء المفسرين في تفاسيرهم .

وفي هجرة محمد علي الطاهر من نابلس إلى القاهرة كان قد فتح له دكاناً بخان الخليلي لبيع الزيت ، وفي هذا الدكان كان يجتمع عنده جمع ممن يشاركونه آراءه ، وأفكاره الوطنية . ومن هؤلاء كان جورج صيدح الشاعر الكبير الذي كتب من باريس إلى ألبير أديب صاحب مجلة (الأديب) ببيروت يوم قرأ نعي محمد علي الطاهر في المجلة يقول :

« قرأت نعي المجاهد الفذ محمد علي الطاهر صديق عمري ، ورفيق صباي في مصر ، وان صداقتنا لتعود إلى عام ١٩١٤ اذ كان هو يبيع الزيت في (خان الخليلي) وأنا أبيع الحرائر ، والأجواخ في (السكة الجديدة) ، وهذا النعي طوى ستين صفحة من كتاب عمري ، ولم يبق لي غير صفحات اللوعة والنحيب على الراحل الحبيب ، أراجعها بنفس هالعة ، وعين دامعة ، ما دمت حياً » .

وكان محمد علي الطاهر يسكن مع أقفاص الدجاج في أعلى السطوح من احدى العمارات في القاهرة قبل أن يتزوج ويفتح له بيتاً ويصدر (الشورى) ولست بناس جريدة (الشورى) وما خلّفت في نفسي من أثر جعلني أتتبع أخبار صاحبها ، وأود التعرف به عن كثب ، وأخيراً أغلقت السلطات الانكليزية هذه الجريدة ، ويبدو انه لم تكن هذه أول مرة تغلق فيها الحكومة جريدة (الشورى) فقد سبق أن أغلقتها غير مرة ثم أفرجت عنها ، وكان الطاهر يستعين طوال احتجابها ببعض الأصدقاء الذين يملكون امتياز بعض الصحف دون أن يصدروها فيعيرون صحفهم له عن طيب خاطر ، وكان في طليعة من فعل هذا برغبة وايمان بكفاح (الطاهر) هو الدكتور محمود عزمي الذي كان في امتيازه صحيفتان ، أحداها باسم (الجديد) وقد تنازل عنها للطاهر ، وأغلقتها له الحكومة ، فتنازل له عن الثانية وهي (الشباب) الجريدة السياسية الأسبوعية ، والدكتور محمود عزميمن ألمع رجال القانون ، والسياسة ، والصحافة ، ولا أحسب ان أحداً في الأقطار العربية من كان يتفهم نهج السياسة الدولية ويحسن استنتاج الوقائع من الأخبار ، وما كان يجري في العالم السياسي الدولي نظيره ، وقد مات فجأة وهو يلقي خطبته في (هيئة الأمم المتحدة) ممثلاً لمصر اذا لم يكن في (جامعة الدول العربية) ففاجأته المنية على غير انتظار .

ومحمود عزمي كان عضواً بحزب (الأحرار الدستوريين) وكان لمقالاته السياسية وتعليقاته على الأخبار والحوادث ، وما يستنبط منها ويتنبأ،صدى بين قراء جريدة (السياسة الأسبوعية) بحيث كان الكثير من هذه المقالات والآراء تترجم إلى اللغات الأجنبية وتتناقلها صحفهم ، وقد استعارت الحكومة العراقية خدماته عميداً لكلية الحقوق ببغداد ، وأصيب باحدى رصاصات الطالب الذي اعتدى على أحد الأساتذة المصريين لرسوبه في دروسه واصاب منه مقتلاً ،وخرج عزمي جريحاً وسافر إلى مصر ولم يرض بالبقاء في بغداد وظل يعالج جرحه مـــدة طويلة بسبب مـــا كان يعاني

من داء السكر ، وقد خسر العراق بتركه كلية الحقوق عالماً حقوقياً بارّعاً وأستاذاً من أكابر الأساتيذ في دنيا الصحافة ، ووطنياً يتدفق شعوراً واحساساً بالعرب والعروبة يو م لم يكن للعروبة في مصر شأن كما هو اليـــوم .

وحين أعار محمود عزمي صحيفة (الشباب) لمحمد علي الطاهر كتب له هذه الرسالة التي نقلها يعقوب العودات (البدوي الملثم) في استعراضه لسيرة محمد علي الطاهر ،وهذا هو نص الرسالة التي وجهها الدكتور (عزمي) لمحمد علي الطاهر يوم أعاره صحيفة الشباب بعد صحيفة (الجديد) التي أغلقتها الحكومة ، يقول فيها :

« أخي وعزيزي الأستاذ محمد علي الطاهر

ما أشبه الليلة بالبارحة ، في سنة ١٩٢٦ حيل بينك وبين اصدار جريدتك الجريئة الصادقة (الشورى) وكان (الجديد) لي فقدمته لك تصدره كما تشاء حتى لا يسكت صوت المدافع عن الحقوق العربية جميعاً ، واليوم يحال دون استئناف جهادك بالامتناع عن استئناف التصريح لك باصدار (الشورى) ولدي مجلة (الشباب) فأبادر بتقديمها إليك تصدرها ، وتشرف على تحريرها ،وادارتها بمطلق حريتك دفاعاً من الحقوق العربية التي تعرف أنت قدر شغفي بتأييدها ، وتدعيمها ، وبمطلق تصرفك ، فيما يتصل بايراداتها ، ومصروفاتها ، راجياً أن أساهم بهذا بعض المساهمة في نصرة القضية العربية الكبرى ، وفي طي هذا كتابان أحدهما لمصلحة الصحافة والنشر والثقافة ، وثانيهما لمصلحة البريد ، متصلان بتنفيذ وضعي (الشباب) تحت تصرفك، أرجو أن تتفضل بابلاغهما إلى جهتي الاختصاص، وعد يا أبا الحسن إلى جهادك الصحفي المقدور في سبيل العروبة والحرية » .

محمود عزمي

- ٣ -

واحتجبت (الشورى) عني ، ولكني لم أقطع جريدة (الهاتف) عن الطاهر إلا حين بدأت تعود (الهاتف) إليّ من مصر وعليها اشارة تدل على أن عنوان الرجل مجهول ! ثم علمت بعد ذلك انه قد قبض عليه في أثناء الحرب الثانية وزجّ في السجن وكان ذلك في سنة ١٩٤٠ . أما كيف سجن ؟ وكيف استطاع أن يتمارض حتى خفي أمره على الأطباء فنقلوه من السجن إلى المستشفى تحت حراسة شديدة ، وفوض أمر حراسته إلى شرطي مسلّح كان يلازم باب غرفته ، ويمنع الاتصال به طوال اقامته في هذه الغرفة ؟ ثم كيف استطاع أن يستولي على أفكار هذا الشرطي ويستخدمه لقضاء حاجاته ، حتى إذا وجد الفرصة السانحة للهروب فرّ من المستشفى وهرب ؟ فهذا ما لم أعرفه إلا بعد سنين حين أتيح لي أن أقرأ كتابه (في ظلام السجن) وكتاب (في ظلام السجن) هذا عبارة عن مذكرات ، وآراء سياسية ، وعروض مختلفة عن أشخاص وحوادث كتبها محمد علي الطاهر في الحرب العظمى الثانية ، وسجل فيها آراء جمهرة من زعماء الحركة الوطنية ورجال السياسة في القضايا الدولية العامة ، والقضايا العربية ، وقضية فلسطين بصورة خاصة ، إلى جانب بعض الصفحات من قصة حياته ، ويمتاز هذا الكتاب بكونه سجلاً حافلاً بالحوادث والأسرار التي يفتقر إلى معرفتها كل عربي ، بل وكل قارىء يهمه التاريخ ، وبخاصة المسلمين والعرب ، ثم هو بعد ذلك قاموس لترجمة عدد من رجالات السياسة ورجال العلم ، وأهل الفن والأدب ، والعسكريين ممن تستدعي مناسبة الحديث أن يمرّ ذكرهم في هذا الكتاب مهما كان شأنهم ، طيبين أم غير طيبين ، بريئين في نظر محمد علي الطاهر أم متهمين ، بررة أم خائنين ، فيعرض الكتاب الجوانب المجهولة عن هؤلاء وما هم عليه كما يراه هو ...

وتجمع هذه المذكرات بين الطرفة والحكاية ، والشعر الذي كثيراً ما

يأتي به (الطاهر) شاهداً ، وإن أهم ما في هذه المذكرات هو أنك إذا اختلفت مع كاتبها في رأي فقد تتفق معه في آراء كثيرة ، ولن يعكر اختلافه صفو انجذابك اليه ، ومتعتك بقرائته ، فهو من الكتب الحبيبة إلى نفس كل قارىء حتى وإن لم يكن عربياً ولا مسلماً ، ويكفي أن يكون أثراً من آثار مجاهد كبير أفنى عمره في خدمة العرب والاسلام .

ولم تقتصر مؤلفات (الطاهر) على هذا الكتاب وحده ، فقد صدرت له عدة كتب منها (أوراق مجموعة) و (ذكرى الأمير شكيب أرسلان) وكتاب عن معتقله لا أذكر اسمه ، وغير ذلك مما غابت عن ذهني أسماؤها .

وقد أمكنني أن أرى (الطاهر) في الكثير من جوانبه وصوره ، فيما قرأت له قبل أن أراه ، وأن ألمس طيبه ، ووفاءه وأتبين أحاسيسه وشعوره ، فهو عند أول الافراج عنه ، واطلاق الحرية له بسبب تدخل النحاس عند تسلمه الحكم للمرة الثانية في أثناء الحرب راح يبحث عن الشرطي الذي كان مكلفاً بحراسته في المستشفى حتى علم بأن هذا الشرطي قد سجن لاهماله مراقبة (الطاهر) وطرد من سلك الشرطة — ولم يزل يسأل عنه حتى وجده بعد مشقة وطول بحث ، لقد وجده عاطلاً عن العمل ، وفي حالة تستدعي الشفقة والرثاء ، وهناك سعى (الطاهر) لارجاعه إلى وظيفته ، وجزاه بأن رفع درجته في مسلكه ، ثم حصل له على مكافأة بعد أن أثبت للسلطة براءة الشرطي من تهمة الاهمال والتقصير ، ثم أكرمه بمقدار من النقود التي عوضت عليه مشقة حبسه .

والمال عند (الطاهر) مأخوذ من معارفه ، وأصدقائه لاعطائه لمن يستحقه من معارفه المعوزين ، أو الذين تضعهم (الصدفة) في طريقه ، فهو دائم الأخذ من أولئك ودائم العطاء لهؤلاء ، كأنه ينقل النقود من يده اليمنى إلى يده اليسرى ، فهو منذ أن عرف الحياة أو عرفته الحياة لم يعرف

شيئاً اسمه المال والنقود ، وطالما قضى حياته في أنكد حال وأشقاها ، وقد كتب لي مرة يقول طالما مرات كثيرة مرّت عليه ولم تصل يده لثمن طابع بريد يردّ به الجواب على رسالة صديق يطلب نجدته !!

ونظير فعله مع الشرطي الحارس فقد فعل (لأحمد حسن البدر) الذي آواه في المنصورة في أثناء تخفّيه وتنكّره عند فراره من السجن الذي ظل سنة كاملة ، وهو يتخفى بين القرى متزيياً بمختلف الأزياء كالعمامة ، والطربوش ، والجبّة ، والجلابيّة واطلاق اللحية حيناً ، وحلقها حيناً آخر تبعاً لمقتضيات الظروف التي تساعد على تخفيه ، وقد قام (الطاهر) لأحمد حسن البدر بخدمات جليلة له ولولده وصهره .

وهناك أدلّة أخرى من الوفاء تعج بها رسائله التي كان يكتبها للأصدقاء ويكتبها لي ذاكراً فيها الأصدقاء الذين نشارك أنا وهو في صداقتهم ، كنظير زيتون ، ووديع فلسطين ، والشيخ جلال الحنفي ، والدكتور محمد حسن سلمان، وعبد الجليل الراوي ويسألني عن بعض من انقطعت أخباره عنه: أين هو الآن ؟ وما هي أخباره ؟ وماذا تعرف عنه ؟ وقلما خليت رسالة من رسائله من ذكر هؤلاء ، وذكر من يتصل بي ممن أعرف أنا ويعرف هو ، الأمر الدال على شدة اهتمامه بأصدقائه ومعارفه ، وانشغال باله براحتهم ، وما هو عليه من الوفاء .

لقد كان يتفقد جميع من يعرفه عن كثب ، ومن يعرفه عن بعد ، فيسأل عنهم ، ويمدّهم بالقصاصات التي تخصهم من الصحف ، وطالما وافاني أنا بالشيء الكثير من هذه الجذاذات التي ورد فيها ذكري أو ذكر أخي عباس مما كان يطلع عليه من الصحف التي تصل اليه من جميع الأقطار العربية والإسلامية كايران ، وأفغانستان ، والباكستان ، والهند ، واندنوسية ، والفليبين ، بالاضافة إلى صحف الأقطار العربية ، كما كان يذكرني لمجرد المحبة في الكثير من رسائله التي يكتبها للأصدقاء ، ويفيض في الاطراء

الذي لا أستحقه ، ويضفي عليّ من ألطافه ما يخجلني ، فمن ذلك على سبيل المثل ما كتبه ذات مرة للشيخ جلال الحنفي عني ، لقد كتب له يقـــول

« .. وشكراً على نقلك تحيات خيار أحبابك لي وخصوصاً ... جعفر الخليلي الذي يعدّ من كبار (السحرة) في العراق ، وما كان العهد بالشرق أن ينجب أهل السحر الذي اختص به المغرب ، فاذا بالأستاذ الخليلي يثبت لنا ان العراق قد زاحم (المغاربة) وسحرني مثلما سحروني ، في حين اني لا أخضع للسحر ولا أؤمن به ، ولكن جاذبية الوداد عند الخليلي كانت شديدة النفوذ إلى أعماق القلوب ، ولذلك أحب أن أحذرك من سلطان المحبوب » .

وحين علم بخروج (يونس بحري) من الوظيفة التي كانت قد أسندت اليه في (أبي ظبي) وما بدأ يعاني من مرض ألزمه الفراش وهو في ديار الغربة (بأبي ظبي) وليس لديه ما يستعين به على القوت والعلاج ، أبرق لرئيس اتحاد الامارات العربية الشيخ زايد برقية ضافية يستلفت فيها أنظاره إلى (يونس بحري) ليهتم بأمره ، ويعتبره من الضيوف الذين لا يجوز التغاضي عنهم في شريعة العرب والعروبة ، وكان من نتيجة تلك البرقية الضافية التي تموج بالعاطفة وهياج الحميّة أن عني الأمير بيونس بحري عناية جد كبيرة فتفقده وأدخله المستشفى ، وبرّ به ، وأغدق عليه أكثر مما كان ينتظر (الطاهر) بعد أن كانت حكومة امارة الاتحاد قد أخرجته من الوظيفة التي كانت قد انتدبته لها بسبب ادمانه الخمر وانفلات زمام الوظيفة من بين يديه لسكره المتواصل .

يقول زهير ماردينى عن محمد علي الطاهر ، والطاهر في أواخر أيامه ما يأتي

« قبل أن يدخل (الطاهر) المستشفى بثلاثة أيام وكان قد أعدّ بضع

مئات من الليرات (اللبنانية) لتكون في جيبه في أثناء مرضه فاذا به يطلب مني أن أذهب إلى البريد ، وأحوّل هذه المئات من الليرات إلى احدى العواصم حيث يقيم أحد المناضلين العرب ممن أعطوا وطنهم كل شيء وبخل عليهم الوطن بثمن الدواء » .

وكثيرة هي أدلة السخاء والوفاء ، والمروءة ، ووضع الشيء في مواضعه عند محمد علي الطاهر .

— ٤ —

وانقطعت أخبار (الطاهر) عني بانقطاع جريدة (الشورى) في الثلاثينات ولم أعد أعرف عنه إلا القليل مما يمرّ عليّ ذكره في بعض الصحف وهو يوقع احتجاجاً على السلطات الفرنسية واضطهادها للأحرار السوريين ، أو شكوى يرفعها هو واخوان له إلى (عصبة الأمم) عما يلاقي الأحرار في فلسطين من تنكيل السلطات الانكليزية بهم ، وغير ذلك مما لم يبق في ذهني شيء منه ، وكل ما كنت أعلمه هو انه كان يقيم بمصر . أما أين يقيم من مصر لكي ألاحقه بجريدتي ، فقد كان هذا مجهولاً عندي الأمر الذي حملني على قطع الجريدة عنه .

ومنذ السنة التي سجن فيها الطاهر بسجنه الأخير وهي سنة ١٩٤٠ حتى أوائل الستينات ضاعت أخبار اقامته نهائياً عني ، ولم أعلم شيئاً عنه ، ولا أعلم شيئاً عن جهاده ، ولم أعد أجد في الصحف من تلك الأخبار الكثيرة التي كنت أجدها من قبل إلا القليل الذي تمرّ عرضاً .

والحق ان مثل محمد علي الطاهر لا يمكن أن ينسى بحال من الأحوال ، ولكن مرور نحو خمس وعشرين سنة دون أن يتردد اسمه على مسامعي أو يقع خبر له تحت عيني قد أنساني الرجل ، شأني شأن جميع الناس إلا القليل منهم ، سامحني الله وسامحهم .

وفي الستينات كان صديقي الشيخ جلال الحنفي منتدباً لتدريس اللغة العربية وآدابها في الصين ، وكانت المراسلة بيني وبينه تكاد لا تنقطع في كل أسبوع أو أسبوعين على الأقل ، وكنت أزور بيروت كلما كان يجهز عندي كتاب جديد لطبعه هناك ، فضلاً عن أني كنت قد اعتدت قضاء الصيف من كل سنة بلبنان باستثناء أيام الحرب العظمى الثانية ، وقد أشارت اذاعة لبنان ذات مرة إليّ وقالت ان الذي زار لبنان أربعين سنة مصطافاً كان جعفر الخليلي كما ذكرت ذلك في غير هذا المكان ، أقول وقد تلقيت ذات مرة وأنا ببيروت رسالة من الشيخ (الحنفي) يقول فيها ، انه من المناسب أن أزور الطاهر في بيته ، وقد وصف لي في هذه الرسالة موقع البيت ، وعيّن الطابق من العمارة .

وهنا علمت بأن (الطاهر) يسكن في بيروت ، وانه انتقل اليها من القاهرة ، واستوطنها بجنسية مصرية ، ولكن الطاهر قد قال لي بعد ذلك : ان لا جنسية له وحتى هذا اليوم يعيش في هذه البقعة من الأرض بدون جنسية !! ولست أدري هل قال لي ذلك لكونه فلسطينياً ، وأن أية جنسية يحملها دون الجنسية الفلسطينية لا تعتبر جنسية حقيقية ، ما دامت فلسطين قد ضاعت فضاع معها الفلسطينيون فما هي هوية من ضاعت بلاده ؟ أم انه قال ذلك جاداً؟ فقد كنت قد علمت بأن مصطفى النحاس قد بعث له بالجنسية المصرية إلى بيته يوم كان في القاهرة لكي يعتبر مصرياً فلا تضايقه السلطات الإنكليزية يوماً ما وتخرجه من البلاد بحجة كونه أجنبياً وغير مرغوب باقامته في مصر .

أقول لقد علمت من الشيخ جلال بأن (الطاهر) يقيم ببيروت منذ سنوات ، وقبل أن أعرف مسكنه ، ومحل اقامته ، ومواعيد زيارته ، وحدثت المقابلة معه فجأة وعلى الصورة التي ذكرتها أنا في استعراضي لكيفية تعرفي بنظير زيتون في الجزء الثاني من كتابي (هكذا عرفتهم) ون بيته مفتوح

من كل أسبوع ، ويزوره عدد من الأعلام من المواطنين بلبنان من أهل البلد أو اللاجئين أو القادمين من الخارج مروراً بلبنان من رجال العلم والأدب والسياسة وزعماء المسلمين في جميع الأقطار ، اذ قلّ من لم يعرف محمد علي الطاهر ، ويعترف له بمكانته في ميدان الكفاح ، والجهاد ، والمروءة ، والوفاء ، وعلى الأخص الذين واكبوا النهضة العربية ، وحاربوا الاستعمار بأيديهم ، وألسنتهم ، وأقلامهم .

وبعد ذلك فان (الطاهر) لا يملك تلفوناً في بيته ، وكل ما يربطه بالخارج صندوق بريد كبير برقم ٤٨٨٨ فيقصده كل يوم بنفسه ويستخرج منه رزماً كبيرة من الصحف والمجلات والرسائل فيحملها كلها ، وأحياناً ينوء بحملها ، ويأتي بها في الغالب مشدودة بخيط من الستلي (الجوت) الذي لا أدري من أين يأتي به ويرزم هذا البريد حين يكون ثقيلاً برزمتين وثلاث أحياناً ، فيحمل كل رزمة بيد واحدة ، ويتأبط الخفيف منها تحت أبطه ثم يذهب بهذه الرزم كل يوم إلى مقهى يقع في وسط (العازارية) يصعد اليه من سلالم معكوفة ملتوية ، فقد كان له من هذا المقهى مكان معلوم ، وكرسي ومنضدة لا يقعد اليها غيره من كان يعرف انها تخصه ، وقد عرف رواد هذا المقهى مجلسه هذا فتحاشوه إلا الغرباء ، وإلا الذين يقل ارتيادهم لهذا المقهى ، وهناك يبدأ الطاهر بفضّ الرسائل أولاً ، ثم القاء نظرة عابرة ، وأحياناً عميقة على الصحف ، وقد يقوم إلى المطعم وهو جناح خاص بهذا المقهى ، ويتناول غداءه فيه في الغالب ، وقد يدعو بعض زائريه من المارين ببيروت إلى هذا المطعم ليتناولوا الغداء معه ، ولا أحسب أن هناك من يستطيع الاعتذار من استجابة دعوته ، ثم هو الذي يأمر لمدعويه بأنواع الطعام ، وليس من حق المدعو أن يفضّل طعاماً على آخر فهو الذي يختار أجود الأطعمة كما يراه هو ، وقد علمت ان له مائدة خاصة في هذا المطعم كمائدته الخاصة في المقهى المتصل بهذا المطعم .

ويخرج بعد ذلك من المطعم لزيارة من تهمه زيارته ، اما لمحض الزيارة أو لقضاء حاجة تخص الناس ، ولا يعود إلى البيت إلا في ساعة لا تقل عن الثانية بعد الظهر وبعد أن يكون قد أكمل برنامجه اليومي في زياراته ، أو وساطاته ، وكثيراً ما استطاع أن يتوصل بمسعاه لاغاثة وطني مشرّد ، أو اعانة طالب يدرس العلم في بلد بعيد ،وقد سدّت في وجهه سبل العيش ،وهنا يكتب الطاهر إلى من يثق به إذا ما اتصلت به حاجة المحتاج ويدله على عنوان الطالب راجياً منه ألا يخيّب رجاءه فيه .ولا أظن أحداً يكتب له الطاهر ويخيب رجاؤه فيه ، وكم سعى الطاهر لدفع أجور المعالجة وسدّد حساب المستشفى لأناس محترمين دخلوا المستشفى وليس لديهم ما ينفقونه من الأجور المطلوبة ، فيتبرع (الطاهر) بما هو تحت يده – وقلما كان تحت يده شيء – بمجرد أن يسمع بأخبارهم . والطاهر ليس لديه مال كما أسلفت ، أو عقار ينفق منه كما قد أشرت من قبل ، لا بل انه من أكثر من يحتاج إلى الانفاق عليه ، لكن للطاهر مكانة عند الذين يعرفونه تجعل منه آمراً يأمر القادرين فيطيعون أمره وهم يعلمون انما يطلب مبلغاً فلكي ينفقه على من يستحقه ، وحاشاه أن يكون قد طلب شيئاً لنفسه ، أو شكا لأحد عوزه ، حتى ولا بالاشارة أو الكتابة ، والذي أعلمه هو أنه كان يتلقى على سبيل الهدية ، بعض المبالغ من جلالة الملك الحسن الثاني ملك المغرب ، ولعل الحبيب أبارقيبة هو الآخر كان يخصه ولكني لم أتثبت أنا من ذلك وكان الطاهر يبوح بما يتلقاه فيحتفظ بشيء منه لنفسه على قدر الحاجة وينفق الباقي على من يعرف احتياجه من المشردين من ديارهم بصورة خاصة ، وأنا أعلم انه طالما ترك نفسه في حيرة وبعث بما يأتيه كله إلى الجنود المجهولين من المجاهدين الذين ينساهم المجتمع فيذكرهم الطاهر ان علم بهم .

ولا يذكر أحد أن الطاهر قد طالب يوماً – مع شدة املاقه – مشاركي جريدته بدفع بدل المشاركة ، وقد لا يبعث له بعض المشاركين في (الشورى) البدل نتيجة سهو ، أو بخل ، أو اهمال ، ولكن الطاهر يظل يبعث له الجريدة دون تذكير ، أو اشارة .

وحين زار الحبيب (ابورقيبة) بغداد في سنة ١٩٤٥ أو في سنة ١٩٤٧ إذا كنت ناسياً ، أولم له الشيخ محمد رضا الشبيبي وليمة عشاء فاخرة في بيته بصفة تكريم حضرها كبار رجال السياسة . وعند الباب حين خروج أبي رقيبة قال الحبيب للشبيبي ، إذا كان بامكانك أن تدفع بدل مشاركتك في جريدة (الشورى) فادفعه لي لأني مخول بتسليم بدل مشاركاتها ، فدهش الشبيبي لأنه كان يحسب أن (الشورى) تصل اليه على سبيل الهدية شأن الصحف الأخرى ، وكان يستبعد أن يكون (الطاهر) يرضى بأن يطالب مثله بشيء — والعهدة على الشبيبي الذي روى هذه الحكاية — وأنكر أن يكون الطاهر قد كلف (أبارقيبة) بجمع بدلات المشاركة والله أعلم . . .

وكثيراً ما كان يأوي المشردون والمنفيون من ديارهم إلى (الطاهر) وهو بدار (الشورى) في القاهرة ، فيتناولون عنده الغداء . والغداء عند الطاهر في الغالب لا يزيد على أرغفة خبز وفول ، وطعمية — على ما علمت — ومن هؤلاء الكثيرين الذين طالما تناولوا غداءهم في مكتب (الشورى) كان رياض الصلح ، وحين رأس الصلح الوزارة وزار مصر لم يمرّ على بيت الطاهر ويسأل عنه ، ولكن الحبيب أبارقيبة فعل هذا حين زار بيروت فزار بيت الطاهر وجلس عنده كما ستجيء الاشارة اليه ، ولم يقتصر اجتماع السياسيين المنفيين على تناول الغداء بل طالما أخفى الطاهر في بيته من كانت تطارده الشرطة من الوطنيين وتبحث عنه ، أما داره ببيروت فكانت المكان الذي يتنفس فيه المتنفس عن همومه وأشجانه ويستروح فيه روح الحرية التي يفتقدها في بلاده ، ويستعين بالطاهر في قضاء حوائجه على قدر ما يتمكن منه الطاهر .

- ٥ -

واهتديت إلى دار الطاهر ، فهي واقعة في أول الشارع المقابل لباب الجامعة الأميركية ببيروت وهو الشارع الذي يأتي بعد شارع عبد العزيز للصاعد إلى فوق ، وفي الطابق الرابع من عمارة متواضعة ، ولم أدر منذ كم كان يقيم الطاهر هنا ؟ ولكني علمت بأن انتقاله إلى بيروت كان في سنة ١٩٥٥ على أغلب الظن ، كذلك لم أدر كم مكث في القاهرة منذ رحلته الأولى قبل قيام الحرب العظمى الأولى ، وعودته إلى فلسطين ، ثم هجرته مرة أخرى إلى مصر التي اتخذها مقراً دائماً له ، وذات ليلة وأنا أزوره وقد صحبني محمد توفيق الغصين اليه ، ذكر لي الطاهر وبمسمع من (الغصين) بأن محمداً هذا كان طفلاً صغيراً حين كنت أقبل على بيتهم بفلسطين ، فكان يركض إلى أبيه مبشراً بأن (عمو الطاهر) قد وصل وهنا أضاف محمد الغصين إلى قول الطاهر يقول بأننا كنا قد خصصنا له غرفة من بيتنا كنا نسميها بغرفة (عمو الطاهر) وكنا نستبقيه كلما زارنا أياماً وليالي على قدر ما كان يستطيع ويستطيب البقاء عندنا .

وكان توفيق الغصين – والد محمد الغصين – شخصية وطنية ذات نفوذ وقدرة وكان من أبرز الزعماء الذين كافحوا الاستعمار ، واشتهروا بجرأتهم ، وشخصيتهم المهيبة ، قبال السلطات الانكليزية في القضية الفلسطينية ، وكانت له بساتين ، وبيارات من الحمضيات ، بل قيل انه من أوائل من دعوا إلى الاهتمام بالاكثار من زراعة البرتقال في فلسطين ، وكان له بيت فخم قد خص جانب منه بالضيوف والزائرين ، وكان البيت مؤثثاً بأحدث الأثاث في تلك الأيام ، وكان محمد الغصين قد أتم دراسته في احدى جامعات انكلترة ، وحين اضطر للهروب سنة ١٩٤٨ ترك كل ما كان يملك أبوه من عقار ، وبيارات عامرة ، وأثاث ، وخرج بسيارته التي أقلّ بها أهل بيته ، وإذا كان الكثير من الفلسطينيين يذكرون ما

أضاعوا من مال وتركوا من عقار في هجرتهم فان محمد الغصين من القلائل الذين لم يجر على ألسنتهم شيء مما أضاعوا على رغم ضخامة ما ضاع منهم ، ولم يسمع أحد منهم حتى ولا اشارة صغيرة إلى ما كانوا يملكون، وما كان لهم من النعم . والرفاه الذي استوى عليه الصهاينة .

في أحد أيام (قبول) الظاهر في بيته وهو واقف في الوسط وقد عرفت من هؤلاء الواقفين إلى يساره زهير الجاويش ، وزهير ماردينى والثاني من يمينه نصوح بابيل

أجل لقد اهتديت إلى بيت (الطاهر) في تلك الشقة المتواضعة التي كانت تزين جدرانها صور لشخصيات اسلامية من الصين ، والفيليبين ، شرقاً إلى أقصى حدود افريقيا جنوباً وغرباً ، وصور لشخصيات عربية لامعة ، ومؤتمرات عقدت في مناسبات وطنية ، وقد احتشدت هذه الصور بعضها إلى جنب بعض حتى لم يبق فراغ في الجدران دون أن تغطيه الصور ، وكل أصحاب هذه الصور من ذوي العلاقة الخاصة بمحمد علي الطاهر ، وبينها حشد كبير لملوك العرب والاسلام ، ورؤساء الجمهوريات ، والأمراء

والزعماء ممن التقاهم ، وخصوه باحترامهم ، وكاتبوه ، وفي مكان بارز صورة للحبيب (أبي رقيبة) الذي زار محمد علي الطاهر في بيته حين زار الحبيب بيروت كما مرت الاشارة ؛ اذ ما كاد يتم استقبال الحبيب الرسمي من لدن الجمهورية اللبنانية حتى أبدى رغبته في زيارة بيت الطاهر ، وتناول الشاي عنده ، وقد هيأت الحكومة اللبنانية لأبي رقيبة تحقيق هذه الرغبة بوقوف الحرس في طريقه ، وتأمين وصوله إلى بيت الطاهر بشكل رسمي ، وطالما جلست أنا فوق هذه الأريكة المتواضعة التي كان أبو رقيبة قد جلس عليها فقيل لي انها كانت مجلس أبي رقيبة .

ولأبي رقيبة بأبي الحسن الطاهر سوابق يعود تاريخها إلى أيام فرار الحبيب من السلطة الفرنسية بتونس إلى مصر من طريق ليبيا وهو متنكر بألبسة ليبية ، فقد روى الحبيب (ابورقيبة) نفسه في مذكراته — وقد قرأت أنا ما نشرته احدى الصحف ، ولعلها مجلة (آخر ساعة) المصرية — يقول فيها الحبيب انه ورد القاهرة ولم يكن باستطاعته اختيار الفندق المناسب له لقلة ما كان لديه من نقود ، فاتخذ من أحد الفنادق المتواضعة منزلاً له ، ولم يمرّ عليه بعض الوقت حتى دخل عليه محمد علي الطاهر ، ولم يكن يومذاك قد تعرف به ، ولا يدري ابورقيبة كيف تسرب خبر وصوله القاهرة اليه ، وكيفية اهتدائه إلى هذا الفندق ، وإذا بالطاهر يرحب بأبي رقيبة ترحيب الصديق الحميم ، وينكر عليه النزول في هذا الفندق غير المناسب لمنزلته ، وقبل أن يتاح لأبي رقيبة شرح الحال كان الطاهر قد أعدّ العدّة لنقله إلى فندق (الكونتيننتال) الذي كان يعدّ يومذاك أفخم الفنادق في القاهرة ، وعن طريق أبي الحسن الطاهر تسرب خبر وصول الحبيب إلى القاهرة فأفاضت الصحف في ذكر أخباره والتنويه باسمه ، وقد بدأ الزوار من الأعلام وأصحاب الصحف والمشتغلون بالسياسة والعاملون في الحقول الوطنية وطلاب الاستقلال في الأقطار العربية يتوافدون على (الكونتيننتال) ويزورونه . أما كيف تمّ دفع أجور الفندق ونفقات

الزائرين وضيافتهم فهذا ما لا يعرفه غير أبي الحسن الطاهر ، ثم جاء في مذكرات الحبيب ان الطاهر قد دفع له عشرة جنيهات نفقات جيبية . وكان للجنيه يومذاك شأن كبير جداً يفوق شأن الباون الانكليزي العزيز ، ولا يزال المصريون يحنون إلى عهد الجنيه القديم .

السيدة وسيلة عقيلة الرئيس (بورقيبة) تقلد محمد علي الطاهر وسام التقدير نيابة عن زوجها (بورقيبة) بمحضر من الحاج محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين ورئيس الهيئة العربية العليا

ولم يقتصر اتصال (الطاهر) بأبي رقيبة على هذا وحسب ، وانما راح يتخذ من القاهرة مركزاً للعاملين على مكافحة الاستعمار الفرنسي ، وراح يجمع حول أبي رقيبة طائفة من التونسيين المشردين وغير التونسيين من المؤمنين بوجوب الجهاد في سبيل استقلال تونس . ولذلك عدّ الرئيس (ابورقيبة) أبا الحسن (الطاهر) ركناً من أركان استقلال تونس ، وقد سجل (ابورقيبة) هذا المضمون في رسالة مطبوعة ، ثم خصه في أواخر حياته بوسام تونسي رفيع خلعته عليه السيدة التونسية الأولى عقيلة أبي رقيبة

حين زارت بيروت ، وزارت بيته بأمر من الحبيب أبي رقيبة ، وخلعت عليه الوسام بالنيابة عن زوجها الحبيب ، وقد أشارت الصحف اللبنانية والكثير من الصحف العربية إلى ذلك ونشرت صورة السيدة الأولى وهي تقلد الطاهر الوسام بالنيابة عن زوجها ، وأنشدت بهذه المناسبة أشعار تهنئة للطاهر وثناء واطراء لوفاء أبي رقيبة .

ومن تعزية الحبيب أبي رقيبة للحسن الطاهر النجل الوحيد الذي كنّي به محمد علي الطاهر عند وفاة الطاهر يدرك القارىء مقام محمد علي الطاهر ومكانته في ميادين الجهاد والوطنية ، اذ جاءت برقية التعزية للحسن الطاهر بوفاة أبيه بهذا النص :

« صديق الكفاح المخلص الوفي المجاهد ، العربي الصادق محمد علي الطاهر ، ذلك الرجل الذي قضى حياته مناصراً لسائر القضايا العربية ، بقلمه ، ولسانه ، وماله ، ولن أنسى تلك الفترة التي توطدت فيما بيني وبينه الأخوة في الجهاد ، وكان أول من عرفته من المجاهدين العرب الصادقين ، فكان لي خير أنيس في دار الغربة ، ونعم المعين في التعريف بالقضية التونسية ، لدى الصحافة العربية ، وبقي على حق عهده ، وجميل وفائه ، وخالص صداقته التي لم تزدد على مرّ الأيام إلا رسوخاً وتوطداً » .

الحبيب ابورقيبة

وقد يكون لكل شيء حدّ معيّن ، ونهاية معلومة ، أما نشاط أبي الحسن الطاهر فقد يتجاوز الحدود في بعض المواقع في الشعور الصادق ، والجرأة في أداء الواجب . ومن هذا النشاط الذي عرف به ، والجرأة التي اتصف بها مما قد تتجاوز الحدود هو أنه حين علم بأن الزعيم عبد الكريم الخطابي المعروف في العراق باسم عبد الكريم الريفي — نسبة إلى الريف الواقع في شمال المغرب — قد نقل من منفاه الأولى إلى منفى ثان ربما يريد الفرنسيون استغلاله لمعارضة حركة محمد الخامس في المغرب واغراءه

بالموافقة لهم إذا ما أطلقوا سراحه ، وان الباخرة التي تقله ستمر بالسويس في وقت معين من يوم معين ، فكّر الطاهر أن يعدّ العدّة اللازمة والتدبير المخطط الذي يضمن اختطاف عبد الكريم الخطابي من الباخرة ، وانزاله منها حتى إذا تم هذا الانزال على أرض مصر استحال على الفرنسيين القاء القبض عليه عن غير طريق موافقة مصر ورضاها،وهذا ما لا يمكن أن يقع ، لأن مصر ستكون أمام الأمر الواقع ، وستضطر للاحتفاظ بالخطابي وعدم تسليمه لفرنسا ، والمهم المهم هو التفكير في كيفية اخراج الخطابي من الباخرة التي سترسو في السويس في الوقت المعين ، وهذا ما ضمنه الطاهر فيما أعدّ من تدبير ، مثلما أعدّ لنفسه من تدبير يمكنه من الهروب من السجن واخفاء نفسه سنة كاملة عن السلطة الانكليزية في مصر وهي تبحث عنه .

وكان الطاهر قد تلقى برقية من عدن يخبره فيها مبرقها بأن الخطابي سيمرّ بالسويس غداً في باخرة تجارية ذكرت اسمها البرقية ولربما كان الفرنسيون قد أطلقوا سراحه ليسخروه لمعارضة محمد الخامس الذي وجدت فيه فرنسا عدواً لدوداً صعب المراس فظنت أن بامكانها الأفادة من زعامة عبد الكريم الخطابي إن هي أفسحت له في المجال مع انه لم يقم أي دليل على رضوخ الخطابي لهذه السياسة ، وكان الوقت الذي تلقى الطاهر هذه البرقية المشعرة بوصول الخطابي إلى السويس متأخراً من الليل ، ومع ذلك لم يخب الطاهر في رجائه بأن يسعى ليحمل الملك فاروق على قيامه بهذه المهمة في الوقت الذي أعدّ هو العدة لخطف الخطابي إذا ما فشل في استمالة الملك فاروق للقيام بانتزاع الخطابي من الباخرة .

وراح في منتصف الليل يطلب مقابلة الملك فاروق لأمر قال انه في منتهى الخطورة ، ولكنه علم أن الملك فاروقاً يحضر مهرجاناً سيمتد إلى الفجر فأضطر أن يبرق للملك برقية مستعجلة تتضمن حكاية عبد الكريم الخطابي ، ويعلق على الملك أمر انزال الخطابي من الباخرة بالطريقة التي

يراها جلالته صالحة ، ويشرح الطاهر في برقيته ما سيترتب على أمر جلالته من السمعة الحسنة لجلالته ، ولمصر في أنحاء العالم العربي والإسلامي أجمع ، ان هو — أي الملك — أوعز بكيفية ما انزال الخطابي من الباخرة ، ولكن مأمور البرق — أبى أن يتسلم برقية كهذه ويقوم بابراقها ، ولم يكن من الطاهر إلا أن هدّد المأمور ، ولفت نظره إلى المسؤولية الكبرى التي سيتحملها إن هو تلكأ في ابراق هذه البرقية أو أجّل ابراقها ولو لحظة واحدة ، وبشيء من الغضب الذي يتجلى في جحوظ عيني الطاهر الذي لا يعرف عمق تأثيره في النفس إلا من كتب له أن يعرف الطاهر ويرى بعينيه هذا الجحوظ ، وبصرخة من الانفعال في وجه المأمور حلّ العقدة وأمر المأمور أن يبرق البرقية بمحضره ودفع له الأجرة وتسلم الاعتراف بالابراق في الوقت الذي كان الطاهر قد هيأ لنفسه القيام بهذه المهمة اذا ما امتنع الملك فاروق عن القيام بها من جانبه .

وجاء الطاهر في الغد ، وقبيل موعد وصول الباخرة التي تقل الخطابي ومعه شخص آخر تركه في السيارة ، لقد جاء إلى الحبيب (أبي رقيبة) والحبيب ابورقيبة لا يقل جرأة عن محمد علي الطاهر الذي تجاوزت جرأته حدود التهور وقص عليه القصة وما ينبغي أن يقوم به هؤلاء الثلاثة هو وأبو رقيبة والذي ينتظرهما في السيارة ، وسرعان ما تحركت السيارة ، ووصلت في الوقت المناسب إلى السويس ، وكم سرّ محمد علي الطاهر حين وجد بعض الأشخاص الرسميين من المصريين ، وقد أوفدهم الملك فاروق للقيام بالخطة المرسومة ، فقد كان الملك فاروق قد عاد إلى قصره في الساعة الثانية ، بعد منتصف الليل ووجد هناك البرقية المستعجلة بانتظاره ، فرحّب بالفكرة ، وأوعز بتنفيذها على شرط عرضها على الخطابي في الباخرة وأخذ موافقته عليها ، وهكذا أنزل الخطابي من الباخرة بمحضر من (الطاهر) وأبي رقيبة ، والشخص الثالث الذي حدثني الطاهر عنه ونسيت اسمه ، وشمل الخطابي برعاية الملك والحكومة المصرية .

- ٦ -

وبالقرب من مدخل غرفة الجلوس التي يقعد أبو الحسن فيها للناس ، يجلس الطاهر وراء منضدة تقوم فوقها صينية كبيرة مليئة بصنوف مختلفة من أقداح الشاي وصحونها ، ويتوسط هذه الصينية ابريق كاشاني كبير للشاي وآخر معدني أكبر منه للماء الساخن ، وقد صفت الأرائك المتواضعة المتراصة في دورة كاملة في هذه الغرفة بحيث ليس بينها منفذ لاصبع واحدة . ويبدأ القادمون بالمجيء ابتداء من الساعة العاشرة من صباح كل يوم أحد ، وابتداء من الساعة السادسة من مساء كل يوم اثنين ، وقبل هذين الوقتين لو كسّرت خشب الباب بالمطارق فلن يفتحه لك أحد بالرغم من علمك بوجود أبي الحسن وسمعه لطرق الباب ورنين الجرس وإن كان سمعه ثقيلاً .

ويعتب الطاهر على المتخلف عن حضور مجلسه من الذين اعتادوا حضوره في كل أسبوع عتباً شديداً ، وقلما قبل أعذارهم ، أو قل قلما أفسح في المجال للمعتذر أن يعتذر ، اذ قلما استطاع أن يستظهر عليه أحد بالكلام في كل عتب ، أو جدل أو نقاش حاد أو غير حاد ، فهو الغالب ، ومجادله مغلوب على كل حال مصيباً كان أم غير مصيب ، وهو لكثرة ما يكتز صدره من الحوادث والوقائع وأخبارها فان المؤرخ لا يستطيع أن يستغني عنه إذا ما أراد أن يعالج أمراً من أمور السياسة في قطر من الأقطار العربية والإسلامية في النصف الأخير من هذا القرن ، على رغم ما يتخلل هذه المعلومات الواسعة التي يعيها ذهنه ويكتنزها صدره من العواطف التي تتحكم فيه حتى لقد قال عنه شكري القوتلي ذات مرة : « ان صداقة أبي الحسن الطاهر بلاء ، وعداوته هي الأخرى بلاء » ويعني بذلك أنه لا يسمح لك أن لا تستجيب دعوته في كل مطالبه إذا كنت صديقه ، ولن تستطيع التخلص من هجومه عليك إذا ما عاداك ، فهو منقاد لعواطفه انقياد الأعمى يضفي عليك من محبته الشيء الكثير إذا أحبّك حين يؤمن بك

رجلاً صالحاً ، وتلاحقك لعنته أينما كنت لمجرد ظنه بك ظناً سيئاً ، فأنت أمامه ليس لك غير السكوت من مأمن إذا كان لك رأي يخالف رأيه ، ولقد حضرت مرة مناقشة بينه وبين علي كمال وكنت أعلم ان ما يقوله علي كمال هو الصحيح ولكنه خرج مخذولاً من بيت الطاهر ومغلوباً على أمره ، ولذلك طالما أغضب الطاهر الكثير من محبيه بسبب مخالفة قد لا تكون ذات أهمية لرأيه ، فيرفض البعض من مجلسه ، ويقاطعه زمناً ثم يعود اليه حين يدرك له مزاياه ، وطيبة قلبه ، ونقاوة ضميره ، وعفة نفسه ، وصدق جهاده ، كما وقع ذلك مرة بينه وبين الشيخ جلال الحنفي ، وكما وقع بينه وبين زهير ماردينى ، وكما وقع بينه وبين الشيخ طه الولي وغيرهم الذين سبب الجفاء انقطاعهم عنه ثم عادوا اليه عاذرين ، وهناك من انقطعت الصلة بينه وبينهم وظلت منقطعة إلى الممات ، وأعرف منهم رياض الصلح ، والدكتور أمين رويحـــة .

يقول زهير ماردينى : انه سأل العقاد ذات مرة — والعقاد من المغضوب عليهم عند الطاهر — لقد سأله عن أسباب تعلق الناس بالطاهر كل هذا التعلق ، وهو يصرخ باسم فلسطين هذا الصراخ الذي يزعج الأمزجة التي ألفت الهدو في المناقشة ، فيخاشن الطاهر من يخاشن منهم ، ويهاجم من يهاجم ومع ذلك يسعون اليه على رغم خوفهم من نزواته ، ويرفضون من حوله ثم يعودون اليه صاغرين ؟

يقول زهير ماردينى : لقد سألت العقاد عن هذا السرّ فقال : « في هذا الصقر نداء الانسان الفلسطيني ، وصلة هذا الانسان المداري عن الانسان الفلسطيني في مدار مأساته ، ومن خلال ذلك يتخطى الواقعي إلى المثالي ، وينفذ من المحكي إلى الانساني ، ان حساً انسانياً مكثفاً خلال حديثه عن فلسطين يلتصق بعبارته وهو يتحدث عن الانسان الفلسطيني في ضعفه ، وقوته ، في عقده ، وأزماته ، في محاولاته ، وردود فعله كل ما في الروح الفلسطينية من تشابك ، وتناقض ، وغنى حسيّ مسطور في المقالات التي

يكتبها ، وعن هذا الطريق يصل باسم الحفاظ على الكرامة والقيم الانسانية إلى الجراح الأولى في المجتمع ، وإلى الفضيحة ، انه لا يختار كغيره موقف الشهادة ، ولكن موقف اللاعن ، وليست مقالاته أكثر من سرد أفقي فيه ثقب في صميم الجراح » .

ولست أدري من الذي عقّد هذا الكلام وجعله عويصاً وغير مفهوم عندي أهو العقاد نفسه ؟ أم زهير ماردينى الذي لم يحسن نقله ؟ فخلق المدار الانساني والانسان المداري ، والمدار الفلسطيني الذي ربما يظل القارىء من أمثالي يدور بعض الدورات حول هذه المدارات قبل أن يتفهمها إذا استطاع أن يتفهم شيئاً .

ولا أظن الطاهر قادر على مسامحة نفسه بالتغاضي عن لوم صديق ، ومؤاخذته حتى ولو كان أعزّ الأصدقاء وأحبّهم إلى نفسه إذا قصّر هذا الصديق في القيام بالواجب الذي يعدّه الطاهر واجباً حسب ظنونه ومقاييسه . لذلك كان يتحاشاه الكثيرون ، ويخشون لعناته الممضة ، فهو حين دعاه الحبيب بورقيبة لزيارة تونس بعد نيلها الاستقلال ، ونزل الطاهر من الطيارة في مطار تونس قال للحبيب أبي رقيبة قبل أن يقول أي شيء ، وقبل أن يأخذ قسطه من الراحة . لقد قال : انني سأعود الآن من حيث أتيت إذا لم تأمر بأن يشاد للزعيم عبد العزيز الثعالبي ضريحاً يناسب منزلة هذا الرجل الذي أفنى عمره في الجهاد في سبيل استقلال تونس ، والذي بقي مشرداً عدة سنوات ، وهارباً من تنفيذ حكم الاستعمار الفرنسي فيه .

وكان بين الحبيب أبي رقيبة والثعالبي شيء من المكارهة والنفور بسبب اختلاف في الرأي السياسي ، وكان الثعالبي قد مات ودفن في تونس ، ويبدو انه لم يعن بذكراه العناية اللائقة بزعيم وطني كبير كما كان يقتضيه الواجب .

وكان ابورقيبة يعرف الطاهر ،ويعرف انه لا يقول شيئاً إلا وحققه .

فأمر في الحال ، وفي تلك الساعة بتنفيذ أمر الطاهر ، وبناء القبر المناسب .

ويجرني حديث الحبيب أبي رقيبة إلى مجلس الطاهر بدار الشورى بالقاهرة مرة أخرى ، وهو مجلس كان يجمع بين ثلة من رجال الفكر والسياسة ، والأدب ، والمعجبين بالطاهر ، وبأبي رقيبة ، كما يجرني الحديث إلى المقهى الذي كان يقتعده (ابو رقيبة) فيتحلّق حوله بعض المعجبين والمحتفين به من الشباب المتوثب الذين لا يخلو منهم هذا المجلس في المقهى كل يوم بعد انتهاء (ابي رقيبه) من مجلسه بدار (الشورى) وكان من اولئك الشباب الذين يلازمون الحلقة المحيطة بابي رقيبة في المقهى : مشكور الاسدي،يوم كان طالباً بجامعة القاهرة ، وحين تمت العودة لابي رقيبة واصبح رئيساً للجمهورية كان مشكور الاسدي يقوم بجولة في شمال افريقيا ماراً بتونس ورأى أن يزور الحبيب ابا رقيبة واثقاً من ان ابا رقيبة سيسرّ حين يرى شخصاً من الذين كانوا يلازمونه في أيام محنته ، ويلتفّون حوله كزعيم مناضل ، وقد جاء اليوم الذي يرونه قد بلغ الغاية المنشودة من تخلص البلاد من ربقة الاستعمار فاذا بذاك المشرد الذي كان يقتعد احد كراسي المقهى في القاهرة غريباً بعيداً عن بلاده يملأ هذا الكرسي العزيز كرسي رئاسة الجمهورية لتونس العزيزة ، وما من شك ان الحبيب سيذكر وجوه اولئك الذين كانوا يلازمونه ملازمة الظل في تلك الايام العصيبة تحقيقاً لقول الشاعر القائل :

ان الكرام اذا ما استوطنوا ذكروا
من كان يألفهم في المنزل الخشن

وها هوذا الكريم قد استوطن ، وليس لمشكور الاسدي من غاية ، غير ان يسعد بلقائه ، وحين حاول ان يطلب موعداً لمقابلة الحبيب ، قال له القائم بأعمال السفارة العراقية بتونس — وكان يومذاك حكمت الجادرجي قرين الدكتورة رباب الكاظمي — قال لمشكور بعد ان علم ما لمشكور من

سابقة معرفة بالحبيب. قال له: انتظر قليلاً يا مشكور، ففي الاسبوع المقبل سيحين يوم ميلاد الحبيب، والعادة الجارية هنا هي ان يقف الحبيب للناس فيزوره الزعماء، والهيئات الدبلوماسية، والوجهاء، فيستقبلهم وهو واقف، ويمرون عليه من احد الابواب ويخرجون من باب آخر، ومن المستحسن ان تصحبني حينذاك وتسلم معي عليه، وهناك سيتم له ان يسرّ برؤيتك، وتسرّ انت برؤيته ما دام لك سابق معرفة به في تلك الأيام العصيبة في القاهرة.

وجاء اليوم الموعود، وصحب مشكور القائم بالاعمال، ودخلا على الحبيب، واستقبلهما الحبيب كما يستقبل الآخرين دون التفات إلى مشكور الذي قدمه له القائم بالاعمال قائلاً: انه مشكور الاسدي من الشباب الذين كانوا يتحلقون حولكم في القاهرة كل يوم ومن محبيكم، فلم يقابله الحبيب بأكثر من ايماءة وابتسامة كعلامة تشير إلى تعرفه به من قبل، ولم يزد على ذلك !! وخرج القائم بالاعمال ومعه الأسدي من الباب المخصص للخروج، وظن مشكور ان هذا البرود الذي بدا من الحبيب كان يفرضه عليه الموقف في تلك الساعة، وحين تتم هذه المراسيم لا بد وان يبعث الحبيب بمن يسأل عنه بدار السفارة العراقية، أو الفندق الذي يقيم فيه، ولكن هذا لم يحصل !! وكم خجل مشكور من ان يكون قد جرى في ذهن القائم بالاعمال شك في صدق معرفته بابي رقيبة معرفة كاملة تامة.

- ٧ -

وحين تقبل على شقة ابي الحسن الطاهر ببيروت في مواعيد جلوسه للناس فستجد الباب مغلقاً، وان عليك ان تضغط على زر الجرس فيفتح لك الطاهر الباب بنفسه، وقبل ان تدخل وانت لا تزال عند الباب يلاقيك بالترحاب والعتاب لبعد ملتقاك به وان لم يكن الملتقى بعيداً، ثم يسير بك إلى مجلسه، وتجد هناك رهطاً من كبار رجال السياسة، والصحافة.

والادب إذا لم تكن مبكراً في زيارتك ، ولا يبعد ان تجد في هذا المجلس ذات يوم من كنت تبحث عنه طويلاً ولم تجده ، ذلك لان بيت الطاهر طالما يجمعك بمن قد اضعت ، ومن تحب ان تتعرف إليه ، اليوم ، أو غداً ، أو بعد غد ، وقد رأيت انا هنا طائفة ممن كنت احب ان أراهم ، او ممن كنت اعرفهم ولم التقهم منذ زمن بعيد ، وكان من اولئك الحاج امين الحسيني مفتي فلسطين ، والارياني ، واحمد بن سوده ، وابراهيم السقاف ، وعدداً من الوزراء العرب ، وزعماء المسلمين الذين يمرون ببيروت في طريقهم إلى اوروبا ، أو في اثناء عودتهم إلى مواطنهم ، كما رأيت عنده في بعض الايام توفيق السويدي ، والشيخ كاظم الدجيلي ، وسامي الكيالي ، وعجاج نويهض ، والدكتور حسين الطاهر ، ونصوح بابيل ، وعلي كمال .

اما الذين يلازمون مجلسه كل اسبوع وبدون انقطاع ، فلم يبق في بالي منهم غير جواد بولس المؤرخ اللبناني واحد وزراء الخارجية اللبنانيين السابقين ، والمحامي محسن سليم ، والشيخ زهير الشاويش ، وزهير ماردينى ، والشيخ طه الولي وغيرهم الكثيرون الذين تضيق بهم غرفته في أحيان كثيرة .

ويعنى الطاهر بيوم (قبوله) عناية العرب (بمضايفهم) وضيوفهم ، وتقاليدهم التي تتحاشى تكدير الخواطر — بما ينغص على الضيوف استيناسهم ، باستثناء مساجلات الطاهر ومناقشاته ، فحين يموت مثلاً عند رئيس القبيلة أحد من اهل بيته ويكون هناك ضيوف في مضيفه فانه يجتهد بان لا يسمع به أحد من هؤلاء الضيوف ، فهو يحرّم على آله الصرخة ، والندبة ، والجزع ،إلى أن ينصرف الضيوف وهم لا يعلمون بان كارثة ما قد حدثت بهذا البيت وهم عنده !

وهكذا فعل الطاهر ذات يوم من أيام جلوسه للناس ، وكان هناك

جمهور من زواره عنده ، فقد كانت اخته تحتضر في الغرفة المجاورة ، ثم ماتت وزواره لا يزالون يتحدثون ويتندرون ، ويضحكون كما كانوا يفعلون في سائر الايام دون ان يبدو على وجه (الطاهر) ما ينم على شيء غير طبيعي ، حتى إذا انتهى الوقت وخرج زائروه قام يخبر الاصحاب والاصدقاء بوفاة اخته وتجهيزها وتشييعها ... !!

ويجلس الطاهر خلف أباريق الشاي في يوم (قبوله) ولا يجعل احداً يقرب منه فهو الذي يعدّ الشاي بنفسه ، وهو الذي يحمل الاقداح بيديه ، ويقدمها لزواره ، في حين لا يفوته التعليق على ما يمر من الاحاديث ، والاطراء لمن يستحق الاطراء في رأيه ، والقدح فيمن يجب القدح فيه عنده ، والمناقشة الحادة ، والثورة العارمة . كل هذا وهو قائم يقدم الشاي كما هو جالس وراء الاباريق والاقداح ، واذا ما قام بتقديم الشاي فهو يقدمه مثنى وثلاث ورباع ، ويظل يقدم لك القدح بعد القدح إلى ما شاء الله ان لم تشر اليه بالاكتفاء ...

وقد يتبدل رأي الطاهر في الاشخاص من حسن إلى سيء ، ومن سيء إلى حسن ، وقد كان من المعجبين بالدكتور امين رويحة حتى لقد تجاوز الحدود في اطرائه والثناء عليه ، ويوم زجّ الدكتور امين رويحة في السجن بدمشق ، وصدر الحكم العسكري العرفي باعدامه ، او اشيع بان الحكم سيصدر باعدامه أسرع الطاهر في الوصول إلى دمشق حتى حمل هاشم الأتاسي رئيس الجمهورية السورية حينذاك على اصدار أمره بالافراج عنه وتسريحه ، وبعد سنين تغيّر رأي الطاهر بالدكتور امين رويحه ، وحين جاء ذكره في إحدى المناسبات كتب لي الطاهر رسائل تفيض بالسباب ، والقذف ، والتنديد بالدكتور رويحة ، وهو يأسف كل الاسف — على ما يقول — ان يكون الدكتور رويحه قد استهبله ، واستغلّه زمناً طويلاً ، ولم تنكشف له حقيقة رويحه الا متأخراً .

وأدركت في أول ملتقاي الطاهر بأني أمام رجل قوي الارادة ، راسخ الايمان بالوطنية ، صادق اللهجة ، جريء لحد بعيد ، لا يعرف الكيد والخداع ، وإلى جانب ذلك كان عنيداً في افراط لا يمكن ان يتزحزح عن الرأي الذي يرتئيه إلا بعد قناعة . وهذه القناعة لا تأتي بسهولة ، فكتبت له حين عدت من بيروت إلى بغداد ممازحاً ، لقد كتبت له انه يحكى عن رجل كان يخاف امرأته خوفاً شديداً ، وقد تجرّع منها شيئاً غير قليل من الضرب ، والصفع . والركل ، لأقلّ شيء كان يبدو منه ، وذات يوم قال لها وهو يتناول الطعام : ان طعامك يا هذه اليوم مالح ، وشديد الملوحة ، ولم يكد يتم كلامه حتى رفعت فوق رأسه الحذاء فاستغفرها ، وسحب كلامه على تعبير هذا العصر ، وحين اكمل الغداء وهمّ بالخروج إلى عمله وقف عند باب الدار وهو بعيد عنها وقال لها : يا هذه لقد كان طعامك مالحاً ، مالحاً ، مالحاً ، ثم هرب ...

لقد كتبت للطاهر بهذه الحكاية مازحاً وقلت له : اذا لم اقل لك بانك مزعج ما دمت تحت قبضتك ببيروت فان بوسعي ان اقول لك وانا بعيد عنك ولن تصل يدك الي : بأنك مزعج ، مزعج ، مزعج ، ثم استغفرته ، واستمحت العفو منه على هذه المزحة الثقيلة . ولكن الطاهر كان يحبني كثيراً ، ويأنس بالمزح ، وليس من شك انه قد غفر لي تلك المزحة ، لاني حين زرت بيروت مرة اخرى وتم تشريفه اياي بمصيفي كان اشد ترحيباً بي ، وأكثر تهليلاً ...

- ٨ -

وللدلالة على سعة اطلاع ابي الحسن الطاهر ، واحاطته بتاريخ العرب السياسي الحديث اشير إلى تعليقة له اوردها في احدى رسائله الي على نبذة من مذكرات (المس بل) سكرتيرة المندوب السامي البريطاني في العراق

والتي ترجمها جعفر الخياط إلى العربية خصيصاً لاحد اجزاء موسوعة (العتبات المقدسة) التي كنت أقوم انا بتأليفها، فقد كتب لي الطاهر حين تسلّم هذا الجزء من (موسوعة العتبات المقدسة) يقول :

« وصل كتابك في مساء الاثنين – وهو المساء الذي يقعد فيه الطاهر للناس في بيته – وكان البحث فيه عاصفاً حول اسم الشيخ أحمد الادريسي السنوسي الذي ورد في الصفحة ١١٤ من كتابك المنمق (قسم سامراء) وبالسطر ١٢ وذلك عند قول (المس بل) ان الكماليين (والمقصود بهم الأتراك من حكومة مصطفى كمال) رسموا ذلك الادريسي – ملكاً للعراق – بدلاً من فيصل الذي كان يقود الثورة على العثمانيين من سنة ١٩١٦ حتى انهيار الدولة العثمانية .

وطال النقاش حول هذا الادريسي – في هذا المساء – لأنه لم يسبق للادريسيين الذين كانوا في تلك الأوقات يحكمون (العسير) بين الحجاز واليمن أن يصل صيتهم للعراق لكي يرشّحوا للملكية ، وبعد نقاش طويل ، وخناقات ، ومجادلات – ومن كلمة الخناقات ، والمجادلات نستطيع أن نعرف كم هو صعب أن يقع الاختلاف في الرأي مع أبي الحسن الطاهر – اكتشفت أنا – أي الطاهر – ان كلمة الادريسي قد اندست بلا تفكير ولا عقل ، وان المقصود أيامها هو السيد أحمد الشريف السنوسي الذي ما كان قد فرغ من مهمة مساعدة الكماليين على اليونان ، والحلفاء في حرب انقاذ بقية تركيا من أيدي المستعمرين الذين كانوا يريدون ازالة حكم الأتراك نهائياً من اسطنبول والأنضول . ومحو الاسلام من تلك النواحي لولا معجزة انتصار مصطفى كمال في معركة (صقاريا) بغتة ، فارتد الاستعمار كله ، وبقيت للأتراك دولة بفضل خلافات الدول الاستعمارية نفسها على ذلك الميراث التليد الفخم ، وبقيت اسطنبول للترك ، الذين كانوا يفضلون وجود صديقهم أحمد الشريف السنوسي (ملكاً) في العراق على جلب (فيصل) عدوهم لزرعه على حدود تركيا .

فالظاهر ان (المس بل) خلطت بين أحمد الشريف السنوسي وبين ابن عمه (محمد بن ادريس السنوسي) الذي أصبح ملكاً ، فصرفت أذهان المؤرخين إلى هذا الذي لم يكن معروفاً اذ ذاك فكانت (الأدرسة) سبب هذا البحران ، لأن اسم (الأدارسة) ما كان يتردد في تلك الحقبة إلا بعد سنة ١٩١١ وذلك عندما ظهر الشيخ محمد علي الادريسي السوءاني المتصرّف بمنطقة العسير ، يوم برز اسمه متسلطاً على (صبيا) وحليفاً للطليان ، وخارجاً على الدولة العثمانية في البحر الأحمر بما يسمى اليوم بالعميل لايطاليا ، غير أن الادريسي لم يطل حكمه لأن الإمام يحيي قد طرده من (الحديدة) ثم قام ابن السعود ودهم (العسير) واستولى عليها ، وقبض على أسرة الادريسي كلها ، واقتلعها من جذورها ، ولا يزال أفرادها حتى الآن يعيشون في الحجاز كضيوف ظاهراً ، وأسراء واقعاً ، كآل رشيد ، وآل عايض حكام (أبها) فكيف فاتت هذه النقطة الأستاذ جعفر الخياط الذي ترك (جروترود بل) الخاتون اللعينة تخلط خلطها الذي كان أساسه دمج كلمة (الادريسي) باسم أحمد الشريف السنوسي الذي لا علاقة له لا بالادريسي ولا بالأدارسة ، وانما هم أدعياء على ما يرى البعض ، اذ ما هم في الحقيقة إلا من أسرة نوبية بجوار منطقة (أسوان) بما بعد صعيد مصر ، وباتجاه السودان ، وأقصد بذلك شمال السودان الشمالي ، وليس هم منه بل هم شيء آخر ، ولهم رطانة كالبربرية تقريباً ، أما شمال السودان فهو عربي ، وسكانه من قبائل (الجعليين) ومعظمها حجازية » آه .

ونبّهت أنا جعفر الخياط إلى ما أشار به الطاهر تعليقاً على ما جاء في مذكرات (المس بل) فقال انه سيتدارك ذلك إذا ما قام بترجمة مذكراتها كاملة ، وليس هذا وحده الدال على سعة اطلاع محمد علي الطاهر فيما يخص تأريخ الأدارسة المزيفين ، وتاريخ السنوسيين الأدارسة الحقيقيين ، وانما الذي يدهش القارىء أن يعلم بأن الطاهر يعرف عن كل قطر عربي ، وعن أغلب سكانه وقبائله بعض الأشياء والأمور التي قد تغيب عن ذهن

الكثير من المؤرخين العرب أحياناً ، وكثيراً ما تحدّث معي عن العراق وهجرة قبائله من نجد ، والحجاز ولاسيما العدنانيين منهم ، ومواقع نزولهم مما يزيد عما أعرف بكثير .

لقد ذكرت ان الطاهر على شدة عناده والتمسك برأيه فلا يمنعه هذا العناد من أن يعدل عن رأيه اذا ثبت له أنه كان على خلاف الواقع ، وأذكر أنه كتب لي مرة وفي ضمن ما كتب قال :

« ... وكم أعجبني كلامك عن حاجة الانسان إلى عمرين ، ليعيش العمر الثاني في الاستفادة من أخطاء العمر الأول ، ولكن هذا مستحيل بعد أن نتذكر قول (لامرتين) شاعر فرنسا . وهو الذي ترجمه المرحوم أنطون باشا الجميّل في شبابه فقال :

أوّاه لـــــو عرف الشبـــاب وآه لو قدر المشيب

وكأني كفرت كفراناً لا يغتفر حين كتبت له بأن هذا البيت هو من منظوم اسماعيل صبري باشا نقلاً عن الفرنسية ، ولا علاقة له بأنطون الجميّل فكتب لي يقول :

« ... ولما كنتَ على وشك زيارة بيروت — وهي بشرى سارة — فان موضوع الجميّل واسماعيل صبري باشا سيحلّ بالنقاش الشفوي ان شاء الله ، ولكن لا تنس ان ترجمة بيتي (لامرتين) كانت بنت جائزة معلنة في الصحف بين سنتي ١٩١٣ — ١٩١٤ فدخلها أنطون الجميل الشاب المهاجر اللبناني لمصر كما دخل مصر شريك الجميل أمين تقي الدين الشاب الدرزي اللبناني المحامي ، وكانا يصدران مجلة (الزهور) بالقاهرة التي أوقفتها ظروف الحرب العظمى الأولى ، فدخل المسابقة كثيرون ما عدا اسماعيل صبري باشا وكيل وزارة العدلية ، أو المعارف ، الرجل الكهل ، والباشا الوقور الذي لا يجيز لنفسه دخول المسابقات ، ففاز (الجميل)

وأخذ الجائزة ، فأوصلته هذه القصة إلى قمة الشهرة ، ومن هناك استولت وزارة المالية المصرية على (الجميّل) بمرتب كبير ليرأس قسم الترجمة فيها ، كما ان جريدة الأهرام اتفقت معه سرّاً على مدّها بترجمات فرنسية ثمينة — بلا امضاء بسبب الوظيفة — بأجرة عالية ، وبقي الجميّل يوالي تحرير (الأهرام) بنفثاته إلى أن مات داود بركات رئيس تحرير الأهرام . وهنا استقال أنطون من الحكومة ، وتولى رياسة التحرير — لجريدة الأهرام — بمرتب وزير ، وما مات إلا بعد أن أصبح باشا وعضواً بالمجمع العلمي ، وعضواً بمجلس الأعيان وبمرتب ارتفع إلى أكثر من مرتب رئيس وزارة ، ولما مات شارل دباس رئيس جمهورية لبنان طلبوه ليكون رئيساً للجمهورية اللبنانية فأبى وقال : أنا في مصر بمكانة أهم من مكانة رئيس جمهورية بلبنان ، وهذا صحيح ، لأن الملك كان يستشيره في الأزمات ، وتحتكم اليه الأحزاب ، بل كان فوق ذلك وحيد عصره ، وحكيم زمانه ، بعقله ، وصواب رأيه ... الخ »

هذا بعض ما كتب به الي عن أنطون الجميل وهو دليل آخر على سعة اطلاعه في معرفة العصر العربي الحديث ، وتاريخ رجاله وما هو تحت يده من وثائق ذات قيمة أجزم أنه قد أورد بعضها في مذكراته التي لم أطلع عليها بعد والتي تم طبعها على يد السيدة أم الحسن بعد مماته وقامت بتوزيعها على أصدقائه حتى لقد مرت بالقاهرة ، وسألت عن دار وديع فلسطين وأوصلت له نسخة من هذه المذكرات بناء على ما وجدت من الأسماء التي كان الطاهر قد كتبها لكي يبعث بها اليهم اذا ما تم ظهور هذه المذكرات إلى حيز الطبع ، وقد علمت ان هذه المذكرات لم تنزل إلى السوق بيعاً وانما وزعت هدايا للمعارف والأصدقاء ، وأرى من الواجب على جميع الأقطار العربية ومراكز وثائقها أن تحصل عليها لتضمها إلى ما لديها من الوثائق التاريخية وخاصة مصر ، وسوريا ، والأردن ، ولبنان ، ولا أظنه قد فاته شيء فيما كتب ، وفيما احتفظ به من أخبار القضايا الوطنية التي عرفها وشهدها

بنفسه ، وذاق مرارتها هو والذين رافقوه ، وكاتبوه ، ولم تكن محفوظاته من الكتب والرسائل أو مما احتفظت به الذاكرة مقتصرة على الجهاد ، والكفاح وتاريخ النهضة العربية وانما للمساجلات الأدبية ، والشعر ، والنكت شأن غير قليل بحيث تستطيع أن تعتبره شبه قاموس من القواميس التي لا يستغنى عنها إذا ما أراد قارىء أن يقرأ،وكاتب أن يكتب شيئاً ما عن الجيل العربي المخضرم ولحد ما .

وأذكر أنه كتب لي مرة نكتة في مناسبة ما وردت في احدى رسائله عن صديق كان يأخذ عليه الطاهر طول لسانه في الفحش قائلاً:

« وقبل أن أنسى هذه النكتة ولا بأس أن تسجلها عندك ، ففي نيويورك وعلى عهد الرابطة القلمية كانت هناك منافسة بين رشيد أيوب من شعراء الرابطة وبين الزجال المشهور (ملحم حاوي) وكان كلاهما يعمل في السمسرة في احدى شركات التأمين على الحياة ، ولا تخفاك عداوة (الكار) وقد حضر رشيد أيوب مرة دار (السائح) ويده على فمه لأنه كان قد قلع جميع أسنانه بأمر الطبيب وكان (الحاوي) هناك فاستقبله مرتجلاً هذين البيتين :

قالوا الزميل مقلّع اسنـــــانو طول البقا للبين سيقانو
قالوا هداك مات وشبع مـــوت قلت العوض بسلامة إلســـانو

وحتى اللغة واستعمال الكلم في مواضعها قد لا يفوته أحياناً شيء منها ، وفضلاً عن ذلك فان لذهنه قابلية جيدة للاختزان ، وقلما ينسى شيئاً ، وقد كتب لي مرة عن (أمس الأول) أو (أول أمس) وكانت قد وردت هذه الكلمة عنده وقال ان (علال الفاسي) يرجح استعمال (أمس الأمس) وهو عنده أصح من (أمس الأول) أو (أول أمس) والواقع ان ما يقوله علال الفاسي هو الأصح من حيث المعنى ، ولكن ما دام الاستعمال اصطلاحاً قد جرى على (الأمس الأول) و (أول أمس)

وأصبح من قبيل الغلط المشهور الذي يفضّل على الصحيح المهجور فلماذا لا يظل الاستعمال كما هو وبخاصة ان (أمس الأمس) لم يستعمل من قبل وانما هو مجرد رأي وإن كان صحيحاً .

وكتب لي علي نصوح الطاهر مرة يقول : « ... أرجو اعلامي هل لديكم اجتهاد في تفسير لبيتين هما لأحد فلاسفة الفرس في قوله :

عينان عينان لم يكتبهمـــا قلـــم في كل عين من العينين عينـــان
نونان نونان لم يكتبهمـــا قلـــم في كل نون من النونين نونـــان

ثم يقول لي علي نصوح الطاهر : « أرجو التفضل ببيان الرأي؟ وحبذا لو شارك غيركم في تفسيرهما زيادة في الفائدة » .

ويبدو ان هذين البيتين قد تسرب خبرهما إلى أبي الحسن الطاهر من ابن عمه علي نصوح الطاهر ، واذ بأبي الحسن يصبح هو المطالب بهذا التفسير ، ثم يدس نفسه بين المفسرين ، ويدلي برأيه فيهما ، ويحاول أن يفرض رأيه عليّ وعلى من رأى رأيي ، ومن اختلف معي في الرأي فرضـــاً .

وسؤال آخر وردني من علي نصوح الطاهر عن معنى (الخربندج) وهي كلمة كانت قد وردت في عرض بحث من بحوثه وهو يؤلف ، ويظهر ان علي نصوح الطاهر كان يكتب لأبي الحسن الطاهر بكل ما يكتبه لي ، وإذا بأبي الحسن يلاحقني بضغط شديد في التعجيل بارسال الجواب في نسختين احديهما له والأخرى لابن عمه .. !!

وبعد هذا فهو — أي محمد علي الطاهر — سريع الالتفات لصياغة الكلام وإن لم يكن متبحراً في اللغة وآدابها ، فهو حين يكتب لي متأففاً من ضياع الرسائل في بريد الأقطار العربية ويقول « ... أما إذا كانت هذه الرسائل كلها تذهب إلى غير وجهتها ، أو يبتلعها الشيطان الذي يلاحق

برد الأمة العربية دون سواها ثم يحرق دينها » ..

اقول انه حين يكتب لي هذا يسرع بذهنه الحاد إلى كلمة (يحرق دينها) خوفاً من وقوع الالتباس بين أن يعود الضمير من (احراق دينها) إلى الأمة العربية دون الرسائل التي يحملها البريد ، فيقول لي بعد كلمة (يحرق دينها) مباشرة : بأن المقصود هو احراق دين الرسائل لا دين الأمة العربية كما تعلم ...

وعود على بدء ، فلم أدر كيف جرفني الحديث إلى ناحية أخرى في حين كنت أتحدث عن اعتراف محمد علي الطاهر بالخطأ والرجوع إلى الصواب حين يثبت له انه كان مخطئاً ، وقد كنا في حديث انطون الجميل ، واسماعيل صبري باشا وترجمة بيت الشعر عن الفرنسية ، ولما كنت لا أحتفظ بنسخ من رسائلي التي أكتبها للآخرين فان ما أذكره هو اني كتبت له بما مضمونه : ان ليس عندي أي شك في أنه قاموس واسع ، ومرجع وثيق لتاريخنا الوطني الحديث ومعرفته بالرجال الذين عملوا في عصرنا في الحقول السياسية والاجتماعية الصغيرة والكبيرة ، وباستطاعة القارىء الذي لم يتعرف به عن كثب أن يتعرف بهذه الملكات عن طريق كتابه (في ظلام السجن) وقلت له ان كل هذا صحيح لا يتسرب اليه الشك ، ولكن بيت الشعر الـذي نسبه لأنطون الجميل انما هو لاسماعيل صبري ويشهد على ذلك أنطون الجميل نفسه ، لأنه – أي الجميل – هو الذي نشر المقطوعة المترجمة في مجلة (الزهور) التي كان يصدرها الجميل وأمين تقي الدين ، وهي مذيلة باسم اسماعيل صبري باشا على هذا النحو :

لم يدر طعم العيش شبّـان ولم يدركـه شيبُ
جهل يضل قـوى الفتى فتطيش والمرمـى قريب
وقوى تخور إذا تشبـث بالقوى الشيـخ الأريـب
فيمـا يقال كبا المغفّـل اذ يقال خبـا اللبيـب

أواه لـــو علـم الشباب وآه لو قـدر المشيـــب

ومن المؤكد انني قد قلت له ــ كما أتذكر ــ ان ليس من مانع أن يكون أنطون الجميل قد كسب الجائزة عن هذا البيت بقالب آخر ، وصياغة أخرى من الشعر أو النثر أو عن ترجمة لا دخل لها بهذه المقطوعة ، ولكن هذه المقطوعة ومن ضمنها هذا البيت لا أحسبها من ترجمة أنطون الجميل وانما هي من ترجمة اسماعيل صبري ثم اني لم أعلم بأن أنطون الجميل شاعر قبل أن تتحدث لي أنت عنه وكل ما كنت أعلم انه كاتب ناثر ومن نوابغ الكتاب .

ثم قلت له على أغلب الظن : وأنا مؤتمر بأمرك ، ونازل على حلمك خوفاً منك مرة ، ومحبّة لك مرة أخرى ، اذ كنت أتحاشى جهدي مناقشته لئلا أثير غضبه ، ومع ذلك فقد وصفني في إحدى رسائله بشيخ المجادلين ؟ وهو والله أحق مني بهذا الوصف لأن جدله وعناده كثيراً ما أبعد عنه أخلص خلانه بل وحتى أهل بيته ــ كما أشرت إلى ذلك فيما سبق غير مرة ــ في قسوة دعت ذات مرة ابنه الوحيد الحسن أن يخرج من بيته ، ثم تبعته أمه ! ! وقد بذل الشيخ جلال الحنفي مجهوداً كبيراً حتى أصلح بينه وبين ابنه الحسن ، فقد كان الحنفي أثيراً عنده ، ولم تخل رسائل الطاهر التي يبعث بها اليّ من ذكر الحنفي وأخباره ، وكنت أعرف أشياء أخرى عن الشيخ الحنفي مما يكتبه لي الطاهر حين كان الحنفي في الصين فضلاً عما يكتبه لي الحنفي عن ذلك .

ولقد بلغ ضيق صدر الطاهر أخيراً بالحنفي حين عاد الحنفي من الصين ومرّ ببيروت في طريقه إلى بغداد إلى حدوث ما يسمى بسوء التفاهم ، فكان من ذلك ابتعاد الشيخ الحنفي عن الطاهر ، وانقطاع ذلك الحبل المتين من الاتصال الذي لم يكن يجري في بال أحد أن يكون انقطاعه ممكناً ، وطالت القطيعة ، وطال سعيي مع الطاهر والحنفي لاعادة المياه إلى مجاريها كما

يقولون ، ولكني نجحت أخيراً بعد جهد كبير أن أعيدهما إلى صفائهما السابق ، وكان ذلك قبل وفاة الطاهر بسنة واحدة ليس أكثر ، وقد كان الحنفي جد فرح أن يموت الطاهر ولم يبق شيء في نفسه منه ، وقد زالت كل العوائق التي أدت إلى القطيعة .

مرة أخرى جرني الحديث على غير اختيار إلى ناحية ليست لها صلة بحديثنا عن أنطون الجميل واسماعيل صبري وترجمة الشعر ، واعتراف الطاهر بسهوه ، فمن الحق أن يقال بأن الطاهر العنيد الشديد التمسك برأيه ، قد يهون عليه الاعتراف بالخطأ حين يثبت عنده الوهم والسهو والخطأ ، وقد كتب لي بعد أن مرّ على مناقشتنا زمن طويل حول أنطون الجميل واسماعيل صبري تخللته رسائل كثيرة ولربما زرت أنا بيروت مرة أو مرتين لم يجر فيها أي ذكر لتلك المناقشة ، بل لقد نسيت أنا ولعله نسي هو ، وهو لا ينسى حتى الأشياء التي أقل تفاهة من اختلافنا هذا ، وإذا بي أتلقى منه رسالة وفي ضمنها ما يشير إلى أنه قد حصل على ما يؤكد قولي فثبت عنده أن الترجمة كانت لاسماعيل صبري وليست لأنطون الجميل... ! !

وجرى مرة نقاش تافه آخر بيني وبينه حول بيت من قصيدة شوقي التي يعارض فيها قصيدة (يا ليل الصب) فقد كان الطاهر يروي البيت على هذا النحو :

مولاي وروحي في يـــده ما ضيّعهـا سلمت يده

والويل لمن يعارضه في رأيه هذا ، ولا بد أن معارضيه كانوا يسكتون على مضض وخشية من غضبه ، وأنا حين كنت أعارضه فلم أعارضه بشكل المحاجج الناقد وانما كنت أتواضع كثيراً وأسوق معارضتي له كمن يستجدي شيئاً منه استجداء،وبذلك الأسلوب قلت له : والمظنون أن يكون الأصل : « قد ضيعها سلمت يده » كما هو مطبوع في الأصل وهذا ما ينطبق عليه قول القائل « وكل ما يفعل المحبوب محبوب » وهو على غرار

قول كثير لعزّة الحبيبة يوم كلفها زوجها بأن تشتم عشيقها فقالت لكثير : يا ابن الزانية ؛ فقال كثير :

هنيئاً مريئـــاً غير داء مخامر لعزة من إعراضنا ما استحلّت

وعلى حسن تواضعي ، وأسلوبي في مخالفة رأيه لم أسلم من شيء من حدة طبعه الأمر الذي جعلني أبالغ أكثر في المجاملة اكراماً لشخصيته ، ووفائه ، وجهاده الصادق ، وبعد أيام وأنا ببيروت قال لي : أتدري انني كنت مخطئاً فيما كنت أرى طوال هذه السنين ، وكنت أحسب ان كلمة (قد ضيّعها) ما هي إلا غلطة مطبعية وردت في هذه القصيدة ، وقد أنعمت النظر فيها اليوم جيداً فاذا بها كما وردت في الطبع .

ولا أحسب ان قطراً من الأقطار الاسلامية فضلاً عن الأقطار العربية يخلو من معارف وأصدقاء محترمين لأبي الحسن الطاهر ، يكاتبونه ، ويكاتبهم ، ويكلفونه بأمور تخص المحن الإسلامية أو العربية ، وما أسرع ما ينهض بها بالطريقة التي يراها ناجحة مفيدة ، وأظن ان في خزانة أوراقه من رسائل الملوك ، والأمراء ، والرؤساء ، والعلماء ، والأدباء من مختلف الأقطار ما يؤلف مجاميع جد كبيرة تصلح أن تكون مصدراً من مصادر تاريخنا الحديث ، والذي قد تكون (مذكراته) التي لم أرها قد ضمت طائفة منها كما ذكرت من قبل ، كما انه يملك طوابع بريدية ذات قيمة كبيرة يتجاوز عدّها المليونين طابع على ما أخبرني به هو ، وفي ضمن هذه الطوابع مجموعة تعتبر بحكم اليتيمة وكنت آتي له في كل سنة بعدد مما انتزعه من الرسائل التي تردني أو مما أجمعه له من الأصدقاء الهواة بجمع الطوابع ، حتى لقد ظن روكس العزيزي انني أجمع ذلك لنفسي فكان يزودني من حين لآخر بسلسلة من الطوابع الأردنية الجديدة التي لم تستعمل فأحملها معي للطاهر .

ومن عادته حين يعجب بقصيدة لأحد الشعراء لموضوعها الوطني ،

أو الاجتماعي أو الأدبي ينتزعها من الصحف ويطبعها من جديد طبعاً متقناً وعلى ورق صقيل بعد أن يكون قد علق عليها ولفت الأنظار إلى محاسنها ومغازيها ، ثم يقوم بارسالها إلى أغلب من يظنه مشاركاً له في الرأي ، أو الذين يرغب في أن يشاركوه ، كما يبعث بها إلى أغلب الصحف لتقوم بنشرها من جديد ، وقد فعل هذا في قصيدة لأخي عباس الخليلي ، وقصيدة لشفيق جبري .

- ٩ -

والحديث عن حماس (الطاهر) ووطنيته ، وثورته ، حديث طويل لا أحسب أن كتاباً واحداً يكفي المؤرخين ليأتوا به ذكراً ووصفاً للجانب الوطني من حياته ، فقد عمل لفلسطين يوم كان في فلسطين ، والقاهرة ، وعمل للعرب عموماً يوم كان يصدر (الشورى) بمصر بما لم يستطع أن يعمله أحد في مثل ظروفه القاسية ، والشديدة القسوة ، لقد عمل بلسانه ، وقلمه ، وبكل قواه في الخفايا وفي الظواهر ، وان اعداد نفسه لتهريب الأمير عبد الكريم الخطابي انما هو مغامرة واحدة من عشرات المغامرات والحكايات الدالة على أنه لم يكن يكتفي بنشر المقالات ، والحفز ، والتخطيط جهاداً فيما يراه مفيداً للأمة العربية ، وقد لا يدري البعض انه طالما كان يأوي المشردين الذين تبحث عنهم السلطة ، فيخفيهم في بيته إلى ما شاء الله ويطعمهم في وقت هو أحوج إلى الطعام منهم ، ولا أحسب ان قطراً من الأقطار العربية كان يكافح الاستعمار لنيل الحرية والاستقلال ولم يكن للطاهر اصبع أو شبه أصبع ولو كان صغيراً أو أثر ولـو كان قليلاً في المشاركة بذلك الجهاد من قبيل جمع المال ، أو تهريب السلاح بالطرق السرية ، أو باثارة الرأي العام ، وطبع المناشير السرية وحملها إلى تلك الجهات ، أو نشرها في نفس المكان ، وكانت له من القدرة في كل تلك الميادين ما يثير العجب ، وهذا والله ما فعله مع المغرب ، ومع الجزائر

وتونس وليبيا في حربها مع الايطاليين بصورة خاصة ، وهكذا كان شأنه مع سوريا والعراق ، فضلاً عن فلسطين التي كان يقصر عليها كل طاقته ، ولو أنصفنا لأقمنا له في كل قطر نصباً يذكّرنا بالرجل الذي كان يحيل الضعف إلى قوة لا يستهان بها .

وفي لبنان – وبالرغم مما أصابه من الضعف والخور في صحته ، وما سببت له قضية فلسطين من جروح روحية لا تندمل فقد اتخذ من ندوته في بيته عاملاً لاثارة الحماس في نفوس الناس وتأليب العرب والمسلمين على الصهاينة ، ومن الاعتراف بفضله ملخصاً ما نعتته به الهيئة العربية العليا لفلسطين التي جاء في نعيها له ما يلي :

« فقدت فلسطين وطنياً كبيراً هو الأستاذ محمد علي الطاهر صاحب جريدة (الشورى) التي كانت لسان صدق للقضية الفلسطينية دون هوادة ، كما اشتهرت بدفاعها عن القضايا الاستقلالية للأقطار العربية ، والاسلامية ، وكان الفقيد (أبو الحسن) مقيماً ببيروت منذ عشرة أعوام ، وكان ناديه فيها ملتقى الوطنيين ، والفضلاء من العرب والمسلمين » .

وكان حماسه الوطني هذا يجعل موضوع الاستعمار ، والقضية العربية ، والفلسطينية كثيراً ما يطغى على الموضوعات الأخرى في ندوته الأسبوعية ، وكثيراً ما يغضب ويثور ، فتجحظ عيناه ، وتتجهم سحنته ، حتى ليتصبب منه العرق وهو في فصل الشتاء إذا جاء ذكر اليهود والعرب ، وهو وابن عمه علي نصوح الطاهر وغيرهم من الألوف بل من الملايين من لا يميزون بين اليهود والصهاينة .

وأذكر اني كنت مدعواً في الصيف من سنة ١٩٦٧ بطهران في ضمن من دعي من المستشرقين وعلماء التاريخ – وإن لم تكن لي هذه الأهلية – في مؤتمر ضم أشهر المؤرخين في أشهر الجامعات لاستعراض تاريخ ايران وتأليف لجان يعهد اليها غربلة هذا التاريخ وتلخيصه تلخيصاً علمياً أكاديمياً، وكتابته بأية لغة

من اللغات الحيّة ثم طبعه عند الانتهاء منه ولو بعد عدة سنوات ، والقيام بعد ذلك بترجمته إلى اللغة الفارسية كتاريخ مفصّل لجميع النواحي التي تخص ايران ، حتى النواحي الفنية ، والأدبية مجردة من شوائب الأساطير والخرافات التي ارتؤى عزلها في كتب مستقلة ، على أن يكون التحقيق العلمي الأكاديمي هو الرائد والمسيطر على هذه البحوث دون مراعاة أي شيء آخر ، وذلك منذ أول تاريخ ايران حتى نهاية السنوات الأخيرة من القرن الأخير ، وكان بين هؤلاء المدعوين البرفسور (برنارد لويس) أستاذ التاريخ الشهير بجامعة لندن وهو يهودي امتاز بكون صبغته العلمية قد جعلته فوق مستوى التفكير بالقومية والعنصرية على ما اشتهر عنه، وقد درس عليه جلّ أساتذة التاريخ العرب من الذين درسوا التاريخ بجامعة لندن وفي ضمنهم عدد كبير من أساتذة التاريخ العراقيين ، وهو اليوم من أكابر مراجع تاريخ الشرق لاحاطته بجميع اللغات الشرقية وهذا ما يتناقله عنه من يعنيهم التفكير فيه كيهودي .

ولم يكن ذلك بالمستغرب أن يكون بروفسور كبرنارد لويس يسمو بأفكاره فلا يهتم إلا بالعلم متخذاً منه ديناً ومذهباً في دنياه إذا لم يخرج حتى على الدين والمذهب فهنالك من اليهود من يخالف الصهيونية وأفكارها . وفي طليعة أولئك العالم النفساني الكبير (ايرفروم) وهو يهودي كما يعرف الجميع ، وكان يشجب الحركة الصهيونية ويعدها حركة عنصرية تخالف سير العلم والحق ، والعدل ، وتسيء إلى البشرية . ومن بين هؤلاء قيل عن كيسنجر مثل هذا القول وهو يهودي ، وسياسي ، والسياسة ملعونة تجر الانسان إلى ميوله الخاصة من حيث يريد أو لا يريد ، ولكن المطلعين على السياسة يقولون بأن أفكار كيسنجر كانت واقعية في سنة ١٩٧٣ ولم يلمس أحد منه تلك الميول القومية الصهيونية التي تتصف بها الصهيونية العنصرية لأنه كان أستاذ جامعة تشبّع بالعلم الذي من يتعمق في مبادئه يكن هو والعنصرية على طرفي نقيض .

وكان علي نصوح الطاهر – ابن عم محمد علي الطاهر – يومذاك سفيراً

للمملكة الأردنية بطهران ، وقد تلقى برقية من محمد علي الطاهر يعلمه فيها بوجودي بين أعضاء المؤتمر المنتدب للبحث عن كيفية استخلاص تاريخ ايران الأكاديمي غير الخاضع للسياسة والرغبات والعواطف والمجرد من شوائب الخرافات والأساطير ، وفي يوم وصولي إلى طهران كان علي نصوح الطاهر بانتظاري ، ومن هنا بدأ اتصالنا ، وتحول هذا الاتصال إلى صداقة متينة وراسخة ، وقد رأى علي نصوح الطاهر أن يدعوني لأكلة أردنية هي المعروفة (بالمنسف) والمنسف هذا طعام كنت أسمع به ولم أره ولم آكله حتى دعاني وصفي التل يوم كان سفيراً للأردن ببغداد ، فتناولته على مائدته مع صبيحة الشيخ داود وصبيح الغافقي .

وزيادة في تكريم علي نصوح اياي رأى أن يدعو رؤساء الوفود جميعاً من المستشرقين والمؤرخين العرب وكان عددهم نحو ثلاثين رئيساً أما مجموع المنتدبين لمؤتمر التاريخ فقد كان ١٢٥ عضواً ، وكان البروفسور (برنارد لويس) من المدعوين لمائدة علي نصوح بصفته رئيساً للمؤتمرين الانكليز ، لذلك كثرت صواني المناسف وكان الكرم الأردني يتجلى بأجلى أمثلته في هذه المائدة السخية ، وكان البروفسور برنارد لويس اليهودي يجلس إلى جانب علي نصوح ، وكنت أنا أجلس قبال علي نصوح ، ولما كان البروفسور لويس يحسن النطق بالعربية فكان من الطبيعي أن يخصه السفير بالحديث أكثر من غيره لاسيما وهو جالس إلى جنبه وراء مائدة الطعام الطويلة في امتدادها ، ولست أدري كيف جاء حديث فلسطين ثم جاء حديث اليهود بصورة خاصة في الماضي والحاضر ، وللسيد علي نصوح خبرة واسعة بتاريخ الشرق فضلاً عن تاريخ العرب ، وهو خريج جامعات فرنسا ، فاستعرض في حديثه مع (برنارد لويس) تاريخ اليهود في كثير من الاسهاب ، وأفاض في سرد طبائعهم بالذم ، والتنديد حتى أنكر أن يكون هناك يهودي دون أن يكون صهيونياً وكان كل ذلك يقوله السفير

بالعربية والانكليزية أحياناً وبالفرنسية لكي يفهم الجالسين حول مائدة الطعام ما يريد أن يقول .

ولما كان برنارد لويس بمثابة الضيف أولاً . ولأنه لم يعرف عنه بأنه صهيوني فقد رأيت من الواجب أن أفهم السفير بأن هذا الجالس إلى جانبه يهودي ليخفف بعض الشيء من حملته على اليهود وليس على الصهاينة . فلم أترك وسيلة – وأنا جالس قبالة السفير على المائدة – من الغمز والاشارة ، والحركات لكي أفهمه بأن هذا البروفسور يهودي،وان ليس من المجاملة الدبلوماسية ، ولا من اللياقة أن يسبّه وهو ضيف في بيته ، وما تركت طريقة تستلفت النظر إلا واستعملتها لأحدّ من اندفاعه فلم أفلح لأنه لم يفهم شيئاً من إشاراتي وغمزي وحركاتي .

ولم تتح لي فرصة قبل عودتي أن أنفرد بعلي نصوح لأذكر له ان الذي كان يكلمه كان يهودياً ، وكان من الأفضل غض النظر عن القول بأن كل يهودي صهيوني ما دام هذا البروفسور اليهودي لم يتهم من قبل بمثل هذه التهمـــة .

وعدت إلى بيروت لأن أحد كتبي كان لا يزال تحت الطبع ، ولأني لم أقض بقية الصيف بلبنان بعد ، ورويت الحكاية لمحمد علي الطاهر ، وكيف اني عجزت عن لفت أنظار ابن عمه علي نصوح باشاراتي ، وسرعان ما كتب محمد علي الطاهر إلى ابن عمه بالحكاية .

وأنهيت عملي في طبع كتابي ببيروت كما أنهيت البقية الباقية من الصيف بلبنان ، وعدت إلى بغداد ، واذا برسالة من محمد علي الطاهر يقول في بعض ما يقول فيها :

« ... وأما صديقك علي نصوح الطاهر ابن عمي الذي يحبّك ، فانه لم

يغضب ولم يسخط من حكاية ذلك اليهودي الذي خدع الناس في ايران ، ودسّ نفسه بين الفضلاء ليسرق أخلاقهم ، وكرمهم ، وسعة صدورهم ، ويختلس ثقتهم ، فان هذا اليهودي بتكتمه وتستّره بالعلم ما هو إلا جاسوس داسوس ، وعالم غشّاش . قد استحق تلك (البسطة) التي أكلها من نصوح ، قياماً وقعوداً ، وعلى جنوبهم ، بل ضرباً وطعناً بذوءآبات لسان نصوح بلغة افرنسية سليمة ، بليغة ، واضحة . فبلع ذلك الصهيوني تلك الأحذية على رأس صهيون كلها . بعد أم رأسه هو بالذات .

وإذا كان سمع علي نصوح الثقيل — وكان سمعه ثقيلاً وهو يستعين عليه بجهاز خاص — الذي يزدان به (نصوح) قد حال دون سماعه همساتك عن يهودية ذلك الخبيث اللئيم ، وصرف ذهنه وفكره عن اشاراتك ، وايماءآتك ، فان (نصوحاً) مسرور ، ضاحك من تلك المصادفة ، وأنا أيضاً (مبسوط) منها (حسب اصطلاح العالم العربي أجمع ما عدا الاصطلاح العراقي والعياذ بالله) آه .

وإذا كان الفرّاء قد مات وفي نفسه شيء من (حتى) فقد مات أبو الحسن الطاهر وفي نفسه جروح وقروح من قضية فلسطين تفوق جروحنا وقروحنا ملايين المرات ، وأقسم ان اسم فلسطين لم يسقط من لسانه في كل يوم بل وفي كل ساعة ولا تغادر صورة فلسطين ذهنه ليلاً ونهاراً ، وربما حتى في المنام ، وطالما هاج وهو في ندوته وماج ، وشتم الذين يملؤون كراسي الحكم في الدول العربية ولا يهتمون إلا بأنفسهم ومراكزهم...

ويروي (عجاج المهتار) فيما يروي عن ندوة محمد علي الطاهر حكاية (فلسطين فين) ويقول عجاج : « انها حكاية طريفة من عيار المضحك المبكي اذ كان أبو الحسن الطاهر يرددها في ندوته باستمرار وعينه ترقرق بالدموع ، دموع الخيبة من تنكّر جماعات العروبة والإسلام لقضية الوطن السوري ، ومسألة فلسطين ، والحكاية المعروفة هي أن (الطاهر) توجه ذات يوم ، يوم كان بمصر على رأس وفد من أعضاء اللجنة العربية العليا

لمقابلة شخصية مصرية كبيرة خلال العهد الملكي للبحث بما يمكن أن تقدمه مصر الشقيقة الكبرى لمساعدة فلسطين ، ولمنع الصهاينة من اغتصاب فلسطين ، فتنحنح الباشا ، وقال باهتمام ، وباللغة الدارجة : « طيّب يا جماعة ، ولكن فلسطين دي اللي جايين تقولوا عليها تبقى فين ؟ »

من آخر صور المرحوم المجاهد «ابي الحسن» هذه الصورة التي تجمع بينه (من اليسار) والاساتذة احمد بن سودة (رئيس الديوان الملكي في المغرب) ، المحامي محسن سليم ، الشيخ زهير الشاويش (صاحب المكتب الاسلامي) وقد اخذت بداره في الحازمية خلال حفلة تكريم الاستاذ ابن سودة .

في النجف الأشرف جمعية باسم (جمعية الرابطة العلمية الأدبية) أسسها السيد عبد الوهاب الصافي ، وصار حديث (الرابطة) ديدناً لعبد الوهاب الصافي ، بحيث لا يضمه مجلس إلا وتكون الدعوة (للرابطة) أول حديث يبدأ به الصافي ، وقد انضمت إلى هيئة التأسيس طائفة من أبرز رجال الأدب ، ونوابغ الشعر من أمثال صالح الجعفري ، والسيد محمود الحبوبي ، والدكتور عبد الرزاق محي الدين ، والشيخ محمد جواد الشيخ راضي ، ولكثرة ما كان يجري اسم (الرابطة) على لسان السيد عبد الوهاب الصافي الذي أذاب نفسه في تكوين (الرابطة) قال له الشيخ محمد رضا الشبيبي — ولقد أوردت هذه القصة من قبل في أثناء حديثي عن الشبيبي غير مرة فأستميح القارىء المعذرة من التكرار — لقد قال له الشيخ الشبيبي ذات يوم والصافي في غاية الحماس بذكر (الرابطة) ومكانتها وما ينبغي

لها من المساعدة ، قال الشيبيي : ان المعروف عندي ان الأمراض المبدوءة بكلمة (الذات) ثلاثة : هي ذات الجنب ، وذات الرئة ، وذات السحايا ، ولم أدر أن هناك مرضاً رابعاً هو الذي ابتلي به عبد الوهاب الصافي وهو (ذات الرابطة) ولو كان حبّ فلسطين والغيرة عليها ، والدفاع عنها يصح أن يكون مرضاً — وهو غير صحيح — لقلنا بأن محمد علي الطاهر مصاب (بذات فلسطين) وقد انفرد به وحده من حيث الاصابة الممضة المتغلغلة في أعماق أعماقه . وبالاجمال فما رأيت شخصاً صحبته ذكرى فلسطين ومحنتها إلى الموت ، ان لم تكن هي علته التي مات فيها مثل محمد علي الطـــاهر .

— ١٠ —

والطاهر وإن كان قليل الشكوى من أمراضه ، فقد ظهرت عليه أعراض التعب واعتلال الصحة ، منذ أن هرب من السجن وهو في المستشفى ، فقد كلف نفسه فوق طاقتها من التجوال بين القرى ، وسلوك الطرق الوعرة أحياناً لاخفاء خبره ، وهو متخف في أزياء مختلفة ، وبألبسة نسوية وفي حجاب كثيف أحياناً ، وبأزياء الفلاحين ، حتى استقرّ أخيراً في تنكره بألبسة القضاة والمشايخ ، وقد أطلق لحيته ، ووسع ردني (قفطانه) واعتمر العمامة ، وحمل حقيبة هي احدى رموز المحامين الشرعيين ، إلى غير ذلك مما كلفه التشرد من المجهود الروحي والجسدي ثم الانغماس حتى شحمة أذنيه في الخدمة الوطنية سرّاً وعلناً ، فهو على هذا مريض روحياً منذ عرف الحياة ، ومريض جسدياً منذ أكثر من ثلاثين سنة مما زاد عصبية مزاجه ، وحدة طبعه ، وضيق صدره ، وعناده الذي دعا ابنه الحسن ، وأمه ، وابنته إلى الخروج من بيته بعد أن ضربت (أم الحسن) أروع الأمثال للزوجة المثالية في تحمل زوج كهذا ، والصبر على شظف العيش ،

ومرارة الحياة في أشد الأوقات حرجاً فكانت نعم الزوج طوال السنين الشـــاقة .

وضعف قلب الرجل ، وليس عنده واحد في بيته . وكان ابنه الحسن يعمل في السعودية ، وقد جاء إلى بيروت مصادفة في الوقت الذي كان الطاهر قد دخل المستشفى الأميركي ببيروت . وحضره الابن ، كما حضرته الزوجة وابنته . وكان الدكتور سامي قائدبيه المتخصص بأمراض القلب في المستشفى هو المشرف على معالجته وقد أبدى أسفه منذ الساعة الأولى التي قام باجراء فحوصه العامة عليه ، ومنع زيارته ، وأخبر آله ، ومعارفه، بأن الرجل يدنو من نهايته، وان ليس بينه وبين مفارقته الحياة إلا القليـــل .

وكنت أنا حينذاك مصطافاً بسوق الغرب ، وقد علمت بالخبر ، وعلمت ان الطبيب لا يجيز الدخول عليه وعيادته ، فظللت في دوامة من القلق والاضطراب حتى جاءني صديق الطرفين عجاج نويهض إلى سوق الغرب ، وأخبرني بأنه ذهب إلى المستشفى ليسأل عنه ، وصادف ذلك في اللحظة الأخيرة التي صعدت روحه فيها إلى باريها ، من يوم الخميس الموافق ١٩٧٤/٨/٢٢ فشيع تشييعاً شعبياً فخماً كنت أنا أمشي فيه مشية الذاهل الذي لا يرى شيئاً من خلال دموعه المتساقطة في غفلة عن الناس غير تلك الصورة البهية بمعانيها ، والمتدفقة بتلك السيول الهدارة من حب الوطن ، والتفاني ، والإخلاص ، التي خسرها العرب أجمعين ، ولو كان الصديق محمد توفيق الغصين قريباً مني لسألته: أتذكر كيف أخذتك معي ذات ليلة إلى ندوة (الطاهر) ؟ وكيف بدأ (الطاهر) يستعرض تلك الذكريات العزيزة في وطنه فلسطين ؟ ذاكراً رفاق جهاده ، متمنياً لو تسنّى له اليوم ليلة واحدة من تلك الليالي التي كان ينام فيها في بيتهم هانئاً بما كان يملأ نفسه من الأماني والآمال بمستقبل فلسطين ، وينعم بالأحلام اللذيذة التي كان ينعم بها .

أجل لو كان محمد توفيق الغصين قريباً مني في هذا التشييع لسألته : أيذكر تمنيات (الطاهر) في تلك الليلة ؟ حتى إذا أجاب بالايجاب ، كنت أقول له هذا هو (الطاهر) لقد ذهب . وذهبت معه تمنياته ، ولم يتحقق منها حتى عودة لضجعة واحدة في تلك الغرفة التي كنتم قد خصصتموها به . فنام هنا في هذه الأرض البعيدة عن مسقط رأسه فلسطين غريباً ودون أن تعرف له جنسية معينة فوا أسفي عليه .

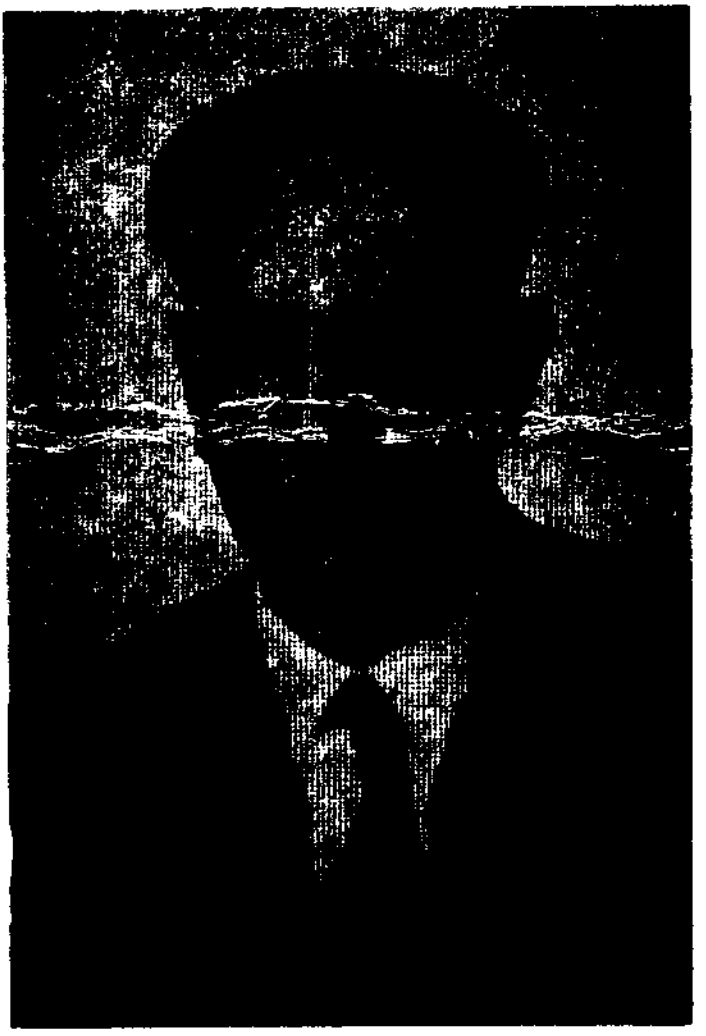

عبد القادر عياش

كيف عرفت
عبد القادر عياش
١٩١١ ـ ١٩٧٤

ـ ١ ـ

في الخمسينات ، ولا أذكر أية سنة منها بالضبط ، دعيت إلى وليمة عشاء في بيت الصديقين كوركيس عواد ، وميخائيل عواد ، وهما يقيمان في بيتين ـ متلاصقين ، متصلين ـ من بيوت الكرادة الشرقية من بغداد ، وقيل لي ان المناسبة في هذه الدعوة هي تكريم شخص باحث يعنى بالفلكلور وتاريخ ما أهمله التاريخ مما يخص الفرات الأعلى و (دير الزور) وأطرافها ، ولأول مرة أسمع باسم عبد القادر عياش وأراه بعيني ، وكان يومذاك دون الأربعين ، قامة معتدلة ، وبشرة وجه نقية ، ودماثة خلق جذابة ، في صوت هادىء ، حبيب إلى النفس ، وكان الأخوان (العوّادان) قد دعوا جمعاً من الأدباء وحملة الأقلام ، والصحافيين فامتلأ بهم صالون الدار الواسع ، وأعدّ مائدة موصلية لم تدع طعاماً يعرفه أهل الموصل ويحسنون طهوه إلا وكان شيء منه فوق المائدة ، وكانت المائدة سخية بتلك الأصناف التي يأكلها أمثالنا من غير الموصليين لأول مرة ، حتى الخبز كان منه ما لم نسمع به من قبل كالخبز الأصفر ، والخبز الأسود ، والخبز المحلى ، والخبز المملح ، والخبز الذي يدعونه (بالكبابة) وأصناف من المعجنات التي

أثارت الدهشة في نفسي بتفنن الموصليين في ألوان الأطعمة ، و (الكبب) الموصلية بصورة خاصة ، لأن الأخوين كوركيس وميخائيل موصليان أصيلان ، عريقان .

وكان لا بدّ لي أن أعرف شيئاً عن هذا الضيف المكرّم ، فعلمت انه سوري ، ومن أهل (دير الزور) ، وأنه محام ، ومن مواليد ١٩١١ ، وقد تخرج في كلية الحقوق بدمشق سنة ١٩٣٥ ، وانه صحافي يصدر بدير الزور صحيفة باسم (صوت الفرات) منذ سنة ١٩٤٥ ، وعجبت كيف لم أسمع باسمه من قبل ، وأنا الآخر صحافي مثله يصل اليّ عدد غير قليل من الصحف على سبيل المبادلة ، فلم تقع عيني قبل هذا على هذه الصحيفة ، ولا على اسم هذا الرجـــل ؟ وزال عجبي بعد ذلك بسنوات حـــين عرفت عبد القادر عياش معرفة جيدة ، وعلمت انه من الرهط القليل الذين يعملون بدون ضجة ، ودون اعلان ودعاوة لأنفسهم ، وان ما ورثه من أبيه – وكان أبوه تاجراً – وما يكسبه من محاماته كان ينفقه على صحيفته التي جعل منها صحيفة خاصة تعنى بالفولكلور ، واستقصاء العادات والتقاليد ، وتاريخ دير الزور ، وما يجاورها من الدساكر ، والقرى ، وحياة السكان فيها ، وقد صار له شأن مذكور في مثل هذا الاختصاص حتى أصبح في سنواته الأخيرة مرجعاً مهماً موثوقاً به لمن يريد البحث عن شمال الفرات ، وتاريخه القديم ، والحديث ، وسكانه ، وتقاليدهم ، وعاداتهم .

ومرت سنوات على هذه المعرفة ولم يجر بيني وبينه أي اتصال ، ولا أي مكاتبة ، حتى تلقيت منه ذات يوم مؤلفاً جديداً مطبوعاً بمطابع دمشق يتناول فيه جانباً من جوانب هذا التاريخ ، ووجهاً من وجوه الفولكلور ، والذي لا أذكر الآن أي كتاب هو من كتبه التي تمثّله في موضوعاته والتي تلقيته منه أول مرة وقرأته بشوق ولذة ، ومن هذا المؤلف علمت بأن عبد القادر عياش يقوم بوضع سلسلة من البحوث التي تفتقر الثقافة العامة اليها افتقاراً شديداً ، وانه بذلك يسدّ فراغاً لم يسبقه إلى سدّه مؤلف من قبل ،

فكتبت له برأيي واعجابي بما قرأت وأنا طالما زعمت بأني لا أخلط بين الفن والعاطفة، ولربما جاءت الاشارة إلى مثل هذا عني في غير مكان واحد، وما لبثت أن تناولت من البريد عدداً من هذه المؤلفات التي انفرد بموضوعاتها وبحوثها عياش ، فرحت أقرأها واحداً واحداً، وأدهشني بما يبذل من مجهود في جمع هذه المعلومات وتفلية المصادر والبحث عنها في مظانها وغير مظانها ونشدان الطرائف منها كأن يخص أحد مؤلفاته (بالعصا) فيصف العصا ، ويأتي على وصف أنواعها ، ويذكر أهميتها، وقيمتها عند العرب السابقين ، وكيفية استعمالها في حوزة من يحملها ان كان من الزعماء ، أو كان من العمال ، أو الرعاة ، وأصول هذا الحمل ، وما قيل في العصا من أشهر الأمثال ، وأشهر الشعر في العربية ، ثم المألوف من أنواع العصوات في (دير الزور) وأطرافها .

ويخص رسالة أخرى (بالبئر) فيذكر وصف البئر ، وأهميتها عند العرب وأشهر هذه الآبار المعروفة في الصحراء ، وكيفية الاستقاء منها ، وما يخص منطقة دير الزور ، وعرب باديتها ، وما جاء في أشهر الأمثال والشعر عن البئر عند العرب .

وهكذا يعمل مع (الذئب) و (الأفاعي والحيات) و (القمر) و (الصيد) و (السعالى) و (الخرافات) و (القصص) وكل موضوع من هذه الموضوعات يخصه برسالة واحدة ومؤلف واحد يتناول تاريخه ثم يعرض للتعرف به في منطقته من دير الزور ونواحيها القريبة والبعيدة ، وقد يتصدى للأمثلة والقصص المقارنة عند البدو والحضر وما يخص (البيت) وأصنافه وأنواعه وما تضم البيوت وتحتوي عليه في الماضي والحاضر من المدن العربية ، والقرى والبيوت الصحراوية ، وحياة (الريف) في الفرات وعشرات من الكتب التي يؤلف كل واحد منها محاضرة وافية ضافية تجمع الموضوع من جميع أطرافه فلا تترك واردة ولا شاردة الا وأشارت اليها اشارة فولكلورية كافية، بالاضافة إلى الكتب التاريخية البحتة

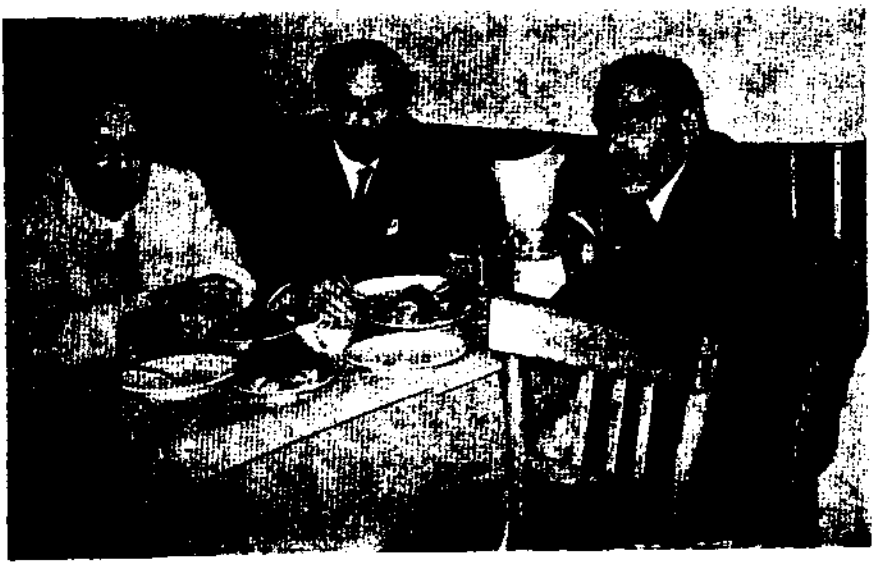

من اليمين الشيخ جلال الحنفي وهو حاسر الرأس وعبد القادر عياش وعبد الرحمن ابو قوس

كتاريخ (الرحبة) — وهي غير الرحبة التي تقع بالقرب من النجف الأشرف في الطريق البري للحج — وهي رحبـــة مالك بن طوق أميرها في القرن الثالث الهجري ، والتي هي اليوم بلدة (المياذين) الواقعة جنوب شرقي دير الزور وعلى بعد ٤٥ كيلو متراً بين دير الزور و (البوكمال) والتي يمرّ بها القادم من بغـــداد إلى دير الزور عن طريق (الرمادي) و (هيت) و (حديثه) و (القائم) و (أبي كمال) .

وكتاريخ (قرقيسيا) و (الخابور) و (دير الزور) الذي كان آخر كتبه التي أخرجها قبل وفاته بقليل ، والذي تضمن ذكر دير الزور عند الرحالة من الأجانب وعلماء الآثار الذين مرّوا (بالدير) في أثناء التنقيب خصيصاً ، أو في عرض طريقهم إلى العراق ، والمعروف في الصحف أن عدد مؤلفات عبد القادر عياش قد بلغت ١١٦ مؤلفاً ، ولكن حسان الكاتب قد أحصى هذه المؤلفات فوجدها ١٣٤ مؤلفاً انحصرت كلها بالفولكلور ، والتاريخ ، باستثناء القليل الذي خرج عن هذا الخط كمؤلفه

عن (ألمانيا الديموقراطية) وهو شبيه بعرض لهذه الزيارة ، كان نتيجة لدعوة تلقاها لزيارة ألمانيا .

وهناك معجم كبير لم يخرج بعد إلى حيز الطبع ، وهو مجموعة تراجم لرجال الثقافة والأدب السوريين ابتداء من سنة ١٩٠٠ حتى سنة ١٩٧٤ وهي سنة وفاته وكان يشير إلى هذا المعجم كثيراً في رسائله التي كان يبعث بها اليّ ، وقد علمت أنه أتم ترجمة ٣٠٠ شخص ولم يزل هذا المعجم مخطوطاً عسى أن يلتفت اليه من يهمّه أمر الثقافة من المسؤولين ، ويلتفت إلى مؤلفاته السالفة ويطبعها من جديد طبعاً متقناً على غرار (الروائع) لفؤاد افرام البستاني ، ونشرها بين المدارس الثانوية وتجهيز المكتبات العربية والجامعات بها ، وطبع ما لم يطبع منها ، وشراء متحفه النفيس وضمه إلى المتاحف السورية الكبرى ، ويعنى بأولاده عناية خاصة برأ بما قدم وفعل هذا الرجل في ميدان الخدمة النافعة .

وأنا أحتفظ بمعظم كتب (عياش) المطبوعة ان لم يكن كلها . وكان (عياش) يعمل كل هذا دون مؤازرة من الحكومة أو المعاهد العلمية،أو المجمع العلمي ، فكل ما يجمعه من عمله من نقود كان ينفقه في هذا السبيل . وكان إلى جانب ذلك لا يتوانى عن تكريم أهل العلم والفن والأدب ، وكان يهدي كل كتاب يصدر منه باسم واحد من أهل الفضل ويضع كلمة الاهداء في صدر الكتاب اشارة إلى هذا التكريم ، وقد فعل مثل هذا مع الكثير كان منهم الدكتور أحمد سوسة فأهدى له كتاب (المعلومات الزراعية والادارية في سنجق دير الزور) الذي ألفه المهندس (نايف) وحققه وطبعه عبد القادر عياش ، لعلاقة الدكتور سوسة بهندسة الري .

وتفضل وأهدى باسمي كتابه الخاص بتاريخ (قرقيسيا) المعروفة اليوم باسم (البصيرة) ، وكتب لي يوم قدم مؤلفه هذا إلى المطبعة يقول :

« ودفعت إلى مطبعة ابن زيدون بدمشق مخطوطتي (قرقيسيا) وهي

(البصيرة) قاعدة وادي الخابور ، وهي تحمل اهداءها اليك ، تحية أصدق الود ، وأوفر التقدير ، والشوق ، وأطيب الأمنيات ، وقد وعدتني المطبعة أن تنتهي من صفها في نهاية نيسان الحالي ، أرجو أن تتكرم بقبول الاهداء ، وهي دراسة تاريخية وأدبية ، وجغرافية ، واقتصادية ، وادارية ، رائدة (لقرقيسيا) بلدة البصيرة حالياً ، والاهداء تجسيد ، وتخليد للصداقة التي أعتز بها وأغتبط ، وهي إذا كانت دون قيمتك الكبيرة عندي فهي كل جهدي ، وجهدي هذا جهد المقل » وقد صدر الكتاب فعلاً وطبع في صدره الاهداء في صفحة مستقلة .

- ٢ -

وقد أحسن الشاعر الكبير محمد عبد الغني حسن شاعر الأهرام في وصف جهود عبد القادر عياش ، واصداره هذه السلسلة من البحوث عن وادي الفرات في قصيدته الرائعة الموجهة إلى (عياش) اذ يقول :

صوتك العذب في المسامع رنّا ... يصف الماضي الذي ضاع منّا
يرفع الستر عن تراث مجيد ... ويرينا وجهاً من الصبح أسنى
يصل الحاضر السنيّ بماض ... كان مثل النهار ضوءً وحسنا
ويردّ الحياة في كل شيء ... ويعيد الحياة في كل مغنى

• • •

من يظن الحياة بالأمس ضاعت ... لمحات منها فقد خاب ظنا
أنت سجلتها انطلاقة لفظ ... أنت دونتها اختلاجة معنى
أنت صورتها فأحييت منها ... أثراً دارساً وشيدت ركنا
فكأنّا نرى التراث لدينا ... نتملى منه ونمتع عينا
أنت أضفيت باقتدار عليه ... صوراً حيّة وعلماً وفنا

فكأنـا نزور متحف فـن جمع الطيبات لوناً فلونـا

• • •

ان وادي الفرات لعدنيه الينا باحثاً بالفنون صار معنّى
شغلتـه ملامح الشعب حتّى وجد القصد عندها واطمأنّا
كل يوم نرى كتاباً جديـداً من أفانينه ونسمع لحنـا

وأحسن كذلك الأب يوسف سعيد الذي كتب إلى مجلة الأديب من السويد يصف عبد القادر عياش وصفاً كاملاً على الرغم من إيجازه فقـال :

« تلقيت منه – أي من عياش – رسالة يسألني فيها عن الحضارة السريانية ، في دير (مارزكى) المجاور لمدينة دير الزور ، والجاثم على الفرات ، وأجبته عليها ، وفي حينها طلب مني مؤلفي عن المطران بولس بهنام صاحب مجلة (المشرق) الموصلية ، فأهديت الكتاب اليه مع رسالة ضافية ، ثم يقول الأب يوسف :

« وذات يوم من صيف ١٩٧٠ وفيها أزور للمرة الأولى (دير الزور) كان الأستاذ عبد القادر عياش يسأل عني ، ويريد اللقاء ، وفعلاً اتصل به صديقي الديري ، فما كان منه إلا أن جاء سريعاً ، وقال لي : برنامجنا جلسة على ضفة الفرات ، وجولة في المدينة ، وزيارة بيتي ، والاطلاع على مكتبتي ، ومتحفي ، وزيارة الشاعر محمد الفراتي ، ثم قال الأب يوسف :

وان العشية في دير الزور ، والمساء الحالم يمسّد الماء الهادىء في فراته جلسة حلم نادرة ، والماء الفراتي حلو المذاق ، والشمس حزينة في وداعها ، والصمت شفاف إلا من لهجة (الديريين) وانها قريبة من لهجة الموصل ، وقد تحدثنا – أنا وعياش – طويلاً ، وقمنا بالجولة في المدينة ،

وكانت اللحظات باهتة جداً تجاه المدينة الحلوة ، وكنت أتحسس طفولتي بالذات في الموصل ، وكان عبد القادر عياش يشرح لي تاريخها .

« وإذا كانت حضارة القرن العشرين في زحفها الدائم على سورية فغداً سيقول تاريخ الفولكلور بأن عبد القادر عياش من أساطين من أرخ للوادي ولم يترك واردة ، ولا شاردة إلا وسجّلها ، وهو مخلص إلى عملة اليراعة ، يتفقدهم ، ويزورهم ، ويسأل عنهم ، ويناقشهم ، ولا شك ان جلّ مؤلفاته الفولكلورية رائعة ، وما كتبه خالد ، وما لم يكتبه هيهات أن يبقيه الزمن لتغير الأحوال ، وما تفرضه موضة القرن العشرين فرضاً .

« ويبقى عياش ناقلاً قصص الوادي حيث الخرافة ممرعة والأسطورة بهجة رجالها ، واللعب الشعبي يمارس ، الا انه بدأ ينقرض ، والأسطورة بدأت تتلاشى . والخرافة تبقي بقايا في أذهان العجائز .

« وإذا تطرق العياش في بحث فلكلوري حاول ايراد ما جاء عنه بالفصحى . وقد يرجع إلى الكتب المقدسة كبحثه عن (العصا) ويحصي كم مرة وردت في القرآن ، والتوراة ، والانجيل ، ولكن (العياش) سريع النشر ، وأسلوبه أسلوب مؤرخ محدود لا اشراق في تعبيره [1] لكننا نبقى أبداً في دهشة تجاه هذا الحب اللامتناهي تجاه واديه ، وشعبه ، — ويضيف الأب يوسف قائلاً :

« وعندما زرت بيته ، كانت مكتبته رائعة ، ولكنني وجدت كل كتاب يقتنيه أو يهدى اليه حديثاً يحلّ تجليده ، ويفكّ عنه خيوطه ، ويعيده مصفوفاً فوق بعضه ولكن بدون تجليد ، ولما سألته ماذا تعني بذلك أجابني رحمه الله : انها عادتي [2] .

---

(١) وانا اخالف الأب في رأيه هذا — المؤلف .

(٢) والذي أعلمه أنا مما سمعته منه انه كان يخلع غلاف الكتاب ويقوم بتجليده وفق شكل معين ليناسق تجليده مع الكتب الأخرى ، وكان يجمع هذه الكتب غير المجلدة حتى إذا حصلت له الفرصة قام بتجليدها كلها بيده وبالشكل الذي يريده المؤلف .

« وأما القسم الثاني من دارته ، فهو متحف للأسلحة القديمة التي مارسها شعب الوادي ، وفيها أنواع السيوف ، والخناجر ، والسكاكين ، والرماح ، والبنادق ، وعلب المسدسات ، وغيرها من أنواع الأسلحة ، وإذا كان للسلاح القديم سوق رائجة فان متحف الأسلحة التي جمعها (العياش) متحف له قيمة عظيمة .

« وحدثني العياش عن أسرته وتاريخها في الدير ، ويوم جاء الرصافي الشاعر إلى دير الزور ، وكيفية نزوله ضيفاً على العياش بضعة أيام ...

« وبينما كنت أعتقد ــ يقول الأب يوسف ــ ان الأيام ستمتد بحياته فوجئت بنعيه على صفحات مجلتنا المحبوبة (الأديب) ، وعندما طالعت الخبر كانت أكثر من شهقة حزن تحول ما بين قلبي ، وتعتصر ما بين أهدابي ، ففي ذمة الله يا صديقي الراحل » انتهى كلام الأب في الأديب .

ـ ٣ ـ

والعياش في كل ذلك متواضع ، لا غرور ، ولا ادعاء ، ولا تعال ، ولا يفاخر بأنه قد عمل شيئاً ، أو انه يحاول أن يعمل شيئاً على الأقل ، ولقد كتب لي غير مرة بأنه مفتقر كل الافتقار إلى مساعدتي !! حين رآني أعلق بعض التعليق على بعض كتبه فأروي له ما كان يستحسن أن يضيف شيئاً أو يحذف شيئاً ، فظن بي الخير حتى كتب لي يقول :

« ... وبودّي لو وجدت الأديب الذي أعرض عليه كتاباتي قبل تقديمها للمطبعة ؟ فمن لي بجعفر الخليلي أعرض عليه ما أكتبه ، وأقتبس من حسن رأيه ، وجميل توجيهاته ، وارشاداته ، وآنس به .

« ان بلدتي دير الزور فقيرة لم تبلغ بعد مصاف البلدة التي تنجب الأدباء ، والكتاب ، والعلماء ، وكم تمنيت لو أنها كانت بلد علم ، وأدب ، وفضل وفضلاء ، وكنت أتمنى أن أكون بنفس البلد الذي توجد أنت به لأعرض عليك ما أكتبه ، ولأتقبل ، وآخذ بجميع ما تدلي به وتقترحه ، وتضيفه ، ولولا أن تشق عليّ نفقات الطريق لحضرت إلى بغداد عقب انتهائي من كل عمل أدبي لي لعرضه عليك ، فلا يأخذ طريقه إلى المطبعة الا اذا مرّ من تحت يدك ، وأجزته !! ».

انه غاية في التواضع ، فالرجل كما أعلم باحث مدقق متفوق ، وان الذي كتبه عن وادي الفرات ودير الزور ليس باستطاعة أحد أن يكتب مثله وذلك لعدم احاطته بالذي أحاط به (العياش) ، وهذا مثل آخر لهذه النفس الكبيرة المتواضعة ، البعيدة عن الغرور ، والتي لا تطمع بشيء ولا تبغي من وراء عملها شكراً من أحد ، ولا جزاء ، وقد كتب لي مرة عن عمله الأدبي والتاريخي ، والفولكلوري فقال :

« ... اني أطبع جميع بحوثي على نفقتي دون أن تعود علي منها نفقاتها ، ذلك لأن أمثال هذه البحوث لا تلقى رواجاً ، ولهذا فلا أعرضها في المكتبات ، وانما أطبعها وأهديها في الغالب للأصدقاء ، والمعارف ، والمجامع العلمية ، والمكتبات العامة ، فأجد في ذلك لذة كبيرة ، وهذه اللذة هي التي تحفزني للعمل ، فلقد طبعت أنا على اللذة بالعطاء ، وقد ورثت ذلك عن أمي وأبي فحرصت عليه ، ولو أردت مخالفته لما طاوعتني سجيتي ، ولماذا أخالفه ما دام فيه اللذة في المساهمة بالانسانية فكراً وشعوراً ، ثم هو وسيلة طيبة لاكتساب الأصدقاء والطيبين من أمثالك ، والذين تفوق قيمهم قيم اللئالي ، وأغلى المجوهرات والأحجار الكريمة ، والعقارات وما إلى ذلك من ثروات وكنوز » .

- ٤ -

— وتوثقت عرى الصداقة بيني وبينه ، وازداد اعجابي به ، وانتفاعي بكتبه زيادة كبيرة لا من حيث مجهوده العلمي والأدبي الذي يقدمه للمجتمع العربي ، وقرائه ، دون أن يكون هناك من يساعده ، أو يفكر في مساعدته ، من وزارة التربية ، أو وزارة الثقافة والاعلام ، والمعاهد ، والمجامع العلمية في سوريا أو في الأقطار العربية الأخرى فحسب ، وانما الذي زاد اعجابي به ما لمسته منه ، من الانسانية المتدفقة ، والعواطف الجياشة ، والمحبة الطاهرة للناس ، والوداعة التي تشد اليه كل الذين يتمنى لهم أن يعرفوه عن قرب وعن بعد ، وكثر التراسل بيننا ، وفي كل رسالة كنت أكتشف فيه عنصراً جديداً من عناصر الخير ، ونعمة المواهب التي حباه الله بها ، وخلق منه انساناً مفعماً بالشعور ، والاحساس ، والعواطف الرقيقة التي تتحلى بها الانسانية ، ثم أتيح لي أن أراه غير مرة ولاسيما المرة الأخيرة التي دعي فيها من قبل الدكتور حسين أمين الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب ببغداد للمشاركة في مؤتمر المؤرخين العرب الذي عقد ببغداد سنة ١٩٧٣ والذي حضره عدد من رجال الاستشراق ، والعلماء العرب ، فحظيت به في بيتي وأولمت لتكريمه وليمة جمعته بطائفة من الأدباء والكتاب والمؤلفين الباحثين ، وهي وليمة إذا عزّ عليها أن تكون شبيهة ولو بعض الشيء بوليمة (العوّادين) السخية الكريمة ، فقد كانت شبيهة بها من حيث المبالغة في تكريم الرجل ، ثم حضر بيتي غير مرة في هذه الزيارة ، وتناولنا العشاء معاً ، وقضى بعض الوقت ينقل من مكتبتي بعض ما كان يبحث عنه لبحوثه ، وقد قرأت (ليعرب السيد) في جريدة (الثورة) السورية اشارة إلى هذا المؤتمر (مؤتمر المؤرخين) الذي حضره (العياش) ببغداد وذلك في العدد المؤرخ ١٩٧٣/٤/١٢ يقول فيها :

« تأتي أهمية هذا المؤتمر من كونه أول مؤتمر دولي للتاريخ والآثار يجري فيه الحوار والنقاش بين المؤرخين ، وعلماء الآثار في أنحاء مختلفة من

العالم ، وقد حضر هـذا المؤتمر — من سوريا — بدعوة شخصية الأستاذ عبد القادر عياش مؤسس متحف التقاليد الشعبية بمدينة(دير الزور) ومؤرخ منطقة وادي الفرات الذي ألّف ونشر ١١٦ موضوعاً بين بحث ، وكراسة ، وكتاب ، عن تراث وادي الفرات ، والحياة الاجتماعية ، والاقتصادية فيه منذ فترات طويلة ، وقد تعدت شهرة المتحف حدود القطر العربي السوري ، وكذلك مؤلفات الأستاذ (عياش) والأستاذ عياش من مواليد سنة ١٩١١ كرّس منذ حوالي ربع قرن وقته ، وجهده ، وماله ، لدراسة تاريخ منطقة وادي الفرات ، وحضارته ، وسكانه ، واقتصاده ، وجغرافيته ، وفولكلوره ، وتشهد على ذلك مؤلفاته ، ومتحفه الذي كرس له جهده ، ووقته ، وماله ، دونما مساعدة مالية أو حتى مساعدة معنوية ، من أية جهة رسمية وغير رسمية » آه .

هذا بعض ما نشرته الجريدة السورية الرسمية التي تمثل الحكومة السورية ، وكان المفروض أن تتبنى الحكومة السورية مشروع (عياش) وتتولى هي طبع كتبه ، وتساعد على انتشارها ، ولكن المسؤولين كما يظهر لا يقرأون حتى صحفهم ، ولا يعملون بشيء مما يكتب فيها عن غيرهم .

وكان (عياش) كثيراً ما يحثني على زيارة دير الزور ، ويستنجزني وعدي لأنه طالما كتب لي داعياً وأنا أعده بالاجابة ، وهو لم يفعل مثل هذا معي وحدي وانما يدعو الكثير ممن يعرف إلى دير الزور ، بل ان الكثير من المستشرقين والسياح الأجانب والذين كانوا قد قرأوا كتبه أو سمعوا بمتحفه الفولكلوري يقصدون دير الزور حين يزورون سوريا فلا يتركهم (عياش) دون ضيافة غداء أو عشاء أو قضاء أيام في بيته ، وقد قضى بعض من أعرف ومنهم الشيخ جلال الحنفي أياماً طويلة ضيوفاً عليه ، متمتعين بدماثة خلقه ، وكرمه ، واستعراض التحف التي يضمها بيته من كل ما لا يجري على بال من الأسلحة بمختلف أنواعها من السيوف والخناجر ، والمسدسات ، والبنادق ، وأدوات الطبخ ، وحوائج البيت ، من وسائل

الزينة عند النساء ، وأدوات الحجامة ، والحلاقة ، وأواني الشاي منذ أول دخول الشاي إلى وادي الفرات ودير الزور حتى اليوم ، وأباريق القهوة (الدلال) وفناجينها بجميع أصنافها ، وما يخص التبغ والتنباك ، والتدخين من الأكياس والعلب ، والمشارب ، والأدوات ، والزناد وعلب الكبريت ، وتطور اشعال النار ووسائطه ، والمسابح ، والساعات ، والمصابيح ، والأختام ، وغير ذلك الكثير الكثير الذي أشار اليه زواره الذين زاروا بيته أو نزلوا ضيوفاً عليه في مقالاتهم ، أو رسائلهم .

ويقول عبد القادر عياش نفسه عن هذا المتحف بأن بداية تأسيسه كانت عفوية ومن قبيل المصادفة ، ففي عام ١٩٣٨ كان يقوم ومعه زوجته (أم فاروق) — ولا أدري هل ان لها ابناً موجوداً باسم فاروق ؟ وكل ما أعلمه ان له بناتاً وان زوجته تكنّى بأم فاروق ، وقد توفيت قبل وفاته بنحو سبع عشرة سنة .

يقول عياش : انه كان يقوم ذات يوم بزيارة (حلب) وقد دخل هو وزوجته متنزهاً من متنزهات البلد (حلب) واقتعدا ناحية منه وما كادا يجلسان حتى جاءهما النادل ، وأخبرهما بأن هذا المتنزه خاص بالمسيحيين والراجح أن ينتقلا منه إلى متنزه آخر .

ويقول عياش : لقد سألت النادل ، ترى من أين عرفت اننا مسلمان ؟ فقال — من هذا المنديل الحريري الأسود الذي تلف به السيدة شعرها .

ويقول عياش للنادل : — فما رأيك لو رفعت زوجتي هنا المنديل من على رأسها ووضعته في حقيبتها فهل يصح لنا الجلوس هنا كما لو كنا مسيحيين ، لأني واجد في هذا المكان شيئاً غير قليل من راحة النفس من حيث الموقع ، وغرس الورود ، والأشجار ، وتنسيقها .

فأجاب النادل : — ليس هناك أي بأس ، وأي مانع لأن سرّ التميز بين المسلمين وغيرهم كامن في هذا المنديل من حيث اللباس ، وان هذا المنديل

هو الصارخ بأنكما مندسان في زمرة لستما من أهلها ، ولا هي مـــن أهلكمـــا .

وسرعان ما رفعت المنديل الأسود من على رأس زوجتي ودسته في حقيبتها وتوجهت اليها قائلاً : ــ ان هذا المنديل يجب أن ندخله في متحف التقاليد بدير الزور ، فقالت ــ لا أعهد ان في دير الزور متحفاً كهذا الذي تقول أو غيره ، فقلت ولكننا نحن الذين سنؤسس هذا المتحف ، وسنجمع فيه كل الأدوات ، والآلات والرموز الدالة على التقاليد المتبعة في (دير الزور) ووادي الفرات ، ولما كان الكثير من هذه العادات والتقاليد ــ يقول عياش ــ مشتركة مع البدو ، ومع أغلب مدن الفرات من شماله الغربي إلى جنوبه فسيصبح هذا المتحف متحفاً عاماً أو شبه عام ليس لمؤرخي الفولكلور غنى عنه ، فماذا تقولين ؟

قالت ــ هو الذي تقوله أنت .

وما كدنا نعود إلى الدير حتى بدأنا ببيتنا أولاً نجمع منه بعض ما نجد من مخلفات أهلنا الذين ماتوا ، ثم قويت الرغبة في نفس زوجتي فراحت تشتري ما تعثر عليه من بعض البيوت وتضمه إلى هذه المخلفات .

وفي أواسط الخمسينات أحسسنا بوجوب تنظيم هذا المتحف ، وتصنيف محتوياته ، والبحث عما ينقصه لكي يكون متحفاً كاملاً تتمثل فيه كل التقاليد والعادات وأساليب المعيشة ، ومقتضيات الحياة الضرورية وغير الضرورية عند السكان .

وحين طلبت احالتي على صندوق تقاعد المحامين ، وتركت المحاماة نهائياً ، وجدت نفسي متفرغاً للاهتمام بهذا المتحف بالاضافة إلى اهتمامي بالبحث والتأليف ، لاسيما وان زوجتي كانت قد توفيت ولم يكن عندي من يعينني غير ابنتيّ اللتين كانتا صغيرتين يوم ماتت أمهما فكبرتا وصار بامكانهما القيام ببعض ما هو في طاقتهما بالاضافة إلى واجباتهما الأخرى ،

وقد سميت هذا المتحف باسم (متحف التقاليد الشعبية بدير الزور) وأنا مدين في الكثير من بحوثي له ، فان الكثير من أدواته ، وأسبابه هو الذي أوحى اليّ وجوب التغلغل في هذه البحوث . وتتبع جذورها ، كما يعود الفضل الأول إلى زوجتي لأنها هي التي كانت السبب الأول في بعث هذه الفكرة في نفسي ، وهي التي عنيت بهذا المتحف أول ما عنيت .

قلت ان بحوثه هي التي لفتت أنظار من لم يلتفت إلى أهمية وادي الفرات ودير الزور في التاريخ ، والتاريخ الفولكلوري بصورة خاصة وقد كان متحفه الحافز المهم لشهرة دير الزور بين رجال التاريخ والمعنيين بدراسة العادات والتقاليد، فكثر زوار دير الزور من الأجانب وعلماء العرب وكثر الذين أشاروا إلى دير الزور عن طريق بحوث (عياش) ومتحفه ، ولولا وجود محمد الفراتي الشاعر المعروف لنفينا حتى وجود من يفهم العربية بالدير فضلاً عن فهمه الأدب والتاريخ، ومزاياهما وليس أدل على ذلك من أن يموت (عياش) وليس هناك من صوت في الدير أو خبر ، فما كأن هناك رجلاً قضى نحو نصف قرن وهو يلهج بذكر هذا البلد ويحيي آثاره، فيقصر صحيفته التي يصدرها على خدمة الفرات الأعلى وتمجيد غابره وحاضره ، حتى إذا غفل أحد عن أهمية هذه المنطقة في التاريخ العربي نبهه (عياش) بصحيفته ، وبحوثه ، ومتحفه ، ودعواته الكثيرة للكثير من المدركين لزيارة دير الزور وتحبيبه لهم قضاء وقت طيب في هذا البلد ، والتمتع بمناظر الفرات عند الصباح وعند المساء .

ويبدو — مما ذكر لي الشيخ جلال الحنفي — أن عبد القادر عياش كان يلتزم بعض الشيء مع ضيوفه لوناً من ألوان (الاتكيت) فيلتزم أن لا يجلس هو وضيوفه إلى المائدة إلا وهم في إناقة تامة — شأن الانكليز — من حيث اللباس ، وكيفية الجلوس ، وتناول السكين باليد اليمنى ، والشوكة باليد اليسرى ، وهذا ما دعا الشيخ جلال الحنفي الذي لم يعتد هذه القيود ولم يلتزم بالاتكيت ، ولم يعرف شيئاً اسمه التقاليد ، في قيامه ، وقعوده

وأكله ، وشربه . ولباسه ، وعمامته التي لا تزيد طولاً على ربع متر فهي تكاد لا تدور على رأسه ، والتي اتخذ منها الحنفي مجرد رمز للعمامة لا غير ، لذلك كانت عمّته خير شاهد على هذا المزاج الخاص في نشدان الحرية ، ولقد سألته ذات يوم — وكنت أحسب ان طول عمامته لا يقل عن نصف متر — عن طول عمامته ؟ فقال اني أشتري متراً واحداً من القماش الأبيض فأقسمه إلى أربع عمامات . وهذا يكفي للدلالة ، على تعيين صنفي وكوني شيخاً لمن يريد أن يصنفني .

أقول ، وهذا المزاج هو الذي دعا إلى وقوع شبه معركة كلامية ، ونقاش حاد بين (عياش) الذي يحافظ على الاتكيت والنظام والتقاليد وبين الشيخ جلال الحنفي الذي لا يلتزم بشيء وذلك كلما جلسا على مائدة الطعام . فالحنفي يقول ان الالتزام بالتقاليد قد يكون واجب المراعاة في محيط يلتزم بها . وبين ناس لا ينبغي أن يشذ عنهم واحد ، أما ان التزم بها في بيتي وبيت عبد القادر عياش ، وبيوت أصدقائي فهو مما يثير الضحك ، وكثر الجدل بين الحنفي وعياش ، وراح الحنفي يروي لعياش من الأحاديث ، والأمثلة ، والشعر شيئاً عن قيمة الحرية ، وحقها في الوجود ، وراح العياش يروي للحنفي أهمية النظام والالتزام بالترتيب في البيت كما في الخارج ليكون رب البيت وربة البيت قدوة لأولادهما ، اذ على النظام هذا يتوقف الشيء الكثير من شؤون الحياة ويأتي عياش بالآراء الكثيرة الواردة في علم النفس . وعلم الاجتماع — وبالشعر والأمثال أيضاً ، وقد اشتد نزاعهما أخيراً ، وتكرر كل يوم من أيام ضيافة الشيخ الحنفي في بيت عبد القادر عياش . والشيخ الحنفي ضيق الصدر بعض الأحيان ، وهذا ما دعاه أن يتجاهل اهتمام عياش به ورعايته له ، والحدب على راحته ، والمبالغة في اكرامه ويفرّ من دير الزور ، ولا يمكث فيها أكثر من أسبوع في حين كان عياش يتمنى بأن يطيل الحنفي البقاء عنده شهراً وأكثر .

والحق ان الحنفي الذي يتفلت من القيود ، ويخرج عليها لا يمتنع أن يتقيد بها إذا اضطر إلى ذلك ، فقد كان في الصين مثلاً يتناول الرز بالعيدان ويأكل بها كما يأكل الصينيون ، وقد كان يمشي حاسر الرأس – وهو ما لم يألفه – حين وجد ان لبس العمامة نابياً وغير مألوف في پكين وشنغهاي .

وقد كتب لي عياش غير مرة كما مرت الاشارة من قبل يدعوني لزيارة الدير ، ويشوقني كل الشوق لمثل هذه الزيارة بوصفه المناظر الخلابة في الفرات الأعلى ، وكثيراً ما طلب مني أن أصحب معي الدكتور أحمد سوسه ، ولم يكن خبر النظام والقيود التي يلتزم بها عياش – على ما يقول الحنفي – هو الحائل دون زيارتي للدير لأن في نفسي الاستعداد الكامل لمراعاة تقاليد المحيط أينما وجدت ، ولكن الظروف لم تمكني من ذلك ، ومع كوني قادراً على الانسجام مع من تجمعني واياهم المجالس ، والسفر ، والعمل ، فأنا قريب في الرأي من الشيخ الحنفي ، وأرى كم يكون صحيحاً لو يترك كل انسان على سجيته في أحوال معينة طبعاً ، فهو المسؤول وحده عن تصرفاته على شرط أن لا تعود هذه التصرفات بالسوء والأذى أو الاشمئزاز على الآخرين ، وهناك أبيات نقلتها من الفارسية إلى العربية تعني ما أقول وهي :

أنا يا زاهـــد ، الذي اخترت حـان ‍‍‍ الشرب مأوى فأنت ماذا يخصّك ؟
وأنا نفسي الذي أرفع الكأس بكفي ‍ فأنت مـــاذا يخصك ؟
هــــل تحدّاك سائــل بسؤال ‍ أنت لما قبعت في محـــرابك ؟
فانا حينمـــا ألوذ بحـــان ‍ مستكناً فأنت ماذا يخصك ؟

وفي يوم لم تكن الحلاقة بالكهرباء معروفة بعد في الشرق العربي جاء صديق لي من أميركا ومعه ماكنة حلاقة بالكهرباء ، وقد مر بالقاهرة في طريقه إلى العراق ، ويومذاك كانت دائرة الكمارك المصرية شديدة الحرص على تفلية الأمتعة وتفتيشها خشية تسرب المخدرات ، فكانت تفتش حتى

جلود الكتب وثنايا الألبسة ودروزها ، لذلك ما كاد المفتش يرى ماكنة الحلاقة حتى رفعها بيده وبدأ يعالج وضعها وتركيبها ليهتدي إلى طريقة تفكيكها وهو يسأل صاحبها عن ماهية هذه الماكنة ، فرد عليه هذا الصديق قائلاً انهاماكنة حلاقة بالكهرباء،وبشيء من التعجب سأل المفتش باللغة المصرية الدارجة قائلاً :

(ودا حضرتك ما تحلق إلا بالكهربا ؟)

وكان هذا الصديق قد برم وسأم طول الوقوف والمفتش يبحث بين ألبسته وأمتعته ويحاول تفكيك ماكنة الحلاقة فردّ عليه وهو يغالب الغضب والضجر قائلاً :

(أريد أن أحلق بالنعال فأنت ماذا يعنيك وماذا يخصك ؟)

أجل لقد كتب لي عياش مرة يقول :

« انه ليسعدني أن أدعوك إلى زيارة دير الزور لتشاهدها، وهي حريّة بالمشاهدة ، فايست هي عراقية ولا سورية ، فان لها طابعها ، وشخصيتها وسماتها الخاصة ، وستعود إذا ما زرتها بانطباعات غنية عديدة لا أحسب أنها ستنمحي من لوحة ذاكرتك ، وستكون دير الزور مصدر كتابات وفيرة لك ، اذ ستأخذ بيدك لزيارة معالم تاريخية كثيرة أهمها سهل (صفّين) الذي كلما مرّ عليه أهل الدير وقفوا وقرأوا هناك (الفاتحة) على أرواح الشهداء ويستمر قائلاً :

« ولقد ألقيت مرة محاضرة عن (صفين) في المركز الثقافي بدير الزور عند افتتاحه ، وطبعتها ، فهل تريد إغراء أكثر ؟ فتعال ، فان أسباب الاغراء وفيرة يضيق الورق بايرادها وشرحها » — ثم يستمر في الكتابة ويقـــول :

« انني أسكن في بيت على خطوات من النهر ، وفيه خمس غرف

ليس فيه غير ابنتيّ (جلاء) و(وفاء) وسيكونان في خدمتك ، واحدة على يمينك ، والأخرى على شمالك ، والمكتبة تحت متناول يدك ، ومتحف التقاليد الشعبية تطالعه ويطالعك ، والفرات الذي يربط دير الزور بالنجف يسقيك من مائه العذب ، ويحبب اليك الاقامة هنا .

« ان خريف دير الزور لطيف جداً وانها لأمنية عزيزة أن تقضي أياماً في دير الزور على ضفاف الفرات التي تتميز على غيرها من ضفافه في الأماكن الأخرى ، وليتك تحضر معك الدكتور (سوسة) للاستجمام من عناء العمل الأدبي ... الخ »

لقد أسفت من قبل وقلت ان مثل هذا الرجل الذي يرفع اسم (الدير) ويبشر بمعالمه ، وأهميته التاريخية ، وينزل الضيوف في بيتـــه يموت ولا نسمع لموته صرخة حزن ، ولا أنة ثكلى من أهل الدير والحكومة ، وقد كان من حقه أن يقام له تمثال تقدير على الفرات ، وجزى الله مجلة (الأديب) اللبنانية ، وجزى الله مجلة (الضاد) الحلبية اللتين نعتاه ونوهتا بفضله على العلم ، والأدب ، والثقافة ، وعلى أهل الدير بصورة خاصة ، وحين تقوم الآن وزارة الثقافة السورية باحياء ذكرى عبد القادر عياش فانها ستفعل ذلك لينتفع بها الأحياء ويترسموا خطواته ، أما هو فقد انقطعت علاقته بالدنيا ولن يفيده شيء بعد مماته .

- ٥ -

وعياش على جانب كبير جداً من دماثة الخلق ، ورقة الطبع ، والحنان الذي تطفح به عيناه ، ويفيض به قلبه ، وانه لا يبعد أن يكون نسيج وحده من حيث رقة العاطفة ، ورهافة الحس والشعور بما تختلج به نفوس الحزانى والضائعين في دروب الحياة ، حتى ليبكي مع الباكين ، ويحزن لحزنهم ، ويتألم لألمهم وليس من الشرط أن يعرفهم معرفة الصديق ويكفي أن تجمعه

واياهم الانسانية وهذا ما لمسته منه في كثير من المناسبات : خفّة في الطبع ، وحناناً يتدفق من أعماق قلبه فيغمر به الآخرين ، ووفاء منقطع النظير لمن يحب ويألف ، انها سجايا ليس بامكان كل أحد أن يتصف بها .

وحين توفيت زوجتي رثيتها بأبيات متواضعة لم يرضني نسجها ولا أدري من من الأصدقاء قد بعث بها إلى مجلة (الأديب) فنشرت مع تعليق كما لم أدر كيف انتقلت إلى صحف أخرى ، فكانت هذه الأبيات عند البعض الذين لم يكونوا قد علموا بفجيعتي هي التي حملت اليهم الخبر ، فتلقيت على أثرها تعازي الأصدقاء في الخارج ، ومواساتهم ، وكان من بين أولئك عبد القادر عياش الذي علم بالخبر من هذه الأبيات ، فكتب لي يواسيني ، ويحملني على التأسي به حين فجع بزوجته ، ومن هذه الرسالة نلم بشيء من رقة طبع هذا الرجل ووفائه لزوجته ، واحتفاظه بأطيب ذكرياتها ، وميله الدائم للبكاء عليها بالرغم من مرور عشر سنين على وفاتها ، فقد كانت تشغل ذهنه وقلبه وكل حواسه ، وسنلمس وفاءه أكثر حين نعلم انه أضرب عن الزواج بأخرى بعد مماتها مع انه كان لم يزل في منتصف عمره ولم يدخل بعد مرحلة الكهولة .

وأكبر ظني أن الذي هاجه من مرثيتي لزوجتي بعض الأبيات كان من بينها قولي :

أنساك لا والله لا أنساك ... أنسى ؟ وملء جوانحي ذكراك ؟

وقولي :

البيت بعدك معول لا صوت في ... أرجائه إلا عويل الباكي
والباب بعدك مقفل لا زائر ... يأتي ولا ضيف يؤمّ حماك

وقولي :

حتى الورود ذوت فلا ورد ولا ... حبق ، وما غرست هناك يداك ..

الخ ...

لعل هذا وأمثاله من قصيدتي هو الذي هاجه ، أو وجد فيه تنفساً ، وعلى أن هذه الأبيات ليست بالشيء المهم الذي يتجاوز الحسرة المعتادة المألوفة فقد تكون عند أشخاص عرفوا برقة الاحساس مثل (عياش) كافية لتهيج فيهم الذكريات ، وتعيد إلى أذهانهم تلك الصور الحبيبة من زوجاتهم — وإن بعدت عهودهم بها — كما لو كانوا قد فجعوا بهن اليوم ، فكتب لي يقول :

« منذ أن قرأت نبأ السيدة المثالية زوجك ، أحسست بأني أعيش مصابك الكبير ، وأقدره في كل أبعاده ، فلم تطاوعني مشاعري بأن أكتب اليك تعزية مزجاة ، وقد استصغرتها كثيراً ، فما هي قيمتها ؟ وما أنا بمحسن صياغتها تجاه خطب كهذا ، فلذت بالصمت ، اذ وجدتني عاجزاً كل العجز — وما زلت كذلك — عن خط تعزية اليك .

« ووددت لو أني كنت إلى جانبك، أقص عليك من أنباء (أم فاروق) — وأم فاروق هي زوجته التي فجع بها كما مرت الاشارة — فأروّح عنك بعض الألم ، والضيق ، فلقد حملت نفس المصيبة فلنحملها معاً .

« ان صورة (أم فاروق) وهي في حجم كبير ما زالت في موضعها وفوق سريرها في غرفة نومنا منذ أن ركزت قبل وفاتها بسنين ، وقد مضت على الوفاة الآن عشر سنوات ، ولم أزل أنظر إلى الصورة في غرفة منامي كل يوم عندما أفتح عيني ، وأنهض من فراشي ، أو آوي اليه ، فهي شعري ، وهي لغة تعبيري ، وان بناتنا يعتنين بهذه الصورة ، ويزلن عنها الغبار في كل وقت ، ولكن غبار الزمن ما زال ، ولن يزال لاصقاً بذرات النخاع ، من هذا الدماغ ، ومن الصعب أن يزول .

« وما ملكت من العبارة عن غيابها — على كثرة ما قيل في مثل هذه الحال من الشعر والأمثال — الا ترديد مثل شعبي شائع عندنا ، وهم يرددونه في مثل هذه الأحوال ، وقد برز لي من بين آلاف الأمثال التي

عنيت بجمعها خلال سنوات ، فلا أدري لم اخترته دون تلك الأمثال البليغة وهو (غابت الخاتون واظلم بيتها) وجاء معه مثل آخر هو (ما للمصائب إلا أهلها) .

« واستطعت أن أنزع من عجزي هذا تعبيراً آخر ، وأفرغ هذا العجز في وضع كتابين الأول هو (البيت) – عند العرب حضراً وبدواً – لأهديه في سطرين صغيرين إلى من كانت ربة بيت مثالية جديرة ، والثاني كتاب (المصيبة) ولست أذكر ان كنت بعثت بهما اليك ؟ [1] فان لم أكن فعلت فأرجو اعلامي لأوافيك بهما مع كتابين جديدين صدرا لي مؤخراً وهما (حكايات من وادي الفرات) تطفلت بها على باعك الطويل البارع في القصص ، وكتاب عن (البوكمال) تاريخها ، وعشائرها ، واقتصادها ، وسكانها ، ووضعها الاداري ، والبوكمال هذه تجاور الحدود العراقية من الغرب ، وفي الكتاب صفحات عن كل من مدينة (ماري) ومدينة الصالحية (دورا اوروبوس) ، وعن حياة العالم الأثري البروفسور (اندريايارو) رئيس البعثة الفرنسية الأثرية في تل الحريري (ماري) ، وستجد في الكتابين متعة كبيرة .

« انني أنوّه بقصيدتك في رثاء زوجتك الغالية ، فقد تأثرت بها كثيراً ، واستدرت قرائتها مدامعي ، ليس لأنها ذكرتني (بأم فاروق) ذلك لأني ما نسيت أم فاروق ساعة ليذكرني أحد بها ، وانما لأن القصيدة أبرزت لي مقدار لوعتك ، وحزنك ، وهمّك ، فبكيت على المرحومة زوجك، وعلى أم فاروق ، وقد أتاحت لي قصيدتك ظرف بكاء كنت أشتهيه ، وأرغب فيه رغبة شديدة ، لعلي أنفس به لواعج تضطرم في نفسي اضطراماً ، ولقد أرهقني سكوتي عن الكتابة اليك في محنتك التي تتجاوز حدود

---

(١) كان قد بعثهما وقرأتهما بعجل اذ لم يترك شيئاً يتعلق بالبيت وما يحتوي عليه عند الحضر والبدو من العرب، والمصيبة وكيف يتلقاها العرب وأهل الدير – المؤلف .

الكلمات ، كيف لا وأنت تعلم بعجزي عن التعبير ، وخجلي من العي والتفاهة ! !

« لقد كنت في قصيدتك البليغة الصادقة لساني المعبّر عى مثل هذا الموقف فأين لساني من لسانك ؟ وأنت قد تمرست في مختلف الأساليب وملكت أعنّة النثر والشعر ، فصرفت الكتابة في كل مجال وغرض .

« أعاود قراءة قصيدتك لا تمثل صورة السيدة الغالية زوجك ، ولتذكرني بخصال قد ينسيني اياها كبر السن ، ولذا أعاود قراءة ما قاله شعراء العرب القدامى والمحدثون في رثاء زوجاتهم .

« لقد انتصبت إلى جانب صورة أم فاروق صورة أختها زوجك الكريم وما زلت أذكر روايتك لنا ونحن في بيتك العامر نطل على المكتبة ، وقد قلت انك اضطررت إلى بيع مكتبتك مرة ، وكنت تفضل أن تبيع طنافس البيت والسجاد ، ولكن زوجتك قد وقفت حائلاً دون ذلك لئلا تقع عيون الناس على البيت ويروه عارياً من الفرش ، وهو علامة العوز والفقر والحاجة ، وأقنعتك أخيراً على بيع المكتبة فبعتها ، وما هذه التي نراها إلا المكتبة الثانية التي تقوم على أساس المكتبة المبيعة .

« ولقد أكبرت السيدة من يومها ، وقدرت لها حسن ادراكها ، وغيرتها على جاهك ، وحبها العظيم لك .

« لقد وددت كثيراً لو أنني أفضت في رسالتي هذه التي أكتبها اليك ، والتي أخطها بصعوبة ، ولكني أحسّ اني في جيشان نفسي شديد ، وبين دمع ينبثق ، وبين مغالبة له أكفكفه بجهد ، وهيهات أن يقف ، وأقف دون هياج النفس وجيشانها وهي ماثجة بين هذه الأمواج المتلاطمة من الذكريات ، وقد احتضنتني الثلاث والستون من السنين .

« ولئن كنت أقرأ كثيراً ، وأكتب قليلاً ، فما ذلك إلا التوقف

عند المحطات بمقدار ما يتوقف القطار في طريقه متزوداً ، وان الذكريات هي الزاد عندي ، والمتنفس ، والنجوى .

« يخسر التاجر فيراجع دفاتره القديمة ، أما نحن الذين خسرنا زوجاتنا العزيزات ، الغاليات ، واللواتي يفقن كل كنوز الأرض ثروة ، فان ذكرياتهن هي التي نعاودها وتعاودنا ، لا نمل معاودتها وتقليبها ، فقد كانت ذكريات حقائق وعوالم حية ، ولم تكن أخيلة وأماني وهمية ، فكيف نملّها وهي الزاد ، والمتعة الروحية البريئة ، وهي هي رمز الوفاء والاعتراف بالجميل ، والنبل الذي نحرص عليه ، وما فتئنا نحرص عليه ، وندعو اليه ، وهو أعز ما في رسالة الكاتب والأديب .

« يكلمني الأقارب والأصدقاء بالزواج فأردّ عليهم بأنهم يزعجونني ويؤذونني أشدّ ازعاج ، وأبلغ أذى ، حتى كفّوا عني .

« ان بناتي يملأن بيتي وقد كسبتهن ، وكسبني ، وفي ذلك راحة كبيرة لنفسي . فكأن أم فاروق ما زالت تشجعني ، وعندما كنت وأم فاروق نمرّ بعسر كانت تقول ليتك قد عملت في التجارة مثل أهلك فملكت ثروة ، فأقول لها ، ولكنك أنت ثروتي التي لا تعدلها ثروة في الدنيا وأنا غنيّ بك ، وأنت غنيّة بي وبأولادنا الذين لا تعدلهم كل ثروات الأرض فتضحك راضية ، وأقول لها : ان ضحكك ثروة أيضاً » آه .

هذه الرسالة تصور للقارىء ما كان عليه عبد القادر عياش من خلق عظيم ، ووفاء كبير ، وعاطفة سامية ، وانسانية تكاد تكون فذة ان لم تكن فذة إلى جانب مواهبه الأدبية ، وجلده الذي كان ينفرد به في البحث والتتبع ، ولقد تجلى وفاء عياش ، وحنانه ، ورقة شعوره في الرعاية التي خص بها زوجته في أيامها الأخيرة بأبهى صوره ، وأزهاها وهي خير دليل على ما تكن هذه النفس من المعاني الانسانية ، والمحبة ، ورقة العاطفة ، فلقد ماتت زوجته في المستشفى الايطالي بدمشق بعد مرض استمر ثمانية عشر

يوماً ، وكان في كل هذه الأيام وساعاتها لم يبرح مكانه من سريرها ، وفي الليل كان يقتعد مقعداً تجيء به له الراهبات يقوم مقام نصف سرير على ما وصفه لي هو ، وكانت من بناته اثنتان لم تزالا صغيرتين ، وقد تركهما في (دير الزور) ولم يكن عنده خادم ولا خادمة ، ولا من يقوم بمساعدته في البيت ، أما ابنته الكبرى فكانت قد تزوجت بمحام من مدينة (الرقة) وهي تقيم هناك، وتوفيت زوجته وهو إلى جوارها وبمشهد منه وحيداً واستأجر طيارة خاصة نقل بها نعش زوجته إلى مسقط رأسها ليدفنها هناك ، والله وحده يعلم كيف دبّر نفقات المستشفى والمعالجة وأجور الطيارة وهو مملق كما أعلم ، وقد كان في أزمة نفسية حادة لأن المطلوب منه بعد هذا أن يكون قدوة للتصبر ليخفف بذلك شيئاً من حزن ابنتيه الصغيرتين ، وليقلل شيئاً من جزع ابنته المتزوجة التي كانت قد تركت زوجها وأولادها في (الرقة) وجاءت لتحضر أمها في ساعة الدفن ، وتعين أختيها الصغيرتين ، ولكن الخطب كان جسيماً عند (عياش) فكيف يستطيع أن يتناسى هذه الزوجة المثالية وهو بمثل ما جبل عليه من المروءة ، والوفاء ورقة العاطفة ؟ ثم كيف يستطيع أن يحل محلّ الأم في رعاية ابنتيه الصغيرتين والعناية بهما ؟ وهكذا حار في أمره ، لاسيما وقد كان لا يزال يزاول المحاماة وان محاماته هذه لتفرض عليه التغيّب عن البيت نهاراً كاملاً بين المحاكم وقد تضطره للخروج من دير الزور وحضور الكشوف القضائية في النواحي النائية ، فكان مضطراً لاصطحاب ابنتيه معه أنّى ذهب ، وتأمين مكان لهما يجلسان فيه بالقرب من محل وقوفه أو مراجعاته القانونية !! وكانت له ابنة أخرى كبيرة وفي آخر مراحل الدراسة الثانوية فاضطرت حين رأت محنة أبيها وحيرته وعذابه إلى ترك المدرسة لتقوم هي بشؤون البيت ومساعدة أبيها في العناية بأختيها الصغيرتين والاهتمام بشؤون الضيوف الذين لم يخل بيت عبد القادر عياش منهما في الأسبوع مرة أو مرتين .

وقد كبرت ابنتاه ، وكان المأمول أن يقر قراره ، وتسكن ثائرة نفسه ، ولكنه ظل مشدوداً إلى تلك الذكريات ، يحن ، ويئن ، ويتأوه ، وقد شذّ في حزنه عن القاعدة المألوفة القائلة بأن كل شيء يبدو صغيراً لأول وهلة ثم يكبر ، إلا المصيبة فانها تبدو كبيرة أول الأمر ثم تصغر بعد مرور الزمن ، فها هي ذي مصيبة (عياش) بدت كبيرة ، وظلت كبيرة إلى أن استأثرت به رحمة الله .

وأنا أصطاف بسوق الغرب من لبنان تلقيت من الصديق روكس بن زائد العزيزي بعمان خبر نعي عبد القادر عياش الذي توفي في يوم ١٩٧٤/٦/٨ وكان لهذا النعي أبلغ الأثر في نفسي ، وأشد العمق في قلبي ، وقد ودعت ذكراه العزيزة بأغلى دموعي وأسخاها ، فقد بكيته على قدر ما كان له في نفسي من مودة ومحبة ، وان ما كان له في نفسي من المودة والمحبة لشيء كبير ، ولا أحسبني سأنساه يوماً ما دمت حياً .

صبيحة الشيخ داود

كيف عرفت صبيحة الشيخ داود

١٩١٥ ـ ١٩٧٥

ـ ١ ـ

حين انتهت الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٣٠ وحصل العراق على استقلاله مشروطاً وانتخب الملك فيصل الاول ملكاً على العراق قامت إلى جانب الحركة السياسية العنيفة ـ التي تبناها الاحرار وعبرت عنها من الصحف خاصة جريدة (الاستقلال) لصاحبها عبد الغفور البدري وجريدة (الرافدان) لصاحبها سامي خوندة ـ فنفي إلى جانب الوطنيين السابقين عدد آخر من دعاة الحرية الذين رفضوا (الوصاية) و (الانتداب) الانكليزي وما شاكل ذلك من اسماء ـ قامت إلى جانب ذلك حركة اخرى تجمع بين النهضة الثقافية والتعليم والسياسة المبطنة تمثلت في الدعوة إلى التعليم ومكافحة الامية ، وفتح المدارس الليلية للتعليم وكان ان تأسس (المعهد العلمي) ببغداد ، ومدرسة (الغرى) الاهلية في النجف ، واصبح هذا التعليم في المفهوم العام جزءاً لا يتجزأ من الوطنية ، وصار الاقبال على المدارس الاهلية ليلا شبه الزامي بين طبقات الشعب ، فكثر نظم الشعر ، وانتشرت الاناشيد الوطنية حتى في المدارس الرسمية ، وكان قطب هذه الحركة والباعث لهذا اللون من الفكرة التعليمية التي تهدف إلى الثقافة والوعي الوطني رجلاً مؤمناً بالعقيدة الصالحة ، جريئاً في النفوذ إلى قلب المعركة ، صلب العود ، كبير الهمة ، ذلك هو

السيد ثابت عبد النور الذي دعا اول من دعا إلى تعليم الاميين ، وفتح المدارس الليلية ، ومكافحة الامية ، ولكن الناس نسوه ، ونسوا ما يترتب عليهم نحو تقديس ذكراه ، وكان (يحي قاف) من ابرز من عمل مع ثابت عبد النور في مكافحة الامية .

والسيد ثابت عبد النور موصلي مسيحي اعلن اسلامه ، وكانت له في العهد العثماني مواقف وطنية جليلة سجن بسببها ، وشاع انه حكم عليه بالاعدام من قبل الحكومة العثمانية ففر من السجن ، وحين اعلن استقلال العراق كان ثابت عبد النور من كبار الدعاة لهذا اللون من التعليم الذي يجمع بين الثقافة والوعي ، والتركيز على مكافحة الامية ، هذا إلى جانب اشتغاله بالسياسة مع السياسيين ، وكان يبتكر الوسائل التي تثير في النفوس الروح العربية الوطنية فقد كان يومذاك عدد كبير ممن كانوا يميلون للاتراك وينتظرون رجوعهم لحكم العراق ، وكان جلهم من المنتفعين مادياً ومن العناصر التركية الذين كانوا يشغلون الوظائف على العهد العثماني او الذين تشدهم إلى الاتراك رابطة الدين فكان من الصعب عليهم الخضوع للانكليز وهم من دين غير دينهم .

وكان من اساليب ثابت عبد النور لنشر الوعي وبعث الروح الوطنية وتجديد النهضة الادبية ان يقام مهرجان عام للشعر والادب تمثل فيه النزعة العربية ، ووجد تأييداً مطلقاً من العناصر التي عملت مع ثابت عبد النور وكان من ذلك قيام المهرجان الذي دعي (بسوق عكاظ) احياء لذكرى هذا السوق التاريخي العظيم .

وقد اعدت لهذا السوق كل الوسائل والمقدمات من عرض الفكرة على الملك فيصل الأول والحصول على تأييده وتشجيعه وتقبله بان يكون هذا السوق مشمولا برعايته وان يحضر افتتاحه بنفسه ، وكان كما تمنوا اذ اقيم هذا المهرجان في جانب الكرخ وعلى طريق محطة القطار حينذاك ، وذلك في

٢٤ من شباط في سنة ١٩٢٢ وخصصت للشعراء والمتبارين والمتسابقين فيه جوائز معينة .

وسوق عكاظ في الجاهلية كان سوقاً عاماً تعرض فيه البضائع التجارية ويجري فيه التعامل وتحضره القبائل من كل فج لتتبارى ولتتفاخر ولتتسابق بالشعر ، كما كان بمثابة مؤسسة اعلامية عامة ينوّه فيه باسماء الطيبين من العرب فتذيع اسماؤهم بين القبائل ككرماء واصحاب شهامة ومروءة ، ويندد باسماء الاشرار فيشهرون بخبثهم وشرورهم كقطاع طرق وجناة ، وكان للشعراء الذين يؤمون هذا السوق من يحكم بينهم بالافضلية ، وكانت (الخنساء) ممن تحضر هذا السوق في كل سنة وهي متسنّمة جملا ومنشدة رثاء ابيها عمرو بن الشريد ، واخويها معاوية ، وصخر الذين قتلوا فترثيهم في قصائد وابيات تتفجر لوقعها العيون وتبكى هي ويبكي معها المحيطون بها ، وكان (النابغة) هو الحكم الذي يحتكم اليه الشعراء في اقوالهم فيعين منهم الفائز ، فانشدته الخنساء قصيدة جاء فيها عن اخيها صخر :

وان صخراً لكافينا وسيدنا ... وان صخراً اذا نشتو لنحّـار
وان صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نـار
جلد جميل المحيا ، كامل ورع ... وللحروب غداة الروع مسعار
حمال ألوية ، هباط أودية ... شهّاد أندية ، للجيش جرار

وكان الاعشى قد انشد قبلها قصيدته وحكم له النابغة بالتفوق ، ولما انشدته الخنساء قصيدتها قال لها (النابغة) لو لم يسبقك الاعشى في الانشاد لقلت انك اشعر من كل ذات فنانة (ويقصد بذلك الاناث) فردت عليه قائلة : بل والله اشعر من كل ذي خصيتين .

واراد ثابت عبد النور ان لا يفوته هذا الجانب من سوق عكاظ وان لا يحرم هذا المهرجان من عنصر المرأة وهو مهرجان ادبي اجتماعي وطني تقوم امرأة مقام الخنساء فتركب الجمل وتدخل السوق وتنشد كما كانت تفعل

الخنساء ولكن اين هي تلك المرأة التي تستطيع ان تركب الجمل وتفج هذه الجموع وتمثل الخنساء لتجعل لهذا المهرجان وقعاً على النفوس يشبه وقع الخنساء لحد ما على الاقل، كيما يفعل هذا السوق فعله في ذلك الوسط الذي كانت علاقة الكثير من الناس وعلى الاخص الموظفين السابقين بالدولة العثمانية لا تزال قوية وقوية جدا . فكانوا يبحثون عن مثل هذه المرأة التي يمكن ان تتسنّم ظهر البعير فتمثل الخنساء،ولكنهم لم يعثروا عليها فقد كان المجتمع العراقي يومذاك من ضيق التفكير والتمسك بحيث كان يعتبر المرأة عورة لا يجوز كشفها للناس ، ويكفي ان يعرف القارىء بان المرأة الحضرية لم تكتف بعباءة واحدة انما كانت تلف نفسها بعباءتين حين الخروج من البيت . ولم يكن الحجاب مقتصراً على المسلمين وحدهم وانما كان الحجاب ، والحجاب الكثيف تشترك فيه حتى النساء المسيحيات واليهوديات حينذاك .

وكانت النساء المتعلمات من القلة التي تشبه العدم ، وقد علمت ان جدتي لابي كانت تقرأ وكانت تكتب . وكانت تنظم الشعر الشعبي ولكن من الذي تولى تعليمها ؟ وان جدي لابي هو زوجها كان يومذاك المرجع الكبير للشيعة، ويبالغ المؤرخون في زهده وتقواه حتى نسبوا له من المعجزات ما لا يجوز ان ينسب لواحد عقلا وشرعاً ، وان عمتي وهي ابنته كانت تتقن العلوم العربية إلى جانب القراءة والكتابة وان اخوتها هم الذين قاموا بتدريسها ، ومن هذا يعرف ان الدين لم يكن بالمانع من تعليم المرأة ، ولكن المجتمع او ان هؤلاء الذين يطلق عليهم اسم الرجعيين هم الذين كانوا يقفون في وجه تعليم المرأة وتثقيفها وتمتعها بحقها كانسان .

وكان الميرزا حسين النائيني قد الف كتاباً يدعو فيه إلى وجوب تعليم المرأة واحترام حقوقها كانسان، وحين وصل إلى المرجعية الكبرى واصبح المرجع الاكبر للشيعة اضطر إلى جمع هذا الكتاب وشرائه حتى بلغ ثمن النسخة منه ليرتين ذهبا وكانت عندي نسخة اردت حين اصدرت جريدة

(الفجر الصادق) ترجمتها من الفارسية ونشرها فقامت قيامة هذا (المرجع) ولم يترك وسيلة من الوسائط الا واتخذها حتى حال بيني وبين نشر هذه الرسالة التي تولت مجلة العرفان بعد عدة سنوات نشر ترجمة فصول منها بقلم صالح الجعفري .

كان ذلك توقياً من المجتمع الذي كان سيسقط الناثيني من المرجعية اذا شاعت عنه هذه الافكار .

اجل لقد كان مجتمعنا الحضري ــ واقصد بالحضري سكان المدن ــ قاسيا في معاملة المرأة، ظالماً لها حتى في حرمانها من التعليم خلافاً للحديث القائل (العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) ، اما القرويون فلم يسمحوا للمرأة الا برفع الحجاب دون غيره والا فهي اتعس حالا من المرأة الحضرية ولا احسب ان امرأة قروية ــ الا النادر ــ تسلم بين اونة واخرى من ضرب الرجل لها بالعصا واحياناً (بالمكوار) الذي طالما كسر منها بعض ضلوعها ، بل كان سبباً لاحداث عاهة فيها ، او قتلها اذا كان ذلك مما يدخل ضمن حدود التعرض والخطف .

في مجتمع كهذا كانوا يبحثون عن امرأة تقوم بدور الخنساء ولست ادري كيف اهتدوا يومذاك إلى طفلة دون العاشرة من العمر لكي تركب الجمل وتقوم بهذا الدور وتلك كانت صبيحة الشيخ داود .

ــ ٢ ــ

وصبيحة الشيخ داود من مواليد ١٩١٥ وهي السنة الاولى من الحرب العظمى الاولى ، وصبيحة هي ابنة الشيخ احمد بن الشيخ داود ، والشيخ داود من رجال الفقه ومن مشايخ الدين وتقاته ، اما الشيخ احمد فقد كان من المشايخ من حيث العمة ، واللحية وصباحة الوجه ، ولكن هذا لا يعني

انه كان فارغا من العلوم العربية والفصاحة والبلاغة وإنما كان للوجاهة اقرب منه لمشايخ الدين والامامة ،واذكر انه يوم كان نائباً في المجلس النيابي قام يطلب من المجلس مؤاخذة كتاب الضبط والزامهم بوجوب مراعاة قواعد اللغة حين يدفعون بمحاضر الجلسة إلى النشر وضرب بذلك مثلا العدد المركب مثل الخامس عشر والسادس عشر وما شاكلها الذي ورد في ضبوطهم دون تمييز المذكر من المؤنث فزادوا في البعض تاء حيث يجب حذف التاء وحذفوا من البعض التاء حيث يجب ان تثبت التاء . وهو عيب يؤاخذ عليه المجلس عند الناس .

وكان سلمان البراك يومذاك يدير رياسة المجلس بالنيابة لتغيب رئيس المجلس فظن ان قضية (التاء) وحذفها او اثباتها التي يدعو اليها الشيخ احمد الشيخ داود هي من القضايا التشريعية التي يجب عرضها على المجلس واخذ الموافقة عليها ، لذلك ما كاد يجلس الشيخ احمد حتى وضع (البراك) القضية بالتصويت ، والغريب ان بعض النواب قد رفعوا ايديهم ولا يعلم ما اذا كانوا قد رفعوا الايدي بالموافقة على حذف التاء في العدد المركب ام اثباتها . فكانت هذه الحكاية من هزالة الموسم .

اقول ان الشيخ احمد الشيخ داود لم يكن وجيهاً فحسب وانما كان له من الدروس العربية وشيء من التفقه نصيب اكتفى به ، وكل ما كان يميز الشيخ احمد بعد العمة واللحية جبة فضفاضة ، وصباحة وجه ، وصوت جهوري لا يخلو من الموسيقى المحببة عندما يتكلم او يخطب وهو بعد ذلك وطني ساهم في الحركة الوطنية والتكتل ضد الاستعمار الانكليزي في العراق وعمل مع العاملين في هياج الناس وتألبهم لتأييد الثورة العراقية الكبرى حتى اضطرت السلطة الانكليزية ببغداد ان تقبض عليه وتنفيه مع الوطنيين خارج العراق ؛ ويروي سليمان فيضي في مذكراته عن كيفية مداهمة السلطة لبيته فيقول :

كان الشيخ احمد الشيخ داود يسكن في دار تقع في شارع المتنبي الذي كان يسمى آنذاك بشارع (الاكمكخانه) أي شارع المخبز لوقوع المخبز العسكري العثماني فيه ، ويقول سليمان فيضي ان بيته كان مجاوراً لبيت الشيخ احمد الشيخ داود وانه شهد جنود الانكليز يداهمون بيت الشيخ احمد عند الفجر ويقتادونه وهو بملابس النوم بعد ان نهبوا الحلي والنقود التي وصلت ايديهم اليها . ثم نفوه إلى جزيرة (هنجام) ويضيف قائلاً : وفي اليوم التالي زارتني عقيلته ام سلمان وسلمتني امتعته وملابسه كي اتوسط بارسالها إلى منفاه ، فارسلتها بدوري إلى عمي الحاج طه في البصرة ، واوصلها عمي بعد لأي اليه .

وحين اريد القبض على يوسف السويدي هربّه اهل محلّته ودافعوا عنه بالسلاح حتى سقط منهم عدد من القتلى والجرحى ، فكانت ام سلمان زوجة الشيخ احمد داود تعيّر اهل محلتها وتنسب لهم الجبن وقلة الشهامة لانهم لم يدافعوا عن زوجها كما دافعت محلة السويدي عنه حتى نجا ، ويقول الدكتور علي الوردي في تحقيقه ان امسلمان كانت تقول لسكان محلتها « لماذا لم تكونوا رجالاً مثل اهل ذاك الصوب» تعني محلة خضر الياس التي دافعت عن السويدي.

والشيخ احمد موصوف بالمرأة ، وهو ينزع إلى الحرية في افكاره وكان يتكلم باسم رجال الدين رضي رجال الدين عنه ام غضبوا فقد احتل له مكاناً بين اللامعين العاملين في حقل السياسة وبين رجال الدين وقد خاض معركة الانتخابات غير مرة ، وكان نائباً جريئاً في المجلس النيابي ثم صار وزيراً للاوقاف ، وإلى جانب ذلك لم يكن يخلو من تفكه وحلاوة ونكتة ، وقد شاع عنه في إحدى جولاته الانتخابية — حين ادرك فشله قوله لابنه سلمان الشيخ داود : « ولدنا سلمان ترزّلنا » والرزالة في مصطلح العوام هي الرذالة في اللغة الفصيحة ، وشاعت هذه الكلمة حينذاك — سواء صح شيوعها ام لم يصح — حتى ذهبت مثلا يستعمله كل من يحس بالخسارة

أو الفشل فيقول التاجر مثلا حين يخسر ، والساعي حين يفشل ، ولاعب الكرة حين يخيب : (ولدنا سلمان ترزلنا) .

— ٣ —

وارتضت لجنة اقامة سوق عكاظ ان تمثل هذه الصبية (صبيحة الشيخ داود) الخنساء في هذا المهرجان فجاءت إلى الشيخ احمد تطلب منه اذنه بان يسمح لابنته القيام بهذا الدور ، ولم يكن الشيخ احمد وحده المتحرر المتفتح الذهن وانما كانت زوجته وام اولاده هي الاخرى تشبهه من هذه الناحية فلم يمانعا لاسيما وهما يعرفان لابنتهما مثل هذه الجرأة في اداء هذه المهمة .

والتحرر الذي عرف به الشيخ احمد اخذ منه اولاده من البنات في حياتهم اكثر مما اخذت صبيحة ، فقد اختارت صبيحة لنفسها اطاراً محدوداً عاشت فيه ولم تتجاوزه منذ صغرها حتى كبرت وماتت فكانت نسيج وحدها بين هذه الاسرة رجالا ونساء .

وظهرت في الافق ما يشبه الدهشة في ان تظهر فتاة امام الناس وهي تتسنم بعيراً يخترق الجموع وتنشد راكبة ما كانت تنشد الخنساء في سوق عكاظ ، اما طبقة المشايخ فقد عدوا ذلك كفرا او ما يشبه الكفر وايدهم في مثل هذا الاستهجان السيد عبد الرحمن الكيلاني — وكان يومها رئيساً للوزارة — واستنكر ان تقوم بهذه المهمة امرأة ما فكيف تقوم بها حفيدة للشيخ داود الرجل التقي البار الزاهد ؟ وكادت المسألة تتعقد لو لم تبادر لجنة (سوق عكاظ) وتعرض الامر على الملك فيصل الذي ايد اللجنة وشجعها وامر بتنفيذها،الامر الذي ارغم الطبقة المستنكرة ومعها الرئيس النقيب الكيلاني على تقبل الامر الواقع على مضض .

وجاء وفد من المشايخ إلى الشيخ احمد الشيخ داود يطلبون منه العدول

عن رأيه ومنع ابنته من ركوب الجمل واختراق جموع الرجال فقال لهم الشيخ احمد : ومتى كان ركوب الجمل منكراً في الاسلام ؟ الم تركب النساء الجمال وتمشي بين صفوف القبائل ، ثم الم تركب السيدة عائشة الجمل في حرب الجمل ؟ فلماذا لا نستنكر ذلك ونستنكر ركوب طفلة لا يزيد عمرها على ثماني سنوات في مهرجان ؟

وتمت القضية تحت رعاية الملك فيصل الذي تصدر المهرجان وكانت صبيحة اول عنصر من عناصر النساء في هذا المجتمع المشبع بتلك التقاليد وهي تشق الجموع وتواجه الرجال في تلك التمثيلية .

وكنت يومذاك في النجف ، ولاول مرة اسمع باللغط يدور في مجالس النجف بان ابنة تخرج على التقاليد وتدخل المهرجان بدون حياء وحشمة .. ولاول مرة اسمع باسم صبيحة الشيخ داود التي وقفت تلك الوقفة ، ولم تكن النجف باقل من بغداد استهجاناً لمثل هذا العمل على الرغم من وجود مؤيدين يحول الخوف من العوام بينهم وبين الاعلان عن التأييد وكان على رأس هؤلاء الميرزا حسين النائيني المرجع الشيعي الاعلى الذي سبقت الاشارة اليه .

ومرت ايام تناول الشعراء والادباء قضية السفور والحجاب وكان للزهاوي الشاعر وقفة جريئة شجعت الكثيرين من الشباب على الدعوة للسفور، وكان بسيم الذويب قد نظم قصيدة يحبذ السفور ويهاجم فيها مؤيدي الحجاب، وبلغ خبرها اباه وكان مدرساً للفقه فراح يعنف ابنه بسيماً وما كان من بسيم الا ان يكذب الخبر ويتهم ناقله لابيه بالتلفيق والكذب حتى اقتنع الاب وقال « هداك الله يا ولدي ، لقد كدت تجعلني في موقف الشيخ احمد الداود الذي ركبه الشيطان فاركب ابنته صبيحة على الجمل بحضور الرجال ، اعوذ بالله » وقد اوردت صبيحة هذه الحكاية في كتابها (اول الطريق) منقولة عن بسيم الذويب .

وشيء آخر برز في سوق عكاظ كاد ان يدهش ادباء العراق وهو ظهور شاعر كبير لم يكن معروفاً بهذه الشهرة الكبيرة التي تجعله في مصاف الشرقي والرصافي والشبيبي والزهاوي ، ذلك هو الحاج عبد الحسين الازري الذي وان لم ينل الا الجائزة الثانية في رأي المحكمين بسوق عكاظ فقد لفت اليه الانظار بكونه من فحول شعراء العراق ، ولاول مرة بدأ الادباء ينظرون اليه نظرة فيها الشيء الكثير من الاكبار والاعجاب .

صحيح ان الازري كان ينظم الشعر من قبل ، ولكن هذا الشعر لم يكن معروفاً بالشهرة التي عرف بها بانه كاتب وصحافي وطني وهو من مواليد سنة ١٨٨٠ وقد اصدر في العهد العثماني صحيفة (المصباح) و (مصباح الشرق) ثم (المصباح الاغر) ثم (الروضة) ودعا في صحفه إلى الحرية ، ودافع عن العرب والعروبة فيها يوم كان الذين يعرفون شيئاً عن حقوق العرب قليلين جداً حتى ضاق صدر الحكومة فسجن ونفي إلى الانضول الذي بدأ يقرؤه الناس بعد اشتهاره بالشعر وكونه من اكابر شعراء العراق ، والغريب انه شاخ ولم تشخ معه هذه الروح الوطنية والحماس الذي عرف به . ويكفي ان نسمع من شعر شيخوخته قوله :

وطني لاجلك قد عدمت قراري ... وسئمت فيك حياة هذي الدار
أحيي الليالي والعيون هواجع ... وهواجسي في جنحها سمّاري
أتنفس الصعداء ما بقي الدجى ... حتى أكدر نسمة الاسحار

إلى أن يقول :

قل لي اذا لم أقض دون مقاصدي ... عمري فما هي قيمة الأعمار ؟

وفي رثائه للامام الشيخ مهدي الخالصي وهو من كبار زعماء الثورة العراقية الكبرى وحاملي لوائها تتجلى شاعرية الازري ووطنيته ، واحاسيسه باجلى مظاهرها اذ يخاطب هذا الزعيم الثائر فيقول :

عهدتك غير مكترث لخطب ولو هوت السماء على الوهاد
وكنت تقل في جنبيك عزماً يفل مضارب البيض الحداد
فكيف تمكّنت منك المنايا وصرت ازاءها سلس القياد
فما للحق بعدك من يرجّى ويدفع عنه غارات الأعادي
أردت لصالح الاسلام أمراً فحال الموت من دون المراد
اذا استعصى رثاك على لساني فحسبك منه جمر في فؤادي

إلى أن يقول :

خدمت الدين لا طلباً لجاه ولا طمعاً بمال أو عتاد
ألم تكس العراة وأنت عار وترو الظامئين وأنت صاد ؟
بذلت النفس في اصلاح قوم طباعهم تميل إلى الفساد
لقد عادتك مذ عرفتك حراً وحدّ السيف يعرف بالجلاد
فدعها وليطب لسواك فيها رغيد العيش من باغٍ وعاد

وقد هاجت قضية اختلاف ابراهيم كمال وعبد الكريم الازري ابن الحاج عبد الحسين الازري وكان ابراهيم كمال وزيراً للمالية وقد اتهم بالعجرفة والتباهي كغيره من كبار الموظفين الذين قفزوا إلى الوزارة في تلك الايام لانعدام الكفاية واللياقة فتعالوا على الناس ، وكان عبد الكريم الازري يعمل في وزارة المالية قبل ان يكون وزيراً للمالية فاخرجه ابراهيم كمال من وظيفته لقد هاجت هذه الخشونة من ابراهيم كمال قريحة الحاج عبد الحسين الازري فنفث ما في صدره في قصيدة من اروع القصائد التي تصف الكثير من حكام ذلك الوقت نورد بعضها على سبيل المثال يقول الازري :

أضحكتنا ورب ضحك بكاء فترة من زماننا رعناء
فترة ضاعت المقاييس بين الـ ناس فيها وسادت الأهواء
خلقت من حثالة الناس رهطاً عرفت بعد خلقها الابناء
ان تسل منه فالجواب اقتضاب أو تسلّم فردّه ايماء

من رياش تحفه في المقاصير وكانت تلفّـــه القرفصـــاء
وتخبّ السيارة اليوم فيـــه بعد أن خدّ أخمصيه الحفاء
واذا ما استنسبته قال إنّـــا من أياد وغيرنا الأدعيـــاء
نحن من حاملي اللواء بذي قار أبونـــا وأمنـــا الجربـــاء
وجبـــال السراة تشهد أنّـــا عرب ليس غيرنا عربـــاء
ليت شعري والعهد ليس بعيداً غبي الناس أم هم الأغبيـــاء
يوجد الخير حيث يوجد في المرء ضمير يشع منه الضيـــاء

نقل لي محمد حسن المحاويلي وقد كان على رأس البعثة العسكرية التي اوفدتها الحكومة العراقية لتدريب القوة العسكرية اليمانية، قال لقد سألني الامام يحيى حميد الدين ذات يوم عما اذا كنت اعرف الحاج عبد الحسين الازري فاجبته بالايجاب، وسألني عما اذا كنت احفظ شيئاً من شعره فاجبته بالنفي، فقرأ عليّ القصيدة (الهمزية) المتقدمة وقال من كان مثل هذا شعره فلا يجوز ان لا يستظهره احد ، والغريب انه كان يحفظ القصيدة كاملة ، ويتعقب الصحف العراقية التي نشرت هذه القصيدة يومها لعله يعثر للازري على امثالها فيحفظها. وللحاج عبد الحسين الازري ديوان شعر ولهذا الديوان ذكر في الجزء الثاني من كتابي (هكذا عرفتهم) وفي هذا الجزء نفسه عند استعراضي للازري .

اقول ظاهرتان قويتان قد ظهرتا في سوق عكاظ فكانتا بداية حركـــة واسعة الاولى خروج صبيحة الشيخ داود على التقاليد وجرأتها وهي لا تزال طفلة في القيام بتمثيل دور الخنساء وهو دور خطير كان له صدى استنكار في اول الامر ثم حين انتشر الوعي وبدأت النفوس تفهم شيئاً من الواقع قدر الناس رجالا ونساء هذه الخطوة ثم كانت لهذه الخطوة قيمتها في اندفاع صبيحة وجرأتها في السير إلى نهاية الطريق ، ولم تقتصر الاولية لصبيحة في هذا القسم من ميدان النهضة النسوية ، وانما كانت اول خطيبة من نساء

العراق تشارك الرجال في تابين الزهاوي الشاعر سنة ١٩٣٧ ثم كانت الاولى في درجاتها العلمية طوال الدراسة الابتدائية والثانوية ، ودراسة الحقوق التي لم يستثن منها الا السنة الاولى التي كانت صبيحة فيها الثانية في الدرجات اما السنوات الثلاث التي تلتها فقد كانت الاولى في كل النتائج السنوية ، وهي بعد ذلك ، اول طالبة دخلت كلية الحقوق ، وأول حقوقية تخرجت من الحقوق ، ومن الحق هنا ان نذكر الدكتورة ملك غنام بكونها اول طبيبة تتخرج من كلية الطب ببغداد .

— ٤ —

وكانت صبيحة اول محاضرة من النساء تلقي محاضرة بدار المعلمين العليا في (ملامح النهضة النسوية) . واول من دعت إلى تخصيص سنة للمرأة العراقية في مقالات صحافية ، ودعوات اذاعية ، وذلك في سنة ١٩٥٤ وقد تبنت جريدة (الحارس) التي كان يصدرها صبيح الغافقي هذه الدعوة وصارت تروج لها فيما تنقل من مقالات واخبار تخص المرأة العربية والعراقية خاصة .

وهي من اوائل المحاميات فقد زاولت المحاماة وانتسبت لنقابة المحامين سنة ١٩٥٦ واول قاضية من النساء في العراق والبلاد العربية .

وبعد ذلك كانت اول مؤلفة بين الرجال والنساء التي عنيت بتاريخ النهضة النسوية في العراق في كتابها (اول الطريق) الذي اصبح من المصادر المهمة لمن يعنيهم الوقوف على كيفية نهوض المرأة العراقية واول قدم وضعتها المرأة العراقية في هذا الميدان .

ثم هي اول سيدة تفتح صالوناً على غرار صالونات السيدات الفرنسيات

في القرون الاخيرة ، وعلى شاكلة صالون السيدة هدى شعراوي والادبية اللامعة ميّ زيادة ، انما الفرق بين صالون مي ومرتاديه وصالون صبيحة هو ان رواد صالون مي وزوارها يكادون يكونون متشابهين ، فهو اي صالون مي مقتصر على زبدة رجال العلم ، والادب ، والصحافة ، امـا صالون صبيحة فكان يجمع بين طبقات مختلفة ، وقد تكون غير متجانسة من حيث الملكات والمواهب . ففيهم العلماء ، والأدباء ، والصحافيون ، ورجال السياسة ، والوزراء ، والسفراء . كما ان فيهم من لا تجمعهم بهؤلاء جامعة ، ومن ليس من بعض هؤلاء في شيء ، وليسوا في العير والنفير كما يقول المثل السائر .

وهي بعد ذلك اول سيّدة تخصص يوماً واحداً وهو يوم الخميس من كل اسبوع ليكون ندوة ادبية مقتصرة على اهل الادب وكان من ابرز حضارها منير القاضي وحسين على الاعظمي وعبد المجيد لطفي والدكتور صفاء خلوصي وصبيح الغافقي وغيرهم .

ولربما كانت اول سيدة عراقية وهي لم تزل في العشرين من العمر تقوم بجولة في الاقطار العربية فتتصل بالشهيرات من اعضاء النهضة النسوية ، وتزور الجمعيات النسوية وتؤلف روابط صداقة واتصالات بينها وبين الكثير منهن وتظل هذه الصلات عامرة إلى ان مات من مات وإلى ان ماتت هي اخيراً .

وكانت اول تلميذة تحظى بالجوائز المدرسية كلها دون ان تدع تلميذة اخرى تشاركها فيها ، فحين كانت في مدرسة البنات المركزية ، كانت هناك جوائز سنوية قد خصصها الملك فيصل الاول للمتفوقات اللاتي ينلن الدرجة الاولى في الامتحان النهائي ، فكانت هذه الجوائز من نصيب صبيحة في كل تلك السنوات إلى ان تم تخرجها من هذه المدرسة .

والظاهرة الثانية هي بروز شاعر كبير ما كان احد يحسب قبل قيام

سوق عكاظ له مثل هذا الحساب ذلك هو الحاج عبد الحسين الازري الذي مر ذكره . واحسب ان هذا الالتفات اليه واظهار الاعجاب به ، وتدفق الثناء عليه يومذاك هو الذي دفع به إلى الامام أكثر واكثر وهو الذي عرّفه بانه ليس هو باقل من الرصافي والشرقي والزهاوي والشبيبي شاعرية فضلاً عن وطنيته التي صبغت له شعره بالطلاء الذي لا يبوخ .

— ٥ —

وكثيرة هي النواحي التي التصقت صفة الاولية فيها بصبيحة الشيخ داود في النهضة النسائية العراقية .

قلت : لقد كنت في النجف يوم مرت قصة الجمل الذي تسنّمته صبيحة وكنت في النجف يوم بدأ يمر ذكرها بين آن وآخر في بعض المناسبات ولم تكن لي اية صلة بها قبل انتقالي إلى بغداد سنة ١٩٤٨ ولا ادري ما اذا كنت قد ذكرت عنها خبراً في الصحف التي اصدرتها وهي (الفجر الصادق) و (الراعي) و (الهاتف) قبل انتقالي إلى بغداد ام لا . وكيفما كان الامر فقد انتقلت إلى بغداد ونقلت معي جريدتي (الهاتف) ومطبعتها ، وصار يعرفني عن كثب من كان يعرفني عن بعد .

ودعيت ذات ليلة لحضور حفلة اقيمت بكلية الملكة عالية بباب المعظم ، وهي كلية خصت للبنات دون البنين ونسيت الآن المناسبة التي استدعت ذلك الاحتفال واغلب ظني انه كان بمناسبة تخرج وجبة جديدة من طالبات هذه الكلية . وكان يجلس إلى جانبي رفائيل بطي ومن الجانب الآخر كان يجلس عدنان تحسين العسكري زوج عاتكة الخزرجي الاول ، وكانت عريفة الحفل الآنسة لميعة الظاهر ابنة عبد الهادي الظاهر وخطيبة الدكتور محمد حسين آل ياسين حينذاك ، ثم تم زواجها به وشبت النار في ثيابها في بيت

الزوجية وهي تعالج موقد النفط وتوفيت . وكانت جد لبقة في تقديم الخطيبات من الطالبات والشواعر واسف عليها الجميع لانها كانت اجمل بنات الكلية على الاطلاق ومن ابرزهن ثقافة وتقدماً في الدروس ، ومن عادة النجفيين انهم يستحسنون الجيد من الابيات ويستعيدونها ، وهو اكثر ما يستدعيهم إلى الاستحسان والاستعادة ، والا فانهم قد يستعيدون بداعي التشجيع اذا كان الشاعر مستجداً ، وقد يستعيدون اذا فاتهم تفهم البيت من انشاده لاول مرة فيستعيدونه ليتفهموه جيداً ، وقد يستعيدونه اذا ما لاح لهم خروج البيت على القواعد ليصلحوه في مجلس الشعر نفسه ، ولكن الاستعادة عامة كانت بداعي الاستحسان والاعجاب ، وتبعاً لقاعدة الاستحسان بدأت استعيد لعاتكة الخزرجي بعض الابيات . ولكن رفائيل بطي قد همس في اذني ان اكف عن الاستحسان والاستعادة ، فظننت ان المانع هو وجود زوج عاتكة الجالس إلى جانبي لذلك ملت اليه وقلت له : هل في استحساني لبعض ابيات زوجتك واستعادتي لها من ضير ، فاجاب بالنفي ، ورحت اطلق نفسي على سجيتها كما يفعل النجفيون ، ولكن رفائيل بطي عاد يطلب مني الكف عن الاستعادة فقلت له : ولكني قد استأذنت زوجها ، فقال ليس الامر يخص الزوج ، وانما يخص العرف هنا ، فليس هذا الاستحسان والاستعادة مألوفة ببغداد لذلك عملت بنصيحته وسكت ، ثم ظهر لي بعد ذلك ان الذي قاله رفائيل كان صحيحاً على الرغم من اني رأيت في بعض المحافل الشعرية من يستعيد الشعر ببغداد ولكن ذلك كان نادراً وقليلا ولربما كان هذا القليل نتيجة لعدوى نجفية تسربت إلى بغداد ، ومع هذا فلم استسغ الخروج على ما الفته في النجف وظللت استحسن البيت الجيد واستعيده في المجالس الشعرية ببغداد اكان هناك من يعمل عملي ام لم يكن .

وفي حفلة تابين صبيحة الشيخ داود التي اقيمت بقاعة كلية القانون والسياسة ببغداد كان هناك شعر ، وفي بعض هذا الشعر ما يستحق الاستحسان والاستعادة وفي ضمن ذلك قصيدة رائعة للشاعرة الاولى من شواعر الشعر

العمودي في العراق السيدة مقبولة الحلي ، وكان بين حضار هذا الحفل رهط من رجال الادب والشعر ويكفي ان يكون بينهم الدكتور مصطفى كامل ياسين ، فهو إلى جانب بروزه في القانون الدولي وشهرته التي تجاوزت حدود البلدان العربية كان شاعراً بارعاً نشرت له جريدة (الهاتف) شعراً رائقاً من قبل . وكان عبد الرزاق الهلالي الباحث الكاتب الشاعر . وكان بسيم الذويب صاحب ديوان (صدى السنين) وكان غير هؤلاء من المعروفين ، والعجيب العجيب انني كنت وحدي الذي استحسن وأستعيد ، حتى لقد لفت الانظار باستحساني واتجه الكثيرون من مختلف الصفوف إليّ ليروا من هذا الذي يخرج على المألوف ويكثر من الاستحسان والاستعادة حتى للشواعر من النساء .

وسألت عند ختام الحفل ، لقد سألت الدكتور مصطفى كامل ياسين : الم يكن من واجبك كشاعر يعرف مواطن الابداع ان يستحسن ويستعيد ؟ فلماذا كنت جامداً ؟ قال : اجل وكنت استحسن ولكن بصوت خافت غير مسموع .

وظاهرة اخرى بدت لي ببغداد تخالف طبيعة النجف ومزاجه وتلك هي ما نسميها (بالنكتة) ، وقد نبهني اليها النجفيون الذين سبقوني في الانتقال إلى بغداد وحذروني من (التنكيت) والدعابة المألوفة في النجف ، ذلك ان النجفي كالمصري تماماً يضحك للنكتة حتى وان كان هو مدارها ، ويستقبلها بانبساط ، ويروح يرويها لغيره ، ولم يبال ان يكون هو موضوع تلك النكتة ، وانها دائرة عليه ، وانه هو المعنى بمغزاها ، ولقد روى عن السيد محمد القزويني الزعيم الذي جمع بين الزعامة الروحية والزمنية في الحلة انه اغتاظ من اهل الحلة وتركها مستكناً في كربلاء فذهب اليه رؤساء الحلة ووجهاؤها يستر ضونه ويقبلون يديه وقدميه ولم يزالوا به حتى ارغموه على قبول معذرتهم

ورأوا ان يبالغوا في احترامه وتكريمه بان يحملوه فوق تخت على رؤوسهم من كربلاء حتى الحلة وهي مسافة تبلغ العشرات من الكيلومترات ، وعبثاً راح توبيخ القزويني لهم بان مثل هذا العمل يعدّ عملاً صبيانياً واذا كان المقصود المبالغة في ترضيته فانه يعلن على رؤوس الاشهاد بانه راض... وراض .. وراض ، وهنا دنا منه احد الحليين وباللغة العامية الشعبية قال له (سيدنا ياما انجس منك شلناهم على راسته) اي لماذا كل هذا الامتناع منك فلطالما حملنا من هو انجس منك على رؤوسنا ولقد لذّت للسيد محمد هذه النكتة سواء قد جاءت عن سذاجة او دعابة مقصودة وظل يرويها معجباً بها .

اما البغدادي فالغالب انه يأخذ النكتة والدعابة مأخذ الجد ويغضب ، باستثناء الاقلية التي تفهم قيمة النكتة منهم .

قلت لحلاقي ذات يوم على سبيل المزاح وهو يلقط الشعرات البيضاء من حاجبي ، قلت له : يبدو لي انك تتعمد ان تنتف الشعرة السوداء وتترك البيضاء لتفضحني بين النساء ، فراح حلاقي يقسم باغلظ الايمان بانه لم ينتف الا البيضاء ثم بدأ يضع كل شعرة ينتفها على كفي كشاهد على ما يقول ولم يفد معه قولي باني مازح فيما اقول .

— ٦ —

ومالنا واستحسان الشعر ، وهضم النكتة ، وكل قصدي ان اقول باني حضرت حفلة التخرج لكلية الملكة عالية وحين انتهى الحفل وبدأ المدعوون ينتشرون سألني رفائيل بطي عما اذا كنت قد تعرفت بصبيحة الشيخ داود ، فاجبته باني اعرفها بالاسم ولا غير ، قال اذن تعال لاعرفك بها وكانت صبيحة بين تلك الجموع من النساء والرجال تستلفت الانظـــار بحيث لو

بمناسبة زيارة الوفد التركي لبغداد في ٢٢ آذار ١٩٥٦ من اليسار – توفيق الفكيكي ، مشكور الاسدي ، سعاد العمري (رئيسة الفرع النسائي للهلال الاحمر) صبيحة الشيخ داود (العضو البارز في الهلال) علي كمال ، نزهت عقراوي ،

وضعتها بين المئات من النساء المتانقات لميزتها من بينهن . فهي تعني بهندامها لحد لا يوصف من حيث الثياب والحلي والعقود ، وقد ماتت وهي في مثل هذه الاناقة ، فقد كانت تخيط ملابسها ببيروت في الغالب وتجلب فساتينها من اشهر المخازن في مصر وباريس . وكانت مصر في تلك الايام محط الانظار في اقتناء الطرائف من كل شيء ولاسيما الالبسة الانيقة والفساتين النموذجية وكان لمخزن (شكوريل) و (وصيد ناوي) بالقاهرة شهرة جد كبيرة واكبر من شهرة بيروت والكويت وطهران بالبضائع في هذه الايام .

وتقابلنا ولم اكن قد رأيت صورتها قبلا ، ولا ابالغ اذا قلت ان من النادر ان تقع عين امرىء على سيدة مثلما تقع على صبيحة ، اذ لا تمر بضع دقائق ، بضع دقائق لا اكثر من التحدث معها حتى يشعر من يراها انه امام امرأة صريحة ، واضحة ، يكاد لسانها ينطق بكل ما في صدرها ، تمثل في حديثها بل وفي قسمات وجهها الشيء الكثير من البراءة ، حتى في مباهاتها اذا ارادت التباهي ليلمس المرء ضرباً من السذاجة هي اقرب إلى سذاجة الاطفال ويتعجب كيف تظفر صبيحة بالاولية في جميع مراحل دراستها ثم لا يبين لهذا من الاثر في ملتقاها . ولكن الذي يتعرف اليها سيعجب بها غاية الاعجاب ، وينجذب اليها حين يرى انها قد اخذت من المثل الانسانية والطيبة الكثير الكثير الذي يتجاوز الحد عند الكثير من امثالها من السيدات .

هي هذه صبيحة بكامل واقعها ، صبيحة الوجه ، حلوة الشمائل لحد مقبول ، بعيدة عن التكلف لحد معقول ، مجبولة على شيء غير قليل من فضائل الانسانية .

وكان سؤال ، وكان جواب ، اذن انت التي تسنمت الجمل في سوق عكاظ ؟ قالت انا نفسي ولكن اتدري كيف كان ذلك ؟ وبدأت تقص عليّ قصتها ، ثم عينت لي ولرفائيل ليلة من الاسبوع لتناول العشاء على مائدتها وكانت والدتها لا تزال على قيد الحياة فنعمت بمعرفتها وهناك تعرفت باخيها

توفيق الشيخ واختها فخرية ونورية ، وكثيراً ما تعمل هذا مع من تراه لاول مرة ولو لم يكن لها به سابق معرفة من قبل ، لذلك قل من يزور العراق من الدول العربية ويزور صبيحة لاول مرة او تلتقيه لاول مرة ولم يتناول على مائدتها العشاء ، فهي سخية النفس ، كريمة الطبع ، فاذا دخلت بيتها وجدت من الترحيب والتهليل ما لم تجده الا عند القليل من الاطياب نساء ورجالا .

ويقوم اليوم الدكتور عبد المجيد القصاب بنفس هذا الدور فلا يترك زائراً محترماً يزور بغداد دون ان يكرمه ويدعوه ويدعو معه طائفة ممن يجانسونه لتناول الطعام على مائدته ، ولقد اشرت انا إلى هذه المزية التي عرف بها القصاب في الحفلة التكريمية التي اقامها للشيخ جلال الحنفي فخاطبت القصاب قائلا :

اعددت بيتك منتدى حتى اغتدى اسمى بيوت المجد في بغداد

وصبيحة لم تشرب الخمر ، ولم تدخن ، ولم تقيد نفسها باي قيد من هذه القيود التي يتقيد بها الكثيرون ولكنها كانت تحب (البرج) ولعبت البرج في اواسط عمرها وقد يكون (البرج) هو الذي شغلها عن المطالعة والاستمرار في القراءة بعد تخرجها من الحقوق ، وجعل ممارستها للقراءة والكتابة قليلة ومحدودة .

— ٧ —

هكذا عرفت صبيحة اول ما عرفتها عن كثب ، ثم زادت معرفتي لها واتصالي بها عن طريق صبيح الغافقي ، وصبيح الغافقي كنت اعرفه وهو صبي صغير السن في النجف فقد كانت لي بابيه الذي كان يرأس شرطة قضاء النجف صلة صداقة ومحبة يوم كنت اصدر جريدة الفجر الصادق في أواخر العشرينات ، وظل صبيح وهو طفل ينظر إلى هذه الصداقة بعين التجلة

والاحترام على اساس صداقة الاباء يرثها الابناء ، وصلة صبيح بصبيحة هي صلته كصحافي بعمل في جريدة الزمان بكل الطبقات من رجال السياسة ، والادب ، ومن نساء المجتمع اللامعات ، فقد كان سباقاً في نشر اخبار المجتمعات العربية ، وقد كسبت جريدة (الزمان) عن طريق صبيح شهرة واسعة في سبق الجرائد الاخرى في نقل الحوادث ، وقد كانت لصبيح في اغلب الاقطار العربية صداقات متينة مع ابرز رجال السياسة ورجال الادب ، فكانوا يكاتبونه وكان يكاتبهم . وإلى جانب شهرة صبيح الغافقي في تلقط الاخبار واستقائها من مختلف الجهات وكتابة الريبورتاجات الجذابة التي كان يجيد حبكها والتي كنت اعتقد انه هو ومشكور الاسدى كان لهما القدح المعلى في نسج الريبورتاجات الصحافية ، اقول لقد كانت إلى جانب شهرة صبيح الصحافية شهرة اخرى هي الوفاء ، فما اعلم اني زرت قطراً عربياً وقد عرف ادباؤه صلتي بصبيح الا وسألوني عنه بلهفة وذكروا لي شيئاً من وفائه .

وبالاجمال فقد كانت مهمة صبيح الغافقي الصحافية ان يعقد الصداقات بينه وبين اللامعين من النساء والرجال فجرني صبيح إلى الكثير من المجتمعات ومن جملة ذلك إلى صالون صبيحة الشيخ داود .

وصالون صبيحة الشيخ داود عامر برواده وزواره من مختلف الطبقات كما قلت من قبل كلا حسب زمانه والوقت الذي وجد فيه من الوزراء والعلماء امثال منير القاضي وزير المعارف السابق واحد اساتذتها ومن زملائها امثال راسم عبد الحميد ، والدكتور مصطفى كامل ياسين الذي كان يضاهيها في الحصول على الاولية في كل سنينه في كلية الحقوق ، ومن حضار صالونها من المحامين وحملة الاقلام امثال المحامي الصحافي الاديب الحاج نعمان العاني ، صاحب جريدة العرب ، وتوفيق السمعاني صاحب جريدة الزمان ، وعبد المجيد لطفي ، والدكتور صفاء خلوصي ، وفيصل حسون ، وصبيح

الغافقي صاحب جريدة الحارس ، والدكتور اسماعيل ناجي ، والدكتور خالد ناجي ، وقاسم حمودي صاحب جريدة الحرية وزميلها في الدراسة في الحقوق .

ومن السفراء الذين كانوا يزورون صبيحة بكثرة كان خليل مردم بك ، وكان كاظم الصلح ، وكان وصفي التل ، والدكتور عبد الهادي التازي ، ومحمد الناصري وهاشم خليل ، وكثيراً ما تحضر السيدات مع ازواجهن وفي بعض الاحيان تزيد نسبة النساء على الرجال في الحضور .

وكان هذا الصالون يجمع بين المتناقضات فكثيراً ما يحضره اعضاء من احزاب مختلفة فيسود بينهم الصفاء في هذا المجلس امثال حسين جميل ، وفائق السامرائي ، وقاسم حمودي ، وفائق توفيق ، وكل هذه الاسماء نسوقها على سبيل المثل لا الحصر .

ولم تكن زيارة صبيحة في الغالب مقتصرة على الزيارة وحدها اذ كثيراً ما تنتهي بدعوة عشاء لاسيما اذا كان هناك زائر من البلدان العربية قد ورد بغداد حديثاً فيقوم الجميع ومن دعي منهم ومن صادف حضوره مصادفة إلى مائدة يحس كل من يقوم اليها بكرم صبيحة وسخائها فيما يتفنن طباخها بطبخ الالوان وفي قلب المائدة يأخذ محله (السمك المسقوف) الذي لم تخل منه مائدة صبيحة في اية وليمة تقيمها ، وعلى الاخص اذا كان المدعوون من خارج العراق .

وكما يضم صالون صبيحة مختلف الاجناس من الناس رجالا ونساء فان الاحاديث التي تجري في صالونها تتناول مختلف المواضيع من احاديث سياسية وتعليقات على الاخبار ، ومناقشات ادبية ، وطرائف عامة وخاصة ، كما ان هذا المجلس لا يخلو احياناً من التوافه والزبد الذي يذهب جفاء وكثيراً ما ينتقل المفيد مما يجري في هذا الصالون إلى الصحف وعلى الاخص صحيفة (الحارس) التي انتدبت خصيصاً لنقل الاخبار الادبية والمناقشات التي تجري

في كل يوم خميس ، كذلك كانت جريدة (الزمان) كثيراً ما تعكس اخبار هذا الصالون وما يجري فيه .

وذات مرة بلغ البلاط الملكي ان بعض حضار صالون صبيحة الشيخ داود قد تناول الوصي عبد الاله بشيء من النقد . وكان ان ابلغ شاكر الوادي وكان حينذاك وزيراً للشؤون الاجتماعية صبيحة الشيخ داود استنكار البلاط وسخطه لما جرى او يجري في صالونها وطلب منها تنزيه ما يدور في هذا الصالون في مثل هذه التقولات ، الامر الذي دعا صبيحة ان تتصل بالاميرة شقيقة عبد الإله مستنكرة ومستغربة مثل هذا الحجر على الحريات الخاصة ، وكم كان غريباً حين وجدت الاميرة نفسها تؤيد صبيحة فيما ترثي وتلوم اخاها على مثل هذا التدخل بشؤون الناس الداخلية .

— ٨ —

وجاء في جريدة الحارس في سنة ١٩٥٣ ان جعفر الخليلي قد اثار في احدى جلسات ندوة صبيحة وبعض الحقوقيين موضوع الادب ووجوب افرازه عن المواضيع الاخرى التي تدور في هذا الصالون وذلك بتعيين يوم خاص بالادباء يقتصر عليهم دون غيرهم وقد رحبت صبيحة بهذا الاقتراح ، واقترح منير القاضي ان يكون الخميس من كل اسبوع هو اليوم المعين للادب والادباء كما اقترح ان تكون جريدة (الحارس) منبراً لاخبار هذا اليوم فتنشر خلاصة ما يدور فيه .

وبالفعل طالت الايام الادبية في بيت صبيحة وكثرت الاقوال والآراء التي نقلتها جريدة الحارس عنه وربما تناقلتها صحف اخرى عن (الحارس) .

وكان لعبد المجيد لطفي الذي لازم هذا اليوم الادبي مقال طريف عن هذا اليوم في (الحارس) وكانت صبيحة قد اهدت حسين علي الاعظمي

مسبحة جميلة جاءت بها معها من لبنان وقد اعجبت الحاضرين مداعبة الاعظمي لخرزات هذه السبحة وطقطقاتها الموسيقية ، فتناول عبد المجيد لطفي هذه المسبحة في احدى مقالاته وقال ان لطقطقة هذه الخرزات رنة ونغمة تقوم مقام التفاعيل في موازين الشعر ، ولعلها هي السبب في جعل هذه الموسيقى الخلابة الساحرة تفيض من شعر الاعظمي اكثر من التفاعيل التي تعلمها من علم العروض ، وقد هاج هذا المقال قريحة الشاعر حسين علي الاعظمي فجاءنا في الندوة التالية من الخميس بقصيدته الرائعة عن هذه المسبحة وصنعتها وقدسيتها وكل هذا كان قد نوقش في الجلسة التي كتب عنها عبد المجيد المقال ، وقد قرئت القصيدة ، ونشرها (الحارس) وتناقلتها بعض الصحف عن الحارس وهي التي اوردها هنا :

جاءت اليّ بسبحة من أدمع ... أو سبحة من أكبد وقلوب
من جيد راهبة تسبح ربها ... في الدير باسم مسيحها المحبوب
خلعت بها ثوب الذنوب بزحلة ... وخلعت في بغداد ثوب ذنوبي
وعكفت في محراب قلبي خاشعاً ... لأنال في محرابه مطلوبي
متعلقاً بالله جل جلاله ... متشفعاً بحبيبه وحبيبي
متوسلاً ، متأملاً ، متضرعاً ... متطلعاً في لوحه المكتوب
مترقباً عند الغروب شروقه ... لتدور بي شمس بدون غروب
وتسير في بحر الوجود سفينتي ... بشراع روحي أو بخار لهيبي
وتطوف حول حبيبها هيمانة ... بجماله من غير عين رقيب
فهو القريب لهائم في قربه ... ولمن جفا ونأى فغير قريب
وهو المجيب لعاشقيه سؤلهم ... ولمن طغى في الأرض غير مجيب
اني لأهواه وأهوى قربه ... مستعذباً في حبه تعذيبي
لأرى بنور جلاله ما لا ترى ... عين امرىء من سرّه المحجوب
وأحلّ من ملكوته في موطن ... فيه غريب الدار غير غريب
يا نفس هذا منزلي فاستبشري ... يا نفس في وطن الخلود وطيبي

انه والله من العقوق المر ان ننسى حسين علي الاعظمي الذي طالما اسدى لوطنه المعروف وهو وكيل ومعاون لعميد كلية الحقوق ، وقد تخرجت على يديه المئات من الحقوقيين الذين لا يزال الكثير منهم اليوم قضاة ، وحكاماً ومحامين ، ومن العقوق ان نتناسى شاعراً كان المجلي في الكثير من المناسبات التاريخية والوطنية والغريب اننا لم نعد نذكره حتى استطردا وعرضا حين يمر ذكر الذين اسهموا في خدمة كلية الحقوق او الذين يمر ذكرهم كشعراء في هذه الفترة من الزمن .

ومما ذكر في يوم الخميس الذي خصته صبيحة باهل الادب والشعر والحقوق ان مناقشة جرت بيني وبين الاستاذ منير القاضي . والاستاذ منير القاضي عالم معروف وفقيه شهير وقع في اشتباه او سهو ولكن ذلك الاشتباه والسهو لن يقلل من قيمته كعالم جليل ، فقد روى ذات ليلة فيما روى بيتاً من الشعر رواه على هذا النحو مستشهداً به :

واني رأيت الناس فيما رأيتهـــم ظواهرهم ليست كالبواطـــن

وكان قد روى لي في مجلس آخر من مجالس صبيحة الشيخ داود بيتاً آخر من الشعر كان هو الاخر خارجاً على الوزن وكانت لي معه وقفة ، فقلت له ان هذا البيت غير موزون ، ولا بد ان يكون العجز مثلا (ظواهرهم ليست كما في البواطن) ، او يكون مثلا (ظواهرهم غير التي في البواطن) او يكون غير هذا فقال انا متأكد ان البيت قد ورد على هذه الصورة فقلت من الجائز ان يكون الخطأ من الطبع اذا كان النص مطبوعاً ، ومن الناسخ اذا كان النص مخطوطاً او ان يكون البيت من محفوظات الصغر ، اذ كثيراً ما يعلق الشيء بذهن المرء من صغره وهو خطأ فيظل مرتسماً في الذهن حتى ولو بعد ان يتمكن المرء من اللغة والنحو والصرف والعروض .

وبدا لي ان (القاضي) لم يرتض بقولي ، ولم يجرّ بنا النقاش إلى اكثر من هذا فالرجل كبير الشأن ، ومحترم ، وعالم بحق ، وكفاني اني كتبت

في مشغل الهلال الاحمر للسيدات — فرع الايتام عن اليسار نمر ابو شهاب ، وصبيحة الشيخ داود ، وجعفر الخليلي!

البيت في مذكرتي ، ثم نسيته ، وقد بحثت عنه اليوم في عدد من المذكرات الجيبية حين جاء ذكر الصالون حتى وجدته ، وصار عندي من اليقين ان العلم وحده او علم العروض وحده لا يكفي لضبط الوزن عند العلماء ما لم تكن السليقة الفنية سليمة عند هؤلاء العلماء .

وجرى مرة في هذه الندوة من يوم الخميس ذكر الطلاق وما اذا كان يجوز للمرأة ان تمنح حق الطلاق ، وكانت المناقشة عنيفة ، وكانت صبيحة ترى وجوب تعديل (الاحوال الشخصية) ومنح المرأة هذا الحق ، وكان منير القاضي يخالف هذا الرأي ويرى فيه خروجاً على الشريعة الاسلامية . فقلت ان الذي اعرفه عن المذهب الجعفري ولا ادري ما اذا كانت المذاهب الاسلامية هي الاخرى ترى مثل هذا الرأي ام لا ، هو ان بامكان المرأة ان تطلق زوجها اذا جرى مثل هذا الشرط في عقد الزواج ، كأن يتنازل الزوج عن حقه هذا لها ويعهد به اليها . لا اذكر ما كان رد من حضر من الفقهاء على هذا الرأي ، ولكني اذكر ان منير القاضي اراد ان يمزح فقال : لو اردنا ان نجعل الطلاق بيد المرأة لما غبن احد غيري في عالم الرجال لانني ساكون اول من تطلقه زوجه وذلك لانعدام المزايا التي تتطلبها الزوجة في زوجها في شخصي ، فضحك الجميع ، واستغفر بعضهم لما يعرفون للشيخ القاضي من المزايا الفائقة من حيث دماثة الخلق والانسانية فضلاً عن علمه وادبه .

وتعطلت ندوة الآنسة صبيحة في السنوات الاخيرة ولم يعد لصالونها ذكر الا حينما يمر بالعراق من الاقطار العربية شخص ذو مكانة تستوجب دعوته للعشاء ودعوة البعض مما يتناسب وجودهم معه من الاصدقاء . او حين تكون هناك مناسبة تستدعي دعوة البعض بقصد التكريم ، وكثيراً ما يكون هذا التكريم خاصاً بسفراء الدول العربية ، وهناك يعود لهذا الصالون رونقه ويعود المجال واسعاً لمن يريد ان يدلي برأيه في اي شأن من الشؤون .

— ٩ —

وضاقت الدنيا في عيني صبيحة لاسيما وهي لم تتزوج ولم يكن لها شيء يشغل به اوقاتها خصوصاً وان البيوت التي كانت تجلس للناس باسم (القبول) هي الاخرى قد الغت ايام قبولها واعتاض البعض منها بالاندية كنادي (العلوية) ونادي (المنصور) ونادي (السكك) والهنديـــة وغيرها ، ولم تكن صبيحة لتميل للاندية لذلك كانت تقضي من كل سنة وقتاً في السفر ، وكان يعجبها من لبنان بيت الاستاذ عجاج نويهض ، ولم يكن بيت نويهض يعجب صبيحة وحدها وانما قد جعل ابو خلدون عجاج نويهض المؤرخ الكبير الذي ينفرد اليوم بالوقوف الكامل على تاريخ القضية العربية عامةوقضية فلسطين خاصة والذي زامل الامير شكيب ارسلان والمفتي الحاج امين وعبد القادر الحسيني ، وآل النشاشيبي ورافق القضية العربية من مبدأ انبعاثها حتى اليوم ، وعقيلته الشاعرة المبدعة واحدى رائدات الشعر بين الشواعر العربية ، لقد جعل هذان الزوجان بيتهما محجاً يحج اليه اهل الادب والمعرفة من كل مكان فيتغذون به جسماً مما يقدم لهم من اطايب الطعام ،وروحاً مما يفيدون به من كنوز هذا البيت ومعارفه ، وانا واحد من هؤلاء الذين ينعمون بمحبة هذا البيت وافضاله ان انا سافرت إلى لبنان ، واية سنة هي التي لا اسافر فيها إلى لبنان ؟ وقد ذكرت اذاعة بيروت في السنة الماضية ان الشخص الذي زار لبنان اربعين مرة هو جعفر الخليلي .

اقول لم تحب صبيحة بيتاً كما احبت بيت عجاج نويهض براس المتن ، وكانت علاقة صبيحة بالبيوت داخل بغداد وخارجها شديدة وكانت ترتاد القصر الملكي وتزور الاميرات، وتربطها بالعائلات روابط جد متينة .

والفت الدخول إلى بيتنا وتحكمت المودة بينها وبين زوجتي وبناتي وحين توفيت زوجتي كانت صبيحة ممن احسنوا مواساتنا ، وظلت صلاتها ببناتي شديدة وقائمة إلى حين وفاتها .

وفي صبيحة مزايا انسانية تمتاز بها على غيرها اكثر من اي شيء آخر فهي طاهرة النفس ، اذا علق بذهنها ما يكدر الصفو فسرعان ما يزول ، واذا ساءها شيء من صديق فما اسرع رضاها ، لم تعرف الحقد ، ولا الحسد ، ولا معاداة الناس ، وهي بعد ذلك ساذجة كانها لم تكن قد تعلمت شيئاً او قد فازت بالدرجات الممتازة في جميع مراحلها وهذا هو عنوان الطيبة ، وقد تركت الشيء الكثير من الاثار التي تذكر بقيمتها الانسانية ومنزلتها الكريمة عند معارفها لقد تركت الصحف التي كانت تصدر في ايامها وفي مقدمتها جريدة (الحارس) وجريدة (الزمان) وجريدة (الاخبار) تتحدث بما يلذ للقارىء ان تتحدث به ، وتركت من طالباتها مثل الدكتورة لمعان امين زكي ، والشاعرة فطينة النائب ، والدكتورة امنة صبري مراد ، واديبة ابراهيم رفعت خير امثلة لنهج صبيحة في التربية والتعليم .

كانت كريمة وقد بذلت كل ما كان يقع تحت يدها في معونة الكثير ممن يستحق المعونة ، وقد وقع تحت يدها الشيء الكثير سواء من الارث او من الرواتب وحين ماتت لم يكن عندها من الرصيد في البنك غير خمسة دنانير ، خمسة دنانير لا غير .

* * *

حين صدر كتابها (اول الطريق) كان الدكتور اسماعيل ناجي وهو من اصدقائها الملازمين لحضور صالونها ، وكان يصدر مجلة (العيادة الشعبية) وقد سألني شيئاً عما يتعلق بتعليم المرأة في النجف ، ليكتب مقالاً في مجلته ، وبالفعل كتب هذا المقال ، ولست ادري اهو الذي كتب المقال وضمنه بعض ما كان قد سألني عنه ام ان كاتب المقال كان غيره ؟ واغلب الظن ان كاتب المقال كان غيره اذ كثيراً ما كان الدكتور اسماعيل يستكتب الكثيرين من الاصدقاء لمجلته ويبدو ان المقال كان يغاير بعض ما ورد في (اول الطريق) فظنت صبيحة انني انا الذي كتبت المقال ، فعلق بنفسها شيء لم ترتضه مني ، وقد احسنت كثيراً حين كاشفتني بذلك ، فحدثتها بالواقع ، واحسب ان الدكتور اسماعيل قد ايدّ لها ذلك ، فزال من ذهنها كل شيء كان قد طبع من قبل في

نفس الدقيقة ودون عتب او سؤال .

وهذه الطيبة التي يعرفها لها الكثيرون والسخاء الذي جبلت عليه ، وصفاء النفس الذي اتصفت به ، والمحبة التي تغدقها على من تعرف هي التي حببتها للناس ، ولم تدع لها عدواً او كارهاً بل ولا حاسداً .

والغريب في امرها انها كانت تؤمن بالاحلام وتتوقع ان يحدث لها في اليقظة ما كانت رأته في النوم ومن الغريب ان احلامها كانت تصدق ومن هذه الاحلام التي صدقت والتي روى صدقها صبيح الغافقي وكان الشاهد في ذلك بديع رفائيل بطي وهاشم جواد وزير الخارجية ، هو انها ذات صباح من شهر اذار ١٩٥٩ اتصلت بصبيح الغافقي تلفونياً وسألته عما اذا كانت في بغداد جريدة تصدر باسم الجمهورية فاجابها بالنفي لان جريدة (الجمهورية) كانت قد توقفت عن الصدور في تلك الايام ، فقالت له : انني حلمت الليلة البارحة بان جريدة الجمهورية قد نشرت خبراً مفاده ان عبد الكريم قاسم قد امر باعتقالي وتعريضي لسلسلة من ضروب التعذيب ، وقالت انها تتوجس خيفة من هذا الحلم لان الكثير من احلامها يتحقق في اليقظة ، والغريب في الامر — كما يقول صبيح — انه التقي بعد نصف ساعة ببديع رفائيل بطي — وكان بديع يعمل حينذاك في قسم الاعلام بوزارة الخارجية — وهو يسأل عن رقم تلفون محكمة الاحداث لكي يتصل بصبيحة ويخبرها بان جريدة الجمهورية المصرية في القاهرة لفقت خبراً بقصد التنديد بحكومة عبد الكريم قاسم مفـــاده ان السلطات العراقية قد قامت بتعذيب القاضية صبيحة داود الشيخ داود بحجة ميولها للمبادىء القومية ، وهو يطلب منها باقتراح من وزير الخارجية هاشم جواد تكذيب الخبر الذي نشرته (الجمهورية) القاهرية في احدى الصحف العراقية ، فنشرت صبيحة التكذيب كما اراد الوزير .

وكان هاشم جواد من المعجبين بصبيحة ومن مرتادي صالونها ، وحين ساء ظن عبد الكريم قاسم بالوزيرة (نزيهة الدليمي) وحاول تنحيتها استشار هاشم جواد فيمن يجب ان يخلفها من السيدات فاشار هاشم إلى صبيحة ، وقد عرض الامر على صبيحة على ما قيل فاعتذرت عن قبول الوزارة متمسكة

بالقضاء ، واذا صح الامر فالخير كله فيما فعلت ذلك لان صبيحة سيدة عاطفية تحب الناس وتحب ان تسدي معروفها للجميع ، ولا يعرف انها ردت طلباً لاحد وان صفات مثل هذه لا تلائم مهمة الوزارة .

لقد كان لصبيحة خادم يسرق ما يقع تحت يده من حاجاتها ويبيع ما يسرق بالزهيد من الدراهم في السوق ، وقد حارت فيما ينبغي ان تفعل لردعه ، اما طرده فهذا ما لا يجوز عندها لاسيما وهو يخدمها منذ سنين واخيراً استغلت غباوته واتفقت معه على ان يبيع عليها ما قد يعثر عليه في البيت مسمية السرقة باللقطة وهي مستعدة لان تشتري منه اللقطة بثمن اعلى مما يدفعونه له في السوق ومنذ ذلك اليوم صار يعرض عليها ما يسرقه منها قائلاً : لقد وجدت هذا يا عمتي في الشارع فبكم تشترينه فتتظاهر هي بالغباوة وتساومه وهي تضحك وتشتري منه حاجتها المسروقة .

تصور ان هذا الخادم الغبي يأتيها بمعطف من الفرو مثلاً ويقول لها انه وجده في الشارع فتشتريه منه بدينار لئلا تجرح له عزة نفسه ولا تناقشه في كيفية عثوره على مثل هذا الفرو تصور هذا مثلا افلا ترى فيه بعض المنافاة بين هذا السلوك والسلوك الذي تتطلبه الوزارة ؟ اما المحكمة فان القانون هو الذي يتحكم في الحكم ولا سبيل إلى الخروج على حدوده فهي اذا رأفت بواحد يستحق الرأفة في رأيها ولا يجيز القانون تلك الرأفة فانها تجبر هذا الكسر بعد صدور الحكم وتعين المحكوم او تعين اهله .

وكثيراً ما كنا نلتقي في الدعوات الرسمية العامة ، وكثيراً ما كانت تجمعنا موائد بعض السفراء، كمائدة وصفي التل ممثل الأردن الدبلوماسي ببغداد التي رأيت فيها (المنسف) لاول مرة ، وهي الاكلة العربية الخالصة التي يحافظ عليها الاردن ، وفي بيت وصفي التل رأيت لاول مرة تآلف العدوين الكلب والقط فقد كان له كلب من فصيلة خاصة هي من اذكى فصائل الكلاب فكان يفهم شيئاً غير قليل من الكلام دون ان تصحبه الاشارة وذلك حين يؤمر بالخروج من الغرفة او الجلوس في الاماكن التي يطلب منه دون اشارة ، وكان لوصفي ايضاً قطة سيامية بنفسجية اللون وهذا اللون غريب احسب انه من النوادر وهي

من اليمين إلى اليسار – عبود الهيمص ، توفيق الفكيكي ، محمود بابان صبيحة الشيخ داود ، توفيق المختار ، علي كمال

تعيش مع هذا الكلب كما لو كانت كلباً من فصيلته .

وفي بيت الدكتور الهادي التازي ممثل المغرب الدبلوماسي ببغداد الذي كنا نأكل عنده وعند محمد الناصر الممثل الدبلوماسي الذي خلف التازي ببغداد اطيب اكلات المغرب ومن بعضها الكسكسي ، ونشرب الشاي بالنعناع حيث ينصب السماور وحوله الكؤوس الملونة الكبيرة التي تحاكي كؤوس الماء في الحجم ، وفي بيوت اخرى كانت تجمعنا المصادفة او الدعوات الخاصة ، ومن هذه البيوت التي جمعتنا موائدها بكثرة كان بيت صبيح الغافقي الذي كان لا يترك لوناً من الوان الطعام الذي عرفت به مدينة في العراق الا وحفلت بها مائدته .

• • •

واشتدت علاقتنا بصبيحة وكثرت زياراتها لنا وزالت الكلفة بينها وبين زوجتي وبناتي وصارت تتفقدنا كما يفعل ارحامنا لاسيما حين توفيت زوجتي ولم تحجم ان تطلب منا ما يطيب لها من المآكل ان هي زارتنا ، لأنها كانت مقيدة بنوع خاص من المآكل مراعاة لصحتها ، وكانت تطلب مني حين اعود من بيروت ان آتي لها بنوع خاص من (الدهان) المعروف (بكريم اليزابيت بوست) وهو نوع يلائم جلدة وجهها ويديها ، وكنت اكلف انا الست سامية قائدبيه بالبحث عن هذا الكريم ، والست سامية من صديقات عائلتنا الحميمة ، وقد لقيت قبل عدة سنوات يوم طلبت منها تحضير هذا الكريم لاول مرة مشقة للاهتداء اليه والتعرف بوكيله العام في لبنان وظلت في كل سنة تشتريه لي إلى ان تسرب إلى الحكومة اللبنانية بان في هذه الشركة الفرنسية مساهمين من اليهود فمنعت دخوله إلى لبنان ، ولكن هذه الشركة قد لجأت إلى حيلة جعلت هذا (الدهان) يستمر في دخول لبنان والبلدان العربية وذلك بان سمت هذا الدهان باسم آخر وابدلت (الماركة) بماركة اخرى لصقتها على الزجاجة . وكما استطاعت الست سامية ان تهتدي إلى وكالة هذه البضاعة فقد اهتدت إلى سر هذه الحيلة . واوصت [illegible] ان لا تعبأ بتغيير حجم

الزجاجة وشكلها ومماركتها . فهي هي نفس البضاعة المنشودة (والكريم) المطلوب الملائم لجلدها .

وفي هذا الصيف كانت الست سامية تحدث زوجة اخيها عن موضع وجود الكريم خوفاً من القدر الذي قد يداهمها – لا سمح الله – فلا اهتدي انا إلى موضع وجود هذا الكريم ولم تدر ان القدر كان يفكر في مداهمة صبيحة فلا تعود بحاجة إلى هذا (الدهان) .

وفي السنة الماضية ماتت الست نورية اخت الست صبيحة التي كانت تساكنها في البيت فاشتد حزنها عليها اذ بقيت في البيت وحدها ليس معها الا خادمها وطباخها وخادمتها الصغيرة وما كادت تخلع ثياب الحداد حتى ماتت اختها الست حسيبة فقد كان وقع هاتين المصيبتين كبيراً عليها . ولقيت ما كدر لها خاطرها ونغص عليها عيشها وعذب روحها من امور اخرى سببت لها وعكة اكثرت بسببها من مراجعة الاطباء ، وقد شغلنا عنها بعض الايام فتلفنت لنا معاتبة ولم يمض على عتابها يومين حتى تلفنت لنا معاتبة مرة اخرى قائلة انها مريضة وان ليس من عاداتنا اغفالها فاقسمنا لها ونحن صادقون بانه لم يلهنا عنها لاه وانما هي الدنيا وشرحنا لها الاسباب فقالت : فعليها هي اذن ان تزورنا فرحبنا بها وضربت لنا موعداً في نفس الاسبوع ، ولكنها وهي تحاول ان تبلع حبة من الحبوب في اليوم الثاني اذا بها تشرق بالحبة ويسكت هذا القلب النابض بالمحبة والشفقة وكان ذلك في يوم الثلاثاء المصادف ١١ تشرين الثاني ١٩٧٥ .

وقد سألتني ذات مرة : وهل ستكتب عني كلمة ؟ قلت لها : متعك الله بالحياة واطال عمرك فلماذا تفكرين بالموت ؟

ولكن صبيحة قد ماتت وافتقد بموتها عارفوها طائفة من المزايا التي قل وجودها في العنصر النسوي عندنا في العراق ، اما انا فقد افتقدت فيها طهارة النفس ، والسذاجة ، والانسانية بين الكثير من الرجال والنساء معاً ، وكان اسفي عليها كبيراً ، فقد ماتت معها طائفة من الذكريات العزيزة الثمينة التي لم يبق منها الا سطور منقوشة على الورق تغمدها الله برحماته الواسعة .

مكتبة الجوادين العامة
مؤسسة السيد هبة الدين الحسيني
التسلسل
تأسست سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م
مدينة الكاظمية - العراق

المحتوى

صفحة

١ الحاج أبو رشدي عبد الهادي الحلبي ٥
٢ السيد جعفر حمندي ١٣
٣ الشاعر حليم دموس ٥٣
٤ الأستاذ سامي الكيالي ٧٣
٥ الشيخ عبد المنعم العكام ١٠٣
٦ الأستاذ محمد علي الطاهر ١٤٧
٧ الأستاذ عبد القادر عياش ١٩٩
٨ السيدة صبيحة الشيخ داود ٢٢٩